تراث

toratheh
تراثية ثقافية منوعة تصدر عن نادي تراث الإمارات العدد 281 مارس 2023

أسماء المدن في الإمارات...
أصالة وانتماء

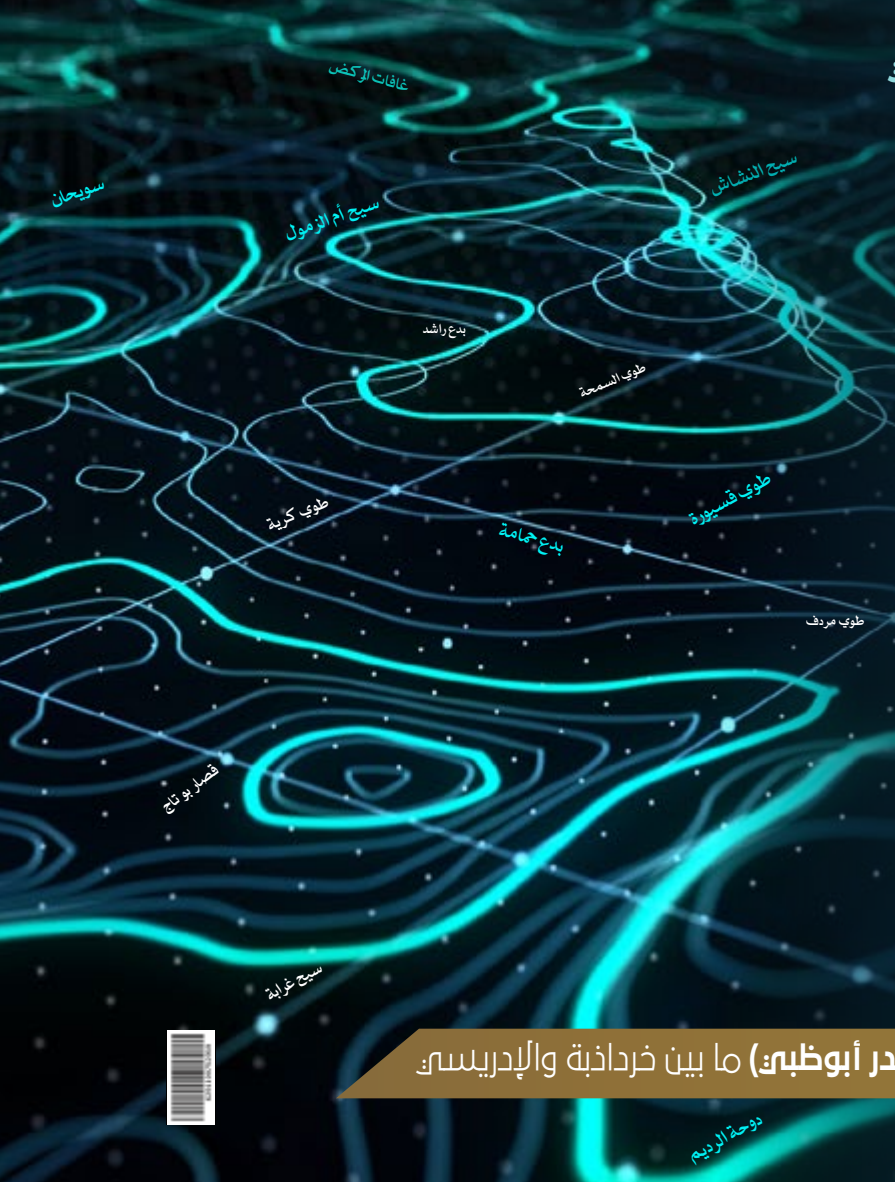

«بينونة» أيقونة الرمال

سرديات من التراث الشفاهي الإماراتي:
«سلسلة نماذج مختارة من إصدارات
مركز زايد للدراسات والبحوث»

أدب الرحلات بين الإمارات والعالم

أفعال المطاوعة والرجاء في:
بيدار اللهجة الإماراتية فيما طابق الفصيح

هوية المكان في ذاكرة القصيدة الإماراتية

ذكريات زمن البدايات: «جبل الظنة»

رمضان في لغة العرب وثقافتهم

نادي تراث الإمارات
يتميز بالحضور في مهرجان الظفرة

التراث الجغرافي الوصفي وأرض السبخة (بندر أبوظبي) ما بين خرداذبة والإدريسي

دور **أسماء الأماكن** في حفظ ذاكرة الوطن

اكتسبت المواضع والأمكنة أسماءها في دولة الإمارات العربية المتحدة من بيئات الدولة المختلفة سواء الاجتماعية أو الثقافية أو اكتسبتها من محيطها الجغرافي والتاريخي؛ فكانت حقاً كمرآة لما حولها وسجلاً لتاريخ ذلك المحيط. ودراسة اسم المكان ومدلوله يبعث على التأمل والتفكير، فكل تسمية يكون وراءها حدث ما أو تاريخ معين له دلالاته الجغرافية والتاريخية. وقد تنوعت المصادر العربية التي حفظت بعضاً من أسماء مواضع دولة الإمارات لتشمل مصادر جغرافية وتاريخية ولغوية وأدبية.

ومن المتعارف عليه أن أسماء المواضع تأتي على نوعين إما أن تكون أسماء عامة، مثل: «السيح» أي المنطقة الصحراوية الترابية الواسعة، و«النقا» وهي الكثبان الرملية، وإما أسماء خاصة ووصفية وتعبّر عن أحوال البيئات القديمة وتضاريس المكان مثل «سيح السلم» نسبة لكثرة أشجار السلم أو «عين الفايضة» لتدفق عين الماء لمدة طويلة وصلت لسنوات عدة، وإما تذكارية مثل «سيح الدم». وقد تكون أسماء عشوائية أو من قبيل المصادفة مثل «هور العنز» في دبي، والهور، مستنقع منخفض تتجمع فيه مياه الأمطار، ولم يعد ذلك المكان الذي قد كانت تأتيه الماعز لتشرب الماء كما كان قديماً، ولكن الاسم ظل إلى اليوم.

وقد تتغير أسماء المواضع تبعاً لاختلاف الظروف من زمن إلى آخر، فقد تطرأ على الأسماء ظروف تستدعي تغييرها واستبدالها، وفي ذلك أسهم المغفور له الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - طيب الله ثراه - بتغيير بعض أسماء الأماكن لتصبح أكثر جمالاً وتتناسب مع أسماء المناطق في مدينة العين، كتغيير اسم «قريح» إلى «نعمة»، و«العوهة» إلى «الفوعة». كما تم مؤخراً تغيير أسماء بعض الأحياء وتصحيح أو تعديل بعض المسميات كتغيير اسم «الخليف» لتصبح «الريف» و«اليحر» إلى «العامرية»، وتعديل اسم حي «النبغا» الواقع في منطقة ملاقط ليصبح حي «النبعة»، كما استبدل طريق الساد إلى طريق الطف، حيث جاء تغييره نظراً لوجود منطقة جغرافية معروفة تاريخياً بهذا الاسم يمر عبرها هذا الطريق. وترى الجهات المتخصصة في الدولة في شؤون المسميات أهمية إشراك أفراد المجتمع في طرح مقترحاتهم وأفكارهم وأخذها في الاعتبار.

ويبقى القول، في ظل عدم توفر مصدر كتابي يُبين أساليب وأزمنة تسمية الأماكن في دولة الإمارات، رأينا أن نخصص ملف هذا العدد لتسليط الضوء على دور أسماء المواضع في توثيق تراث الإمارات وتاريخها، وذلك من خلال تتبع أصولها الجغرافية ومصادرها اللغوية؛ والكشف عن الكنوز التراثية والتاريخية التي تحمله تلك المسميات، فتظل الأمكنة جزءاً مهماً من تاريخنا وتراثنا الثقافي. وكلنا أمل بأن تستمتعوا بموضوعات العدد المتنوعة.

شمسة الظاهري
رئيس التحرير

نادي تراث الإمارات
السلسلة التراثية الثقافية
مركز زايد للدراسات والبحوث

torathehc www.torath.ae

58
وجهة سفر

الأقصر... العاصمة الخالدة

قد يكون هذا المعبد أعظم دليل على سبب حصول الأقصر على لقبها «أكبر متحف خارجي في العالم». يقع معبد الأقصر في مدينة الأقصر الحديثة، والذي تم بناؤه في موقع العاصمة المصرية القديمة طيبة ويعد المعبد من أفضل المعالم الأثرية المحفوظة مع وجود كميات كبيرة من الهيكل والتماثيل والمنحوتات البارزة التي لا تزال سليمة ، مما يجعلها واحدة من أكثر الزيارات إثارة للإعجاب في منطقة الأقصر وكل مصر.... ضياء الدين الحفناوي

16

44

76
أدب ونقد

الذات الشعرية في قصائد الإماراتي عبدالله السبب

إن ما قدمه الشاعر عبدالله السبب في قصائد مجموعته (كما لو أنني للتو) ....جاء مندرجاً ضمن الأعمال الشعرية المشبعة بالأنا الشاعرة المأزومة والمتأزمة من واقع تستيقظ أزماته الماضية لتحضر وتتواصل مع مكابداته الراهنة المتعاظمة ومن أجل هذا التواصل يأخذ بالجملة الشعرية (كما لو أنني للتو) التي اختارها عنواناً رئيساً لعمله الشعري ليضعها في السطر الأخير فتصبح مدخلاً مركزياً لسائر القصائد وتصبح مرتكز الختام أيضاً .... أحمد حسين حميدان

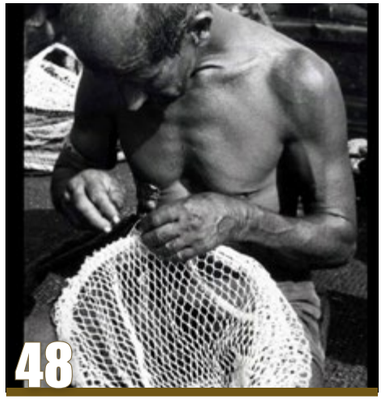

48

96
تراث الشعوب

ضوء على التراث الفني للبشتون

تعد آلة الرباب الآلة الأبرز من تراث البشتو، وهي من أقدم الآلات الوترية التي عزف عليها العرب قبل الإسلام، وقد انتقلت بعد ذلك مع الفتوحات الإسلامية إلى هذه المنطقة لتصبح جزءاً من التاريخ والثقافة، وأصبحت الرباب تحتل مكانة خاصة لدى أهالي المنطقة في شبه القارة الهندية وترسخت في ثقافة قومية البشتون لتصبح من بين أهم الآلات الموسيقية الفولكلورية على الإطلاق ... نوزاد جعدان

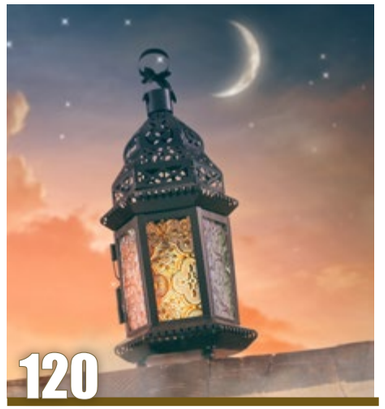

120

116

106
حوار خاص

الجلواح: نوافذ الشعر والأدب والثقافة لا حدود لها

يقول الكاتب والشاعر السعودي «الجلواح»، الذي كَتَبَ ونشر مئات القصائد الشعبية والفصيحة العمودية وقصيدة التفعيلة في الصحف السعودية والخليجية والعربية على مدى أكثر من أربعين عاماً، عن قصيدته المعنونة (الملحمة الشعبية) والتي نشرها في كتابه «حكوكة»: «قصيدة شعبية طويلة حاولتُ أن أرصدَ فيها جانباً من حياتنا قبيل النفط، وتتضمن كلمات ومفردات محلية وأسماء ألعاب وعادات وصور كثيرة مقرونة بالشرح.. اندَثَرَ أغلبها الآن».... هشام أركيض

124

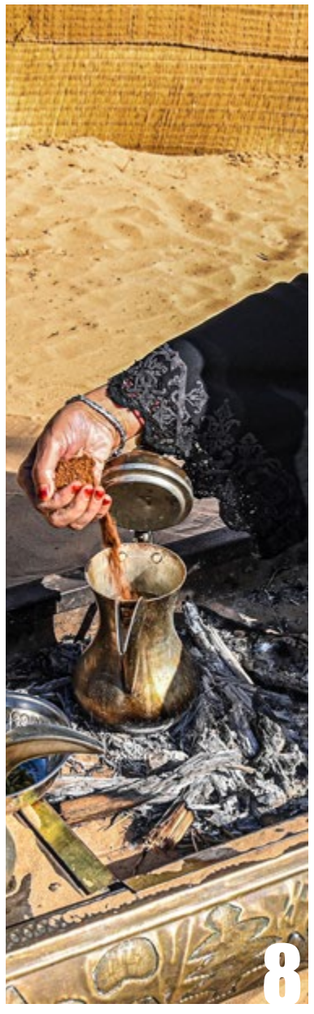

تراث الشهر

8 نادي تراث الإمارات يتميز بالحضور في مهرجان الظفرة

47 بِيْدار اللَّهْجَةِ الإماراتيّة فيما طابق الفصيح (3)
أفعال المطاوعة والرجاء - محمد فاتح زغل
55 قراءة في كتاب «التناص في الأمثال الشعبية الإماراتية»
للدكتور عبد الحكيم الزبيدي - د. شهاب غانم
56 روحية الأبواب - عبد الفتاح صبري
58 الأقصر «العاصمة الخالدة» - ضياء الدين الحفناوي
64 الشاعر حمد بن علي المزيني سيرة شعرية حافلة بالإبداع - مريم النقبي
65 الرحالة المصور الذي عاصر الشيخ زايد بن خليفة (زايد الكبير)
صورة أبوظبي في أقدم رحلة ألمانية مطلع القرن العشرين - محمد عبد العزيز السقا
74 أدب الرحلات بين الإمارات والعالم - فاطمة عطفة
80 سرديات من التراث الشفاهي الإماراتي
«سلسلة نماذج مختارة من إصدارات مركز زايد للدراسات والبحوث» - موزة عويص علي الدرعي
86 ذكريات زمن البدايات (11) «جبل الظنة» - خليل عيلبوني
88 كتاب: الألعاب والألغاز الشعبية في الإمارات العربية المتحدة
لنجيب عبد الله الشامسي - هيثم يحيى الخواجة
92 تاريخ «مدينة دبا» في أمهات الكتب العربية - أسماء يوسف ذياب الكندي
94 الحضارات لا تقوم على الخرافات - محمد حسن الحربي
101 يا طير سلم عالحبيب - نايلة الأحبابي
102 معجم البلدان: رائد المصنفات والموسوعات الجغرافية التراثية - عبد الله يحيى السريحي
104 الموسيقى في الحضارة الفارسية - نورة صابر المزروعي
110 الشعر العربي إلى أين؟؟؟
«لماذا انكفأ الشعر العربي وتصدَّرت الرواية قائمة الأدب» - جميل لحام
114 التاريخ بين الاحترام والتقديس - شريف مصطفى محمد
116 المبدأ الأنثوي الأبدي: أسرار الطبيعة المقدسة - فيبي صبري
120 رمضان في لغة العرب وثقافتهم - علي تهامي
124 القهوة المحبوبة السمراء تلهم الشعراء والمحبين - الأمير كمال فرج
130 الصوت هو وجهك الآخر - فاطمة حمد المزروعي

أسعار البيع

الإمارات العربية المتحدة: 10 دراهم - المملكة العربية السعودية 10 ريالات - الكويت دينار واحد - سلطنة عمان 800 بيسة - مملكة البحرين دينار واحد - اليمن 200 ريال - مصر 5 جنيهات - السودان 250 جنيهاً - لبنان 5000 ليرة - سورية 100 ليرة - المملكة الأردنية الهاشمية ديناران - العراق 2500 دينار - فلسطين ديناران - المملكة المغربية 20 درهماً - الجماهيرية الليبية 4 دنانير - الجمهورية التونسية ديناران - بريطانيا 3 جنيهات - سويسرا 7 فرنكات - دول الاتحاد الأوروبي 4 يورو - الولايات المتحدة الأمريكية وكندا 5 دولارات.

ما ورد في هذا العدد يعبر عن آراء الكتاب ولا يعكس بالضرورة آراء هيئة التحرير أو نادي تراث الإمارات

112
سوق الكتب

غالية رواية تبحر في أعماق النفس الإنسانية

تناولت الكاتبة - في روايتها - التركيب الاجتماعي والسكاني لدولة الإمارات، الذي يضم إلى جانب المواطنين الإماراتيين جنسيات أخرى من الوافدين للعمل، لا سيما الهنود. كما عمدت إلى رصد وتوثيق بعض الأماكن والمعالم الإماراتية الحديثة والتراثية، مثل مطعم البوم في دبي، سوق الشارقة القديم، جبل حفيت، الحي الشرقي في عجمان. ورصدت بعض الموروث من الأكلات مثل الهريس، والزي التقليدي مثل العباءة، ... وبعض العادات الموروثة في الأعراس .... نشوة أحمد

123
وجوه من الإمارات

الفنان ومطرب الغوص: النهام صالح العبيد

«الداخل مفقود.. والخارج مولود»، بهذه العبارة بدء النهام صالح العبيد حديثه، وهو يروي كيف كانت حياة البحارة قبل 80 عاماً. وكيف استخدم البحارة قديماً، الشعر والفن للتعبير عن شقائهم ومعاناتهم مع البحر. فقد كان الشعراء يتناولون حياة البحارة في قصائدهم، لينشدها بعد ذلك (النهّام) في الرحلات البحرية الطويلة أو ما يعرف بـ (الغوص العود)، إذ يستخدم ما يعرف بفن (الزهيريات)...لحث البحارة على العمل .... أنور حمدان الزعابي

الاشتراكات

للأفراد داخل دولة الإمارات: 150 درهماً / للأفراد من خارج الدولة: 200 دولار - للمؤسسات داخل الدولة: 150 درهماً / للمؤسسات خارج الدولة 200 دولار.

تراثية ثقافية منوعة

تصدر عن:
مركز زايد للدراسات والبحوث - نادي تراث الإمارات، أبوظبي

نادي تراث الإمارات

رئيس التحرير
شمسة حمد العبد الظاهري

الإشراف العام
فاطمة مسعود المنصوري
موزة عويص علي الدرعي

الإخراج والتنفيذ
غادة حجاج

سكرتير إداري وشؤون الكتّاب
سهى فرج خير
torath@ehcl.ae

التصوير:
- مصطفى شعبان

عناوين المجلة

الإدارة والتحرير:
الإمارات العربية المتحدة - أبوظبي
هاتف: 024456456 - 024092336

نادي تراث الإمارات يتميز بالحضور في مهرجان الظفرة

قسم الإعلام

مثّل جناح نادي تراث الإمارات في فعاليات الدورة السادسة عشرة من مهرجان الظفرة، حلقة جديدة في سلسلة مشاركات النادي التي ظلت تزين الفعاليات الرياضية والثقافية والاجتماعية في إمارة أبوظبي بشكل خاص، ودولة الإمارات العربية المتحدة بشكل عام، بل وتمتد إلى النطاق الإقليمي في بعض المناسبات، وهي المشاركات التي ظل عنوانها الرئيسي هو إبراز التراث الإماراتي والتعريف به وحفظه بالحضور الدائم في المناسبات المختلفة، ليتخذ مكانه المستحق في واجهة الثقافة الإماراتية بوصفه عماداً للهوية الوطنية.

جاءت مشاركة النادي في الدورة السادسة عشرة من مهرجان الظفرة، ضمن «سوق الظفرة التراثي» الذي صاحب مزاينة مدينة زايد، بدءاً من 9 يناير المنصرم، ثم تواصلت المشاركة ضمن مزاينة الظفرة حتى ختامها في الثاني من فبراير. وشكّل جناح النادي طوال هذه الفترة نقطة جذب التقت عندها ثقافات متعددة كان الجناح بالنسبة إليها عنواناً مهماً للتعرف عن قرب على التراث الإماراتي. وضم جناح النادي ورشة حية لصناعة السيوف والخناجر وزخرفتها بالطريقة التراثية القديمة، أبانت مهارة الصانع الإماراتي وحرفيته وقدرته على تشكيل المعادن بحسٍّ فني عال وإتقان كامل. فيما بيّنت ورشة صناعة الفخار مدى مهارة الإماراتيين في تشكيل مواد البيئة لصناعة الأدوات اليومية والمواعين التي يحتاجونها في معاشهم. بينما عرّفت ورشة الطواشة بالغوص على اللؤلؤ والأدوات التي استخدمت قديماً لاستخراجه والتجارة به بوصفه من أعمدة الاقتصاد في المنطقة، إضافة إلى ما قدمه ركن مركز زايد للدراسات والبحوث عبر معرض لإصدارات النادي من توثيق للتراث والتاريخ والثقافة والشعر الشعبي وإتاحة كل ذلك لمن يبحث في التراث الإماراتي.

وأكد راشد محمد القبيسي مدير إدارة الإعلام والعلاقات العامة في نادي تراث الإمارات، أن المشاركة في مهرجان الظفرة هي في إطار حرص نادي تراث الإمارات الدائم على حضور التراث الإماراتي في مختلف المحافل والمناسبات، لاسيما التي يرتادها عدد كبير من الزوار والسياح من مختلف الثقافات والدول، ما يتيح فرصة للتبادل الثقافي مع الشعوب الأخرى وتعريفها ببعض الملامح من حضارة تراث دولة الإمارات العربية المتحدة.

وحظي الجناح بزيارات من شخصيات بارزة، منها سعادة شون ميرفي القائم بالأعمال في سفارة الولايات المتحدة الأمريكية لدى الدولة، وسعادة راشد عبدالكريم البلوشي وكيل دائرة التنمية الاقتصادية أبوظبي، وسعادة الدكتور محمد راشد الهاملي مدير عام هيئة أبوظبي للإسكان، وسعادة مريم مسلم المزروعي، مديرة دائرة خدمة المجتمع في مؤسسة التنمية الأسرية.

ندوة تعزيز الأخوة الإنسانية

نظم نادي تراث الإمارات - مركز زايد للدراسات والبحوث بالتعاون مع مركز «تريندز» للبحوث والاستشارات ندوة مساء يوم الـ6 من فبراير في مقره بالبطين، بمناسبة اليوم الدولي للأخوة الإنسانية الذي اعتمدته الأمم المتحدة في الرابع من فبراير من كل عام، وجاءت الندوة بعنوان «تعزيز الأخوة الإنسانية عالمياً.. البُعدين الثقافي والمجتمعي» تحدث فيها كل من الأستاذ الدكتور رضوان السيد عميد كلية الدراسات العليا بجامعة محمد بن زايد للعلوم الإنسانية، وسوزان كيبلز الباحثة الرئيسية في المركز الإقليمي للتخطيط التربوي التابع لليونسكو، وأدارت الندوة وردة المنهالي من مركز تريندز للبحوث والاستشارات.

واستهلت الندوة بكلمة للدكتور محمد عبدالله العلي الرئيس التنفيذي لتريندز للبحوث والاستشارات، نوه فيها بأهمية الأخوة الإنسانية وإسهامها في تحقيق التقارب بين الثقافات المختلفة. مؤكداً أن وثيقة الأُخوة الإنسانية، هي دعوة للمصالحة والتآخي بين جميع البشر، وهو أكثر ما يحتاجه العالم اليوم. فيما أكدت فاطمة المنصوري مديرة مركز زايد للدراسات والبحوث أن نادي تراث الإمارات بحسب طبيعة رسالته شريك دائم في نشر المفاهيم الثقافية وتأصيلها واقتفاء جذورها الحضارية في مجتمع الإمارات، ومن بينها مفاهيم التسامح والأخوة الإنسانية التي تمثل جزءاً لا يتجزأ من نسيج المجتمع في الإمارات. من جهته تناول الدكتور رضوان السيد في المحور الأول للندوة الأخوة الإنسانية بوصفها أساساً للتضامن المجتمعي والعالمي في مواجهة التحديات المشتركة، حيث شدد على أن وثيقة الأخوة الإنسانية تقوم على رؤية قيمية وأخلاقية للإسهام في دعم السلام المهدَّد في العالم. وشدد على أن رجال الدين لا يهدفون إلى الحلول محل المنظمات الدولية، بل إن وثيقة الأخوة الإنسانية تدعو المنظمات وقادة الدول للتعاون من أجل الإنسانية وحياة البشرية، والتدخل الإيجابي في النزاعات والتعاون لحلها بحسب مبادئ الوثيقة. وفي المحور الثاني تحدثت سوزان كيبلز عن دور المؤسسات التربوية في تعزيز ثقافة الأخوة الإنسانية، لاسيما أنها تعزز النقل المنهجي للمعرفة والمهارات والقيم الثقافية الضرورية لترسيخ هذه المفاهيم والأسس، مؤكدة أن المؤسسات التعليمية تتحمل مسؤولية تعزيز المواطنة العالمية والأخوة الإنسانية من خلال تعليم طلبتها أنهم أعضاء في مجتمع عالمي واسع.

حميد سعيد بولاحج الرميثي

كلمة سعادة حميد سعيد بولاحج الرميثي المدير العام لنادي تراث الإمارات بمناسبة ندوة «تعزيز الأخوة الإنسانية عالمياً.. البعدين الثقافي والمجتمعي» التي نظمها النادي بالاشتراك مع مركز تريندز للبحوث والاستشارات احتفاء باليوم الدولي للأخوة الإنسانية إن الاحتفاء باليوم الدولي للأخوة

الإنسانية الذي أقرته الأمم المتحدة بالتزامن مع ذكرى توقيع وثيقة أبوظبي للأخوة الإنسانية يوم الرابع من فبراير عام 2019، يأتي تأكيداً على أن دولة الإمارات تعد واحدة من أكثر الأماكن سلاماً وازدهاراً على وجه الأرض، ويعكس الاهتمام الدولي الذي يحظى به تعزيز ثقافة السلام والتسامح والحوار بين الشعوب.

ومنذ توقيع الوثيقة وإقرارها أممياً والاحتفال بها عالمياً مرّت «الأخوة الإنسانية» برحلة حافلة بدروس إماراتية ملهمة للعالم، تبرز قيم التسامح ونشر السلام وتعزز ثقافة الحوار واحترام الأديان وتترجم قيمة الأخوة الإنسانية وأهمية التعاون الدولي قولاً وفعلاً في مبادرات إنسانية رائدة. ونحن في نادي تراث الإمارات إذ نحتفل بهذه المناسبة الإنسانية الكبيرة، التي تعد اعترافا دوليا وتقديرا أمميا لدولة الإمارات وجهودها الدؤوبة على مدى سنوات في نشر قيم ومفاهيم التعايش والتآخي بين البشر، وتفعيل الحوار بين مختلف الأديان والشعوب للوصول إلى عالم تسوده روح التسامح، انطلاقا من إرث غني رسخ التآخي في المجتمع الإماراتي، وغرس طيب للمغفور له الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان باني الدولة وعراب نهضتها، بأن جعل الأخوة وقبول الآخر واحترامه مبدأ أساسي نهضت عليه دولة الإمارات العربية المتحدة منذ تأسيسها، وسارت على نهجه قيادتنا الرشيدة.

الحلي والأزياء في الإمارات

نظم نادي تراث الإمارات - مركز زايد للدراسات والبحوث، محاضرة افتراضية يوم الـ 26 من يناير استضاف فيها الباحث جمعة خليفة بن ثالث الحميري مؤلف كتاب «الأزياء والحلي الذهبية في دولة الإمارات»، وجاءت المحاضرة استمراراً لحلقات برنامج «قراءة في إصدارات إماراتية» الذي أطلقه المركز في مطلع العام الماضي بهدف تسليط الضوء على الإنتاج الفكري والثقافي للمؤلفين الإماراتيين. ونوّه الحميري إلى أهمية إصدار الكتب التي توثق للتراث الإماراتي وتسهم في حفظه وجمعه، مشيراً إلى صعوبة العمل على جمع التراث إلا أن ثمار الصبر عليه تستحق ما يبذل من جهد في هذا الصدد.

وأوضح أن فصول الكتاب تناولت الأزياء النسائية وأنواع الأقمشة وأسماءها، والبراقع وأنواعها، والقياسات التي كانت مستخدمة، ولبس الرجال وتفاصيله، والحلي الذهبية وأنواعها وخلفياتها الاجتماعية، والأعراس والمناسبات، مشدداً على أن الكتاب يؤرخ للحياة الاجتماعية الإماراتية بالقدر نفسه الذي يؤرخ فيه للحلي والملابس.

من جهتها تناولت فاطمة المنصوري مديرة مركز زايد للدراسات والبحوث تجربة نادي تراث الإمارات في جمع التراث الشعبي وحفظه وإتاحته، كما أشارت إلى أن النادي يعمل على «موسوعة زايد الوطنية»، بإشراف الباحثة لطيفة النعيمي مسؤولة النشاط الثقافي في المركز، وهي موسوعة تراثية تربوية تضم جميع عناصر تراث الإمارات باللغتين العربية والإنجليزية.

تطور الإذاعة في الدولة

نظم نادي تراث الإمارات - مركز زايد للدراسات والبحوث يوم الـ 13 من فبراير ندوة افتراضية بمناسبة اليوم العالمي للإذاعة، جاءت بعنوان «قراءة في المشهد التاريخي لتطور الإذاعة في دولة الإمارات»، تحدث فيها كل من علي عبيد الهاملي نائب رئيس مجلس إدارة ندوة الثقافة والعلوم، ومحمد غانم مصطفى المدير العام لهيئة إذاعة رأس الخيمة، وأدارتها الدكتورة خولة عبدالله العليلي مدير إدارة تقييم وانتقاء البرامج بهيئة الشارقة للإذاعة والتلفزيون. وقدم علي عبيد الهاملي قراءة في تاريخ نشأة البث الإذاعي في دولة الإمارات العربية المتحدة، وقال إن ظهور

الإذاعة في الإمارات مرّ بمرحلتين فردية ورسمية، وأبرز الإذاعات الفردية التي أنشاها صقر ماجد المري في عام 1958 في دبي، والتي أنشأها المرحوم راشد عبدالله بن حمضة في عجمان عام 1961 - 1965. فيما تمثلت الرسمية في إذاعة صوت الساحل وهي أول إذاعة في دولة الإمارات وانطلق بثها عام 1964 واستمرت حتى عام 1970، أما إذاعة أبوظبي التي تعد أول إذاعة رسمية تابعة لإمارة فكان بثها في عام 1969، وألقى المغفور له الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - طيّب الله ثراه - كلمة في افتتاحها.

وتحدث محمد غانم مصطفى متناولاً التحولات التاريخية التي حدثت فيما يتعلق بالإعلام على وجه العموم، والإذاعة خاصة منوهاً إلى التطور الكبير الذي أحدثته وسائل التواصل الاجتماعي في سرعة انتشار المادة الإعلامية وتداولها واتساع نطاقها، وقال: اليوم كل شخص يملك في يده محطة إذاعية وتلفزيونية قوية جداً، منوهاً إلى التحديات الكبيرة التي أفرزها هذا الأمر، لاسيما على مستقبل الإذاعات الموجودة حالياً، مشدداً في السياق على أن دولة الإمارات العربية المتحدة تمتلك بنية تحتية قوية للعمل الإذاعي وتعمل على تأهيل الكوادر الوطنية وإعدادها للمستقبل.

دورة تدريبية في الخوص

نظم نادي تراث الامارات - مركز أبوظبي النسائي دورة تدريبية في حرفة الخوص، وذلك خلال الفترة من 23 يناير حتى 22 فبراير في مقر المركز في مدينة محمد بن زايد في أبوظبي. وقالت ظبية الرميثي مديرة مركز أبوظبي النسائي إن تنظيم هذه الدورة جاء ضمن سلسلة البرامج والدورات التي ينظمها نادي تراث الإمارات للحفاظ على استمرارية الحرف اليدوية التقليدية وتعليمها للأجيال الناشئة، وتعميق مكانة الموروث في نفوسهم.

وذكرت أن الهدف من الدورة هو التعريف بالحِرَف التي كانت سائدة قديماً في مجتمع الإمارات، وتمكين المتدربات من إتقان هذه الحِرَف عبر الدورات التدريبية التي يتم خلالها شرح مبادئ هذه المهن والتمرين عليها وتشجيع المتدربات على طرح أفكار جديدة لتطويرها بما يتناسب مع الحياة العصرية.

برنامج السنع

نظم نادي تراث الإمارات برنامج السنع الإماراتي بمركز السمحة النسائي التابع له في الفترة ما بين الـ 7 - والـ 9 من فبراير واحتوى على عدد من الأنشطة والفعاليات التراثية الموجهة إلى الطلبة والطالبات. وقالت فاطمة التميمي رئيس قسم الأنشطة النسائية في نادي تراث الإمارات إن البرنامج هدفه غرس حب التراث في نفوس المشاركين وترسيخ الهوية الوطنية في نفوسهم.

وأضافت: «قدمت الحرفيات في المركز ورشاً عدة للحرف اليدوية كالعتاد، والتلي، والغزل، وورش الأشغال اليدوية كصناعة الحقائب وتضريب التلي، والأكلات الشعبية كالخنفروش والفقاع».

وأبانت أن الطلبة قاموا بجولة خاصة حول المركز لتعريفهم بأنواع النباتات الصحراوية ومسمياتها وأهميتها البيئية، كما حضروا ورشة عن القهوة العربية وتم تعريفهم بكيفية استقبال الضيف في المجالس. وأشارت التميمي إلى أن البرنامج ضم فعاليات ترفيهية أيضاً كالألعاب والرسم ورسم علم دولة الإمارات على الوجه، ونشاط الصقارة الذي تعرفوا من خلاله على رياضة الصيد بالصقور كما أتيح للطلبة حمل الطيور وأخذ الصور التذكارية.

المشاركة في المهرجان البحري

شارك نادي تراث الإمارات في فعاليات مهرجان التراث البحري

الذي نظمته دائرة الثقافة والسياحة في أبوظبي خلال الفترة من الـ 17 إلى الـ26 من فبراير في منطقة «عَ البحر» على كورنيش أبوظبي. وينظم النادي خلال مشاركته في المهرجان فعاليات عدة، على رأسها سباق أبوظبي لقوارب التجديف التراثية فئة 40 قدماً، كما تشمل مشاركة النادي بيت البحر، ومعرضاً يضم عدداً من إصدارات النادي المهمة، بالتركيز على الإصدارات المتعلقة بالتراث البحري، إضافة إلى قسم خاص بمجلة تراث التي يصدرها النادي، كما تشمل المشاركة معرضاً لصور التراث البحري، وعروض المحافل التراثية التي تقام على امتداد كورنيش أبوظبي.
وقال أحمد عبدالله المهيري إن مشاركة النادي في هذا الحدث المهم تأتي من منطلق حرصه على دعم الفعاليات التراثية كافة التي تسهم بشكل فعال في الحفاظ على تراث آبائنا وأجدادنا، كما تأتي في إطار التعاون المثمر بين الجهات والمؤسسات التي تعمل في الحقل الثقافي والتراثي داخل الإمارة.

المشاركة في كأس سلطان بن زايد

شارك نادي تراث الإمارات يوم الـ 5 من فبراير في ختام فعاليات «كأس سلطان بن زايد للبولو» الذي نظمه نادي غنتوت لسباق الخيل والبولو برعاية كريمة من سمو الشيخ فلاح بن زايد آل نهيان رئيس النادي. وجاءت مشاركة النادي بركن لمركز زايد للدراسات والبحوث التابع للنادي احتوى على معرض لإصدارات النادي في التراث والتاريخ والشعر النبطي وأعداد مجلة «تراث»، إلى جانب معرض للصور التي توثق لمسيرة وجهود المغفور له الشيخ سلطان بن زايد آل نهيان «تغمده الله بواسع رحمته» ودعمه اللا محدود للرياضات التراثية في الدولة. وشيّد النادي في موقع الفعالية، قرية تراثية مصغرة، احتوت على ورش حرفية حية، مثل: ورشة النقش على النحاس، وورشة صناعة القوارب، وورشة التلي، وورشة الغزل، وورشة الأقمشة النسائية والعطور التقليدية، إضافة إلى ركن للأكلات التراثية، وضمت القرية نموذجاً لبيت الشعر «مجلس تراثي»، كما شملت مشاركة النادي نشاطاً للهجن أتاح عبره للزوار والسياح تجربة ركوب الهجن في مكان الفعالية، وركناً للصقارة جذب الحضور للتعرف على هذه الرياضة التراثية والتقاط الصور مع الطيور.
وحظيت مشاركات النادي بإقبال واسع من حضور الفعالية من الزوار والسياح الذين تعرفوا على جوانب من تراث الدولة عبر الورش الحية التي حرص المدربون التراثيون والحرفيون الحاضرون فيها على الإجابة على استفساراتهم، ما شكّل حالةً من الحوار الحضاري والتقاءً لثقافات عديدة.

ملتقى المزن التراثي

نظم نادي تراث الإمارات في مقره في مركز أبوظبي النسائي ملتقى المزن التراثي يوم الـ12 من فبراير، حيث قدمت الحرفيات العديد من الورش التراثية برفقة الطالبات المنتسبات إلى المركز، تنوعت الحرف مابين (التلي، والسدو، والغزل، والصوف، والخوص)، وورشة القهوة العربية، والرحى والسقى، بالإضافة إلى الأكلات والألعاب الشعبية، وورش فنية، ومسابقات عدة تراثية.

يوم البيئة الوطني

احتفل نادي تراث الإمارات بيوم البيئة الوطني الذي يوافق الرابع من فبراير من كل عام، وأقيم هذا العام تحت شعار «نحو مستقبل مستدام»، تزامناً مع عام الاستدامة. ونظم النادي في المناسبة عدداً من الأنشطة والبرامج بالقرية التراثية في منطقة كاسر الأمواج في أبوظبي، حيث استقبلت القرية عدداً من طلاب المدارس الذين تعرفوا على نماذج البيوت التقليدية «بيت الشعر» وتابعوا الورش والعروض الحية للصناعات والحرف اليدوية التي كانت سائدة قديماً، مثل صناعة الفخار، والتلي، والسدو، والورش البحرية عن صناعة الديين، والغزل، بالإضافة إلى نشاط الصقارة، كما قام الطلاب بأنشطة الرسم والتلوين، وزراعة بعض البذور في الأكواب الورقية، واستمتعوا بارتداء الملابس التقليدية، والتقاط الصور الفوتوغرافية.

المشاركة في أسبوع الابتكار

في إطار التعاون بين نادي تراث الإمارات والمؤسسات التعليمية، شارك مركز زايد للدراسات والبحوث بمعرض ضم إصدارات النادي وأعداد مجلة «تراث» في فعالية أسبوع التعليم التقني والابتكار - تجربة الاكتشاف، في ثانوية التكنولوجيا التطبيقية في أبوظبي «طالبات» الذي أقيم خلال الفترة من (2 - 9 فبراير 2023) تحت شعار: «التعليم التقني والمهني للجميع» .

وقفات تاريخية في تطور مسيرة التعليم

نظم نادي تراث الإمارات - مركز زايد للدراسات والبحوث، يوم 24 يناير في مركز العين للمؤتمرات، محاضرة بمناسبة اليوم العالمي للتعليم الذي يصادف الرابع والعشرين من يناير كل عام، جاءت المحاضرة بعنوان «وقفات تاريخية في تطور مسيرة التعليم في دولة الإمارات»، وتحدث فيها الكاتب والإعلامي محمد حسن الحربي. شهد المحاضرة سعادة علي عبد الله الرميثي المدير التنفيذي للدراسات والإعلام في نادي تراث الإمارات، وفاطمة المنصوري مديرة مركز زايد للدراسات والبحوث، وبدر الأميري المدير الإداري بالمركز، موزة عويص الدرعي رئيس قسم الدراسات والبحوث، وجمع من المهتمين والإعلاميين والاكاديميين.

المشاركة في معرض جامعة العين

في إطار التعاون العلمي والثقافي بين نادي تراث الإمارات وجامعة العين شارك نادي تراث الإمارات ممثلاً بمركز زايد للدراسات والبحوث في فعاليات معرض جامعة العين الثالث للكتاب 2023 الذي نظمته مكتبة خليفة (7 - 9 فبراير)، حيث عرض المركز مجموعة مميزة من إصداراته في حقول التراث والأدب الشعبي والتاريخ، إضافة إلى معرض للصور ■

ثيسيجر[1] في بادية أبوظبي

تأليــف الشاعر الأمريكي روجر كريك
ترجمة الأستاذ الدكتور صديق جوهر

مازال يشم رائحة القهوة
عربية الذوقِ
مازال مفتوناً
بالبادية والصحراء والنوقِ
في بلاد الكرام
ورغم صقيع الصباح
يعربد في العظام
يصحو الرفيق
هذا البدويُ
عظيم المقام
يتلمس درباً
في جنح الظلام
يشعل موقداً
هذا العنيد
بين الرمال
خذ يا صديقي
قهوة الصباح الجديد
يا أيها البدوي
ألم تسمع قرقعة العظام
يثرثران .....يتحدثان
لا نهاية للشكوى والكلام
وهو يعد رشفات القهوة
صحراوية المذاق
يترقب مواسم الفراق
في كل حين
يسترجع الأيام وكرّ السنين
يناجي الرفيق الصبور الأمين
هذا البعير القابع في الظلال
المسافر كالرياح
فوق السهوب...بين الجبال
عند الصباح وساعات الأصيل
يطوي بشوق كثبان الرمال

بعدما أرخى الظلام ستاره الأخير
ستغمض عيناه
لقد نام البعير
ولم يطلب أجراً
لهذا السفر المرير
سيلف الكون في السنين العجاف
عبر المرائ ... عبر الضفاف
يشدو بأغنيات شجية
غريبة النغمات
في حضرموت العتيدة
في (أبوظبي) الأبية
وعبر الصحاري
في ربعها الخالي
جلس الصديق
والبعير الرفيق
وحولهما
بوصلة ومصباح وبندقية[2] ■

الهوامش:

1. ويلفريد باتريك ثيسيجر هو رحالة بريطاني ولد في أديس بابا عام 1910 وتوفى عام 2003 وقد سافر إلى الجزيرة العربية والإمارات وعمان واليمن وألف كتاب (الرمال العربية) و (عرب الأهوار).
2. تشير هذه الكلمات إلى ما ورد في كتاب (الرمال العربية) عندما تحدث الرحالة ثيسيجر عن لقائه بالشيخ زايد بن سلطان آل نهيان -طيب الله ثراه- حيث وصل في عام 1948 إلى قلعة المويجعي للقاء الشيخ زايد قادماً من أبوظبي. قال: (إن زايداً قوي البنية ويبلغ من العمر ثلاثين عاماً، وله لحية بنية اللون، ووجهه ينمّ على ذكاء وقوة شخصية، وله عينان حادتان. وهو يبدو هادئاً ولكنه قوي الشخصية، ويلبس لباساً عمانياً بسيطاً، ويتمنطق بخنجر. وبندقيته دوماً إلى جانبه على الرمال لا تفارقه).

ملف

أسماء المدن في الإمارات...أصالة وانتماء

16 مسميات المدن والمناطق في الإمارات.... خصوصية وأصالة - منى حسن
20 الأماكن في الإمارات .. **مسميات ودلالات عبر التاريخ** - خالد صالح ملكاوي
24 أبوظبي .. **ذاكرة مكان وتاريخ يروى للأجيال** - فاطمة سلطان المزروعي
28 «بينونة».. إيقونة الرمال - مريم سلطان المزروعي
30 جغرافية الإمارات في التراث الشعري - الأمير كمال فرج
36 في رحاب الإمارات.. الأرشيف والمكتبة الوطنية يسهم في توثيق أسماء الأماكن - جمال مشاعل
38 التراث الجغرافي الوصفي وأرض السبخة (بندر أبوظبي) مابين ابن خرداذبة والإدريسي - حسن صالح محمد
44 أصل تسمية بعض الأماكن في إمارة الشارقة - حمادة عبد اللطيف
48 هوية المكان في ذاكرة القصيدة الإماراتية - عادل نيل

شكلت انعكاسات للبيئة والمشهد الحضاري

مسميات المدن والمناطق في الإمارات.... خصوصية وأصالة

منى حسن

هناك دائماً قصة وراء منح اسم لمكان ما، ومعظم أسماء الأماكن هي عبارة عن وصف للمكان الذي تنتمي إليه، إما كلياً وإما جزئياً، وتصف عادة الطابع الجغرافي للمكان، الذي يوضح بدوره كيف تُشكِّل أسماءُ الأماكن وعمليةُ التسمية نفسها انعكاسات للبيئة، والمشهد الثقافي والحضاري والاجتماعي في بلد ما، في حقبة ما، وكيف تكشف دراسات أسماء الأماكن عن أنماط حياة الناس فيها وثقافاتهم ولغاتهم وتاريخهم، وتعطي إضاءة حول التراث والظروف الاجتماعية، والتغييرات الدينية في المجتمعات والبلدان، مثل دخول دين جديد، أو التحول من دين لآخر في المنطقة نفسها. كما تمكن الباحثين من استنباط معلومات لغوية مثل بعض الكلمات والأسماء الشخصية، من غير المذكورة في كتب التاريخ والأدب، من خلال أسماء المواقع الجغرافية.

علم أسماء الأماكن «طبونيميا Toponymy»:

من فروع علم اللسانيات linguistics، وهو علم أصول الكلمات وأشكالها onomastics. ويُعنى علم أسماء الأماكن بدراسة أسماء الأماكن، وتحديداً: معانيها، وتصنيفاتها، واستخداماتها، وأصولها. وهناك بعض المصطلحات الأخرى ذات الصلة بعلم الأسماء الجغرافية وهي الهيدرونيم Hydronym، التي تشير إلى المسطحات المائية، وOronym، الذي يشير إلى التلال والجبال.

تصنيف أسماء الأماكن:

تُصنف الأسماء الجغرافية وفق معانيها إلى أسماء عامة، مثل «بحر»، و«تل»، وغيرها من أسماء المعالم الطبيعية «Feature names»، وأسماء خاصة مثل «الخليج العربي»، و«العين»، وغيرها من أسماء المناطق المأهولة «Habitation names»، التي تتألف أحياناً من اسم مركب يجمع الاسم العام بالخاص كما في «جبل علي»، وتنقسم الأسماء الخاصة بدورها إلى أقسام عدة بناء على معانيها ورمزيتها، منها: أسماء وصفية، وتكون مستنبطة من الوصف الجغرافي للمكان، سواء من حيث طبيعته الجغرافية، أو بعده من مكان ما، وأسماء تكريمية، وهي التي تستنبط من اسم شخص تكريماً لذكراه أو امتناناً لما قام به.

أهمية علم أسماء الأماكن:

تعد دراسة علم أسماء الأماكن Toponymy، مدخلاً مهماً لفهم التطور الحضاري وتطور اللغات واشتقاقاتها، ومصدراً مهماً من

مصادر البحث في تاريخ اللغات، وعلاقتها بالتاريخ والجغرافيا وعلم الاجتماع. والباحث المتتبع لأصول واشتقاقات أسماء الأماكن، سيجد أن أكثر التسميات تظل كما هي لفترات زمنية طويلة مع تغيير طفيف أحياناً، وذلك بناء على تطور اللغات في المنطقة، وتشكل هذه التسميات للباحثين في تاريخ الشعوب وثقافتها، وحياتها الاجتماعية والاقتصادية أبواباً يدخلون من خلالها إلى تاريخ الشعوب والحضارات.

كما تكمن قيمة وأهمية العناية والاهتمام بأسماء الأماكن Toponymy، وتدوينها والبحث عن أصولها أنها تجسد في المقام الأول مسألة توثيق تاريخي، حيث نشأت غالبية أسماء الأماكن كمسميات تصف خصائص معينة للمنطقة التي أُطلق عليها الاسم، وبالتالي فهي توفر معلومات حول الظروف الطبيعية والثقافية في وقت منح هذه الأسماء في المناطق التي تنتمي إليها، كما تعطي إضاءة ثاقبة عن الجغرافيا التاريخية للمكان، وتسهم في الحفاظ على ثقافة المنطقة وتاريخها، إذ إنها تشكّل جزءاً مهماً من التراث الثقافي للمدن والمناطق، وانعكاساً للتفاعل بين الإنسان والطبيعة عبر فترات زمنية مختلفة تقدم صورة متعددة الأوجه ومفصلة للوجود البشري في مكان ما.

مسميات المدن والمناطق في الإمارات «خصوصية وأصالة»:

بالإضافة إلى محتواها من حيث البيئة الطبيعية والتاريخ الثقافي، تمثل الأسماء جزءاً مهماً من تراثنا اللغوي. ولطالما كان الفهم لأسماء الأماكن كمصدر تاريخي ولغوي محورياً في مجتمع علماء الأسماء، مما حدا بكثير من الدول للاهتمام بتدوين وتأصيل أسماء الأماكن، وإجراء البحوث حولها.

وكانت الإمارات من أكثر الدول اهتماماً بتوثيق التراث وما يشمله من فروع يأتي الاهتمام بأسماء الأماكن من أبرزها، ويتجلى ذلك في حرص المسؤولين على الحفاظ على الأسماء التاريخية

والتراثية، ودعم وتوجيه الباحثين لعمل الدراسات حولها، إضافة إلى تسمية الشوارع والمناطق الجديدة بأسماء تراثية وتاريخية انطلاقاً من الوعي بأهمية دراسة وتوثيق الجذور التاريخية للأسماء الجغرافية وما ترمز إليه، والتي يتسنى من خلالها التعريف بالثقافة والتراث المحلي والشخصيات التاريخية، وتعريف الأجيال الجديدة بتاريخها وموروثاتها، وقيمها، ما يعزز الهوية الوطنية والانتماء، ويمد جسور التواصل الإيجابي بين الأجيال، ويشكّل مصدات للاستلاب الثقافي والاجتماعي من خلال إحياء التراث واللغة عبر هذه الدراسات.

والمتتبع لطرق تسمية الأماكن في الإمارات، يلاحظ خصوصيتها، حيث ترتبط ارتباطاً وثيقاً بطبيعة الحياة في الإمارات، والموروثات الشعبية، التي تتجلى في مسميات ترتبط بالقرب من البحر، وبطبيعة الأرض، والمناخ، والنشاطات التي يمارسها الناس لكسب قوتهم، إضافة إلى العادات والتقاليد الاجتماعية والتراثية، والقيم المجتمعية السامية. كما تشكل حافظة لذاكرة وتاريخ القبائل والشعوب العربية التي ينحدر منها شعب الإمارات، وما جاورها، ويوثق حضارتها ولغاتها وثقافاتها.

وهو موروث متراكم ومتجدد يوثق العرى بينما يحمل في طيه دلالات تاريخية وحضارية عريقة تُشكل بيئة خصبة للدراسات والبحوث. وتشمل مسميات الأماكن في الإمارات أسماء تاريخية قديمة ظلت كما هي منذ قرون، وأسماء أخرى مستنبطة من الموروث الثقافي والوصفي، إضافة للمناطق التي تحمل أسماء شخصيات مؤثرة وملهمة لعبت أدواراً مهمة في تاريخ الإمارات ومجتمعها ونهضتها، ما يسهم في تعزيز الهوية الوطنية، ويتماشى نظام التسميات في الإمارات في الوقت ذاته مع المعايير والأنظمة العالمية في التسميات. ومثالاً، لا حصراً نستعرض بعض مسميات المدن والأماكن في الإمارات، التي يرجع تاريخ بعضها إلى العصور الوسطى وبداية العصر الحديث، مثل منطقة «بينونة» التي اشتق اسمها من البين، لوقوعها بين عُمان والبحرين قديماً، وذكرها المؤرخ والرحالة ياقوت الحموي، المتوفى عام 1229م، في كتابه معجم البلدان بقوله: «موضع سيّ بالمصدر، من قولهم: بان يبين بينونة، إذا بَعُدَ، وهو موضع بين عُمان والبحرين، وبينه وبين البحرين ستّون فرسخاً».

ومدينة أبوظبي التي كانت تعرف قديماً باسم «أم النار»، ويُرجّحُ أنها سميت بأبوظبي لأنها منطقة تكثر فيها الظباء، بينما يرى بعض المؤرخين والباحثين في التراث، أن الحكاية الشعبية التي تروى عن «أن صياداً اصطاد ظبياً في تلك الجزيرة بعد عناء،

ولما أمسكه كان متعباً من شدة العطش فذهب يبحث عن بئر، فلما وجده كان البئر قد جف فمات الصياد والظبي، واكتشفت جثتاهما فيما بعد قرب البئر، فسموا البئر أبوظبي»، لا يُعتدُ بها، ذلك أنها غير موثقة وتعتمد على النقل الشفهي، ومعلومات مشكوك في صحتها.

كما ورد ذكر مدينة رأس الخيمة التي عُرفت باسم «جلفار» قديماً، ووثق لها ياقوت الحموي في معجم البلدان بقوله: «جُرفار مدينة مخصبة بناحية عُمان وكثر ما سمعتهم يسمونها جلفار باللام». ويُرجَّح أن اسم «رأس الخيمة» قديم منذ القرون الوسطى أيضاً، وكذلك «الشارقة»، حيث أورد ذكرهما الشاعر أحمد بن ماجد المتوفى عام 1501م، الذي ينتسب إلى عائلة من الملاحين في رأس الخيمة «جلفار قديماً»، وكان خبيراً ورث معرفة القياسات، وأسماء الأماكن عن أبيه وجده، في قصيدته التي يقول في مطلعها:

يا طَالِعــــاً مــن آخـــــرِ الفُـرَاتِ
والبَصــرَةِ الفيحــاءِ خُذ وَصَاتـــي
وَاخـرُج على اســمِ اللـــــه بالتَّرتيبِ
عَن جُملَــةِ الخـــيرانِ للجنـــوبِ

إلى أن يأتي على ذكر الشارقة قائلاً:

كَــذَاكَ مِن طَنَـــبَ لِنَحو الشَّارِقَـه
هَذي المَطالِــق يَا هُمَامُ صَادِقَـــه

ثم يأتي على ذكر رأس الخيمة:

ومَـــن جَـرَى أيضاً لِراسِ الخَيمَـــه
وَالصِّـــيرِ في الإكليـلِ بالعزيمَـــه

وهنا يبرز الدور الكبير والأصيل للشعر في التوثيق لتاريخ منطقة الخليج العربي، ومجتمعاته. أما خورفكان فقد ورد ذكرها في معجم البلدان أيضاً، حيث قال عنها ياقوت الحموي: «إنها بليد على ساحل عُمان، يحول بينه وبين البحر الأعظم جبل، وبه نخل وعيون عذبة». ويُرجح أن أصل تسمية أم القيوين، منحوت من «أم القوتين» لأن موقعها كان نقطة تجمع للوحدات البرية والبحرية أيام الحروب البرتغالية وغيرها.

كذلك يرجح المؤرخون أن إمارة الفجيرة سميت بهذا الاسم نسبة إلى كثرة الينابيع المتفجرة تحت جبالها، وقد أوردها الحموي في كتابه أيضاً على أنها تصغير «فجرة»، ولم يأتِ على ذكر الينابيع. وقيل عن إمارة عجمان حسب ما ورد في موسوعة «عجمان في ذاكرة أبنائها» التي أعدها فريق من الباحثين وتوثق لتاريخ إمارة عجمان، بتوجيه من صاحب السمو الشيخ حميد بن راشد النعيمي، إن عجمان سميت بهذا الاسم نسبة إلى قبيلة العجمان العربية الكبيرة، وهو القول الأرجح.

كما ورد عن اسم مدينة دبي «أن الأرجح أنها تصغير دبا وهو الجراد الذي لم تنبت له الأجنحة بعد»، وسميت بذلك لأنها كانت ينتشر فيها الجراد آنذاك قبل أن تكون مأهولة، ومن أسمائها القديمة الوصل، ومعنى الوصل في اللغة محفز للبحث عن تاريخ هذا الاسم، وعما إن كان وصلاً مكانياً أم معنوياً، ذلك أنه لم يرد شرح تاريخي له.

من المسميات الشهيرة والعريقة جداً في الإمارات أيضاً، مدينة «دبا الحصن»، التي أضيف اسمها «دبا» إلى اسم قلعتها «قلعة الحصن»، التي تُعد المعلم الرئيسي للمدينة، قال عنها ياقوت الحموي: الدبا الجراد قبل أن يطير، وقال الأصمعي: سوق من أسواق العرب بعُمان وهي غير دما، أما دما (منطقة السيب بعُمان حالياً) فقال الحموي عنها: «دما بلدة من نواحي عُمان، من أسواق العرب المشهورة»، وتتبع مدينة «دبا الحصن» إمارة الشارقة حالياً. ونجد منطقة «الحيرة» بالشارقة أيضاً، وهي من المسميات القديمة التي ورد ذكرها في السجلات البريطانية لعام 1830، بينما هناك آراء أخرى ترى أن الاسم مأخوذ عن عاصمة المناذرة في العراق، وقد نقله أهلها مع هجرتهم لشبه الجزيرة العربية بعد الاجتياح المغولي لبغداد عام 1258م، بينما يُرجح بعض المؤرخين أنه مأخوذ عن كلمة «الحجرة»، التي تنطق باللهجة الإماراتية المحلية «حيرة»، بتحويل الجيم إلى ياء، وهي مكان تخزين مياه الأمطار وغيرها.

ولا يسع المجال لذكر بقية ما تم تأصيله من الأسماء التراثية والتاريخية لمدن ومناطق دولة الإمارات العربية المتحدة، وما ظل من أسماء تُحفِّزُ دلالاتها وما تضمه من كنوز معرفية وتراثية ولغوية الباحثين في مجال «علم أسماء الأماكن» إلى مزيد من البحث والاستقصاء والدراسات ■

* شاعرة وكاتبة من السودان

أهم المراجع:

1. «معجم البلدان»، ياقوت الحموي.
2. موسوعة «عجمان في ذاكرة أبنائها».
3. حقيقة أصول مسميات الإمارات - علي المطروشي - جريدة البيان - 11 أكتوبر 2005.
3. Kadmon, Naftali (2000). Toponymy: the Lore, Laws and Language of Geographical Names. New York: Vantage.
4.(Helander 1994).
5. © 2023 worldatlas.com.

الأماكن في الإمارات .. مسميات ودلالات عبر التاريخ

خالد صالح ملكاوي

كما لكل كائن في هذا الكون ما يُعرّف به، من اسم أو لقب أو رمز، فإن للمكان ما يعرّف به ويُكسبه هوية مستمدة من طبيعة الأحداث أو الموجودات التي قامت حوله، إذ اعتاد الإنسان أن يوظّف معارفه ومهاراته المكتسبة من بيئته الخاصة لتسمية الأماكن بأسماء وصفية تغلب عليها صفة الاستقرار، وطريقة العيش واتّساق الألفاظ والصور المسقطة عنها بكل ما تحيط به من مفردات الحياة في بيئته، وفي أدواره التي يؤديها، وفي الأحداث التي شهدها في الأمكنة المقصودة.

فالمكان كونه يمثل موجوداً اعتبارياً، فإنه يكتسب هويته من طبيعة الأحداث أو الموجودات التي قامت حوله، أو من الخواص الطبوغرافية والهيئة التي يقع عليها، أو من الوظيفة أو الدور الذي يؤدى فيه لمن يرتبط به، بحيث يصبح للمكان من اسمه مدلولات تكشف عن معلومات تاريخية مهمة عبر حقبة زمنية تشمل لغة وعادات اندثرت، فتسهم الأسماء بدور كبير في التعريف بأحوال البيئات السالفة، وعلاقتها بالنشاط البشري من حولها.

وقد غدا للأماكن علومها التي تُعنى بدراستها دون التخلي عن دراسة أسمائها، ويمتلك المتبحّرون في هذا العلم القدر الكافي من المعرفة في اللغة والأدب والجغرافيا والتاريخ والطبوغرافيا، فضلاً عن النبات والتضاريس الطبيعية التي هي دلالات الأماكن، ذلك أن الأماكن تم تسميتها لأسباب ودواعٍ كانت معروفة في حينها، ومازالت تعبّر في أغلب ظاهرها عن صفات المكان أو ما نُسِب إليه من أشخاص أو قبائل أو شعوب، أو أحداث ارتبطت به بوجه من الوجوه، أو حيوانات ارتبطت به، أو تضاريس اشتُهِر بها، أو غيرها من الأسباب التي دفعت لتسميته. وقد أوجد هذا التنوع في دواعي التسمية للأماكن ثراء كبيراً في الأسماء؛ فنجد في الإمارات اسم أبوظبي (ذات الظبي) نسبة لحيوان الظبي المألوف الذي كان يعيش فيها، واسم محضر حميم في ليوا نظراً لشدة الحر التي تميزها طقس المنطقة، واسم حصن زايد نسبة لمالك الحصن وساكنه الأول، ونجد في مناطق الجوار اسم مدين لقبيلة مدين التي سكنتها، وفي مكة المكرمة اسم البيت العتيق لأوليته وإعتاقه من الطوفان، واسم جبل عرفات لتعارف آدم وحواء به أو لتعارف المسلمين في الحج، واسم الصفا لأن آدم أصفى توبته وأخلصها عليها. ومن البديهي أن تُشكِّل أسماء المواقع والأماكن القديمة في الإمارات العربية المتحدة جزءاً من تراثها التاريخي والجغرافي، ومن الهوية الحضارية، إذ يُستنبط منها معرفة أحوال البيئات القديمة ومعالم المنطقة لتكتمل صورة تاريخ المكان وحضارته في ذاكرة الأجيال التالية واللاحقة، عبر توثيق وجود هذه الأماكن وامتدادها، لا سيما تلك التي تحمل صفات تاريخية للحضارة التي تنتمي إليها الأجيال الإماراتية اليوم.

ومن السهل أن نجد تنوعاً ثرياً بأسماء الأماكن في الإمارات بتنوع البيئات والأحداث والحياة التي عاشها الإنسان فوق هذه الأرض؛ وقد حفلت بنصيب من هذه الأسماء بعض كتب التراث العربي، واشتغل في توثيقها ودراستها بعض الباحثين الإماراتيين أمثال أحمد محمد عبيد الذي حاول توثيق الأصول التاريخية لأسماء عدد من هذه المواضع، وكذلك الدكتور خليفة الرميثي المتخصص بالعلوم المتعلقة بهذا المجال، والذي جمع وحقق كثير من الأسماء الجغرافية، وتناول تاريخها وطبيعتها وعلاقتها بالبيئة المحيطة والتغيرات التي جرت على لفظها.

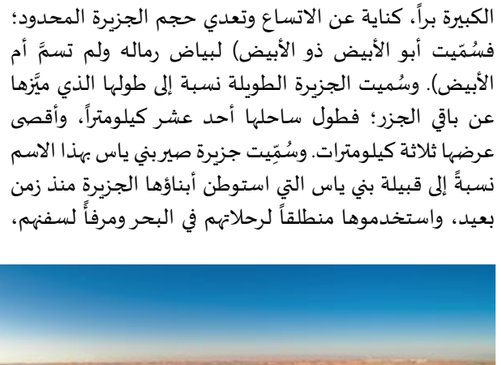

أسماء الجزر

ففي أسماء الجزر، نجد مثلاً أن الأصل في تسمية جزيرة أبو الأبيض، أكبر جزر الإمارات، أتت من تسمية العرب الجزيرة الكبيرة براً، كناية عن الاتساع وتعدي حجم الجزيرة المحدود؛ فسُمّيت أبو الأبيض ذو الأبيض) لبياض رماله ولم تسمَّ أم الأبيض). وسُميت الجزيرة الطويلة نسبة إلى طولها الذي ميَّزها عن باقي الجزر؛ فطول ساحلها أحد عشر كيلومتراً، وأقصى عرضها ثلاثة كيلومترات. وسُمّيت جزيرة صير بني ياس بهذا الاسم نسبةً إلى قبيلة بني ياس التي استوطن أبناؤها الجزيرة منذ زمن بعيد، واستخدموها منطلقاً لرحلاتهم في البحر ومرفأً لسفنهم، ومصائد غنية لصيد السمك والغوص على اللؤلؤ. وتعني كلمة الصير، حسب لسان أهل المنطقة، الحصن أو القلعة الصغيرة أو المدينة الصغيرة المسوَّرة وتكون عادة على سواحل البحر أو في الجزر. وأصل اسم جزيرة بوكشيشة: ذو الكشيشة، وهي تصغير كُشَّة، وتعني شكلاً من أشكال شجر الغاف المعروف. واسم جزيرة بالشُعوم من شعم، وهو نوع من الأسماك المحلية، فسميت كذلك لكثرة الأسماك حولها. وفي جزر البزوم (مروح والفيّ والبزم الغربي)، فإن اسم جزيرة مروح تعني مكان تجفيف الأسماك، وسُمّيت كذلك كناية عن كثرة الأسماك التي تصطاد من حولها. وجزيرة الفيّ تسمَّى كذلك بالبزم الشرقي، وأصل الاسم الفيّ تصغير قَيّ أي فج بعد قلب الجيم إلى ياء كعادة أهل المنطقة، وفجيج مصدر فج، وتعني باعد بين شيئين، والمقصود هنا التباعد بين مروح والبزم الشرقي الذي سُمّي بالفيّ، أما جزيرة البزم الغربي فسُمّيَت كذلك لوجودها أقصى غرب جزر البزوم، كما يفسر ذلك الدكتور الرميثي. وفي اسم جزيرة دلما، فقد نُسج آراء كثيرة حول تسميتها منذ تاريخ بعيد، نظراً لمكانتها في تاريخ الإمارات بخاصة، ومنطقة الخليج بعامة، إذ تعد من أقدم المواقع المأهولة بالسكان في المنطقة، كونها شكّلت مركز التقاء وانطلاق

لمعظم خطوط الملاحة العابرة لمياه الخليج، نتيجة للعدد الكبير من آبار الشرب القديمة التي تفيض بها أرض الجزيرة، والتي مازالت حتى اليوم تفيض بالمياه العذبة. ومن الآراء الأكثر ترجيحاً حيال تسميتها، أن الاسم ربما جاء من كلمتي (دلو ماء) الذي كان يطلبه من السكان المحليين كل البحارة الذين يمرون بالجزيرة. وهو الرأي الذي رددته الذاكرة الشعبية لأهالي الجزيرة المستقى من كبار السن الذين سمعوه من آبائهم وأجدادهم، وهو أن اسم دلما هو اختزال لكلمتي (دلو ماء)، إذ كانت السفن في الماضي تمر وتقف أمام دلما للتزود بالمياه العذبة التي اشتهرت وعُرفت بها الجزيرة، والتي يستقيها أهلها من آبارها ومن العيون الجارية في أرضها، فكان إذا ما سئل أحدهم عن سبب توقفه أمام الجزيرة أجاب بحاجته إلى دلو ماء، فأخذت هذه العبارة تتكرر مع توقف السفن والمسافرين أمام الجزيرة، حتى تحولت كلمتاها بمرور الأيام وكثرة التداول من دلو ماء إلى دلما. ومن المعروف أنه كانت لمنطقة الخليج العربي وجزره وموانئه علاقة وارتباط بالطرق التجارية الرئيسة بين الشرق والغرب، كما كانت ترتبط تلك السواحل بالطرق البرية وتتبادل معها البضائع. وما وجود الآبار القديمة والمدابس لصناعة الدبس في الجزيرة اليوم إلا براهين على أن الجزيرة كانت محطة وميناء تجارياً في منطقة الخليج التي ارتبط النشاط التجاري فيها مع جميع الدول المجاورة كالأنباط والتدمريين، وبلاد ما بين النهرين، حيث كان استيراد النحاس من منطقة الخليج منذ ما قبل التاريخ، واستمر في العهد السومري، وخاصة الاستيراد من منطقة عُمان التي ورد اسمها في المصادر السومرية باسم (مجان). وورد اسمها في أخبار الملوك الأكديين.

أسماء المدن والبلدات

يقول ياقوت الحموي عن (خورفكان): إنها بُليد على ساحل عُمان، يحول بينه وبين البحر الأعظم جبل، وبه نخل وعيون عذبة. وقال عنها ابن بطوطة: ذات أنهار وحدائق وأشجار. وقال ياقوت الحموي في جلفار: إنها مدينة مُخصبة بناحية عُمان، وقال أيضاً: بلد بعُمان كثير الغنم والجبن والسمن، يجلب منها إلى ما يجاورها من البلدان، وقال الشريف الإدريسي عنها وعن الخيل، وهي موضع غير معروف حالياً في إمارة رأس الخيمة قريب من جلفار: قريتان بهما مغايص اللؤلؤ. ما يدل على الأهمية الاقتصادية لهاتين المدينتين وقتذاك، وكان قوم من عبد القيس يسكنون جلفار في صدر الإسلام.

حَتَّى وكَلْباء

قال ياقوت الحموي عن حتّى: هي من جبال عُمان أو جبلة. كان

يسكنها قوم من كندة والأزد. وفي حتّى كانت تسكن كندة وفي الجبال التي بينها وبين مدحاء، ويطلق عليها جبال كندة، قال سلمة بن مسلم العوتبي: كان بنو حبيب من كندة في الأول هم أهل حتّى. وذكر ابن بطوطة كَلْبَاء، وهي بلدة من توابع إمارة الشارقة، قريبة من الفجيرة، كما ذكرها ياقوت على أنها موضع من نواحي عُمان على ساحل البحر.

دَبَا

كانت عاصمة عُمان في أواخر العصر الجاهلي. قال ياقوت الحموي عنها، وكذلك محمد بن موسى الحازمي: بعُمان مدينة قديمة مشهورة لها ذكر في أيام العرب وأشعارهم وأخبارهم، وكانت قديماً قصبة عُمان. كما أن لها ذكراً في التاريخ القديم، وكان يسكنها شعب يقال له: الدبائيون. وقال أبو الفتح السكندري: إنها من المدن القديمة في عُمان، كانت القصبة قبل صحار.

وقال محمد بن الحسن بن دريد وأبو عبيد البكري: دبا موضع فيه سوق من أسواق العرب. وقال محمد بن حبيب البغدادي وطابقه

في ذلك أبو علي المرزوقي: سوق دبا، وهي إحدى فرضتي العرب، يأتيها تجار السند والهند والصين وأهل المشرق والمغرب، فيقوم سوقها آخر يوم من رجب، وكان بيعهم فيها المساومة، وكان الجلنْدَي بن المستكبر يُعشرهم فيها وفي سوق صحار، ويفعل في ذلك فعل الملوك في غيرها.

الفُجَيرة

الفُجَيْرة بضم أولها، تصغير فجرة، للواحدة من الفجور، اسم موضع. ومن المرجح أنه يعني مدينة الفجيرة الإماراتية المطلة على خليج عُمان، وقد اشتق ياقوت الاسم من الفجور. ويذهب سكان المنطقة إلى اشتقاق الاسم من إشراق الشمس وقت الفجر، وربما كان اشتقاقه من الفُجْرَة، أي مُنْفَجَر الماء من الحوض.

الجواء أو (ليوا)

يذكر الدكتور الرميثي أنه يقال إن الجواء الاسم القديم لمناطق ليوا، وقد تطور نطق هذا الاسم نحو التسهيل بسبب تساهل الناس في النطق باللغة العربية الفصحى حتى وصلنا إلى النطق العامي لها حالياً؛ فكان الاسم القديم (الجواء) ثم قالوا (الجوا)، ثم تساهل الناس في نطق الجيم فقلبت إلى ياء فقالوا (اليوا)، ثم نطقت بحذف ألف التعريف مع تسكين الياء لمنع التقاء الساكنين (ليوا)، ثم تساهلوا في الالتزام بالتسكين فمدوا الياء فصارت (ليوا).

السبخة

وهذا الموقع حالياً أرض واسعة مطلّة على البحر في المنطقة الغربية لدولة الإمارات العربية المتحدة قريبة من حدودها مع المملكة العربية السعودية وقطر، تعرف باسم سبخة مَطَّي. والسبخة أرض ذات مِلْح ونَزّ، وجمعها سباخ، والسَّبَخَة موضع ذكره ابن خرداذبه في «المسالك والممالك» أنه على طريق المسافر من البصرة إلى عُمان على الساحل. وقال عنه الإدريسي: من جلفار وأنت نازل إلى البحرين تصير إلى مَرْسَى السبخة، وهو مرسى فيه عين نابعة عذبة ■

* باحث وإعلامي مقيم في الإمارات

المصادر والمراجع

1. أحمد محمد عبيد الأصول التاريخية لأسماء المواضع في الإمارات، الشارقة: معهد الشارقة للتراث، 2016م.
2. أحمد محمد عبيد وراشد عبيد إبراهيم، مواضع من دولة الإمارات في المصادر العربية، العين مركز زايد للتراث والتاريخ، 2001م.
3. خالد بن عيد بن محمد بن جاسم المريخي، جزيرة دلما والغوص على اللؤلؤ في الوثائق البريطانية، أبوظبي: المؤلف نفسه، الطبعة الأولى، 207م.
4. خليفة الرميثي، لأسماء الجغرافية - ذاكرة أجيال: دراسة تاريخية وتوثيقية لدولة الإمارات، الشارقة: أوستن ماكولي للنشر، 2022م.
5. صباح الشيخلي وطارق الحمداني، الإمارات وما جاورها من البلدان في جذورها التاريخية في العصور الإسلامية والحديثة، بغداد: دار الوراق للنشر، الطبعة الأولى، 2014م.
6. عبد الستار العزاوي، جزيرة دلما: المباني التراثية وجهود الترميم والصيانة، العين مركز زايد للتراث والتاريخ، 2000م.
7. مجلة «تراث»، أبوظبي: نادي تراث الإمارات، العدد 35، أكتوبر 2001م.

أبوظبي .. ذاكِرة مكان وتاريخ يُرْوَى للأجيال

فاطمة سلطان المزروعي

يعتبر التوثيق والحفظ من أهم الاكتشافات التاريخية التي أسهمت في تطور البشرية، فقد اهتم الإنسان في كل حقبة زمنية بحفظ مخترعاته واكتشافاته وتوثيقها للأجيال القادمة، ورغم ذلك فقد ضاع الكثير من المعلومات المهمة التاريخية في تاريخ العديد من الأمم، لذلك حرصت مجموعة من الجهات الارشيفية، مثل: الأرشيف، والمكتبة الوطنية، والباحثين، والمتخصصين في تسجيل تلك المعلومات والحرص على حفظها من الرواة والرواية الشفهية، وهنا سوف نستعرض الكثير من الأسماء والأماكن المرتبطة بتاريخ أبوظبي من خلال الكتب التاريخية والروايات الشفهية.

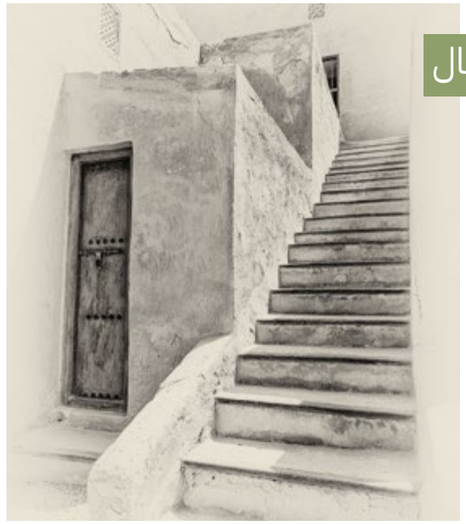

لقد بدأت أولى المحاولات التوثيقية للتعريف بأسماء المناطق وصفاتها الجغرافية من خلال شركة «أدكو» التي قامت بتعيين فريق للقيام بعمليات المسح وعلى رأسهم السيد علي بن ثامر وكان من أوائل المواطنين العاملين لدى «أدكو» وقد اشتهر بمهارته الفائقة في العثور على الدروب الآمنة في الصحراء (المصدر : كتاب «أدكو» رحلة عبر التاريخ عام 2014). تقع جزيرة أبوظبي في شرق الجزيرة العربية، يفصلها عن اليابسة خور المقطع في جهة الجنوب الشرقي، ويحدها من جهة الجنوب خور قرقشان، ومن الجنوب الغربي خور البطين، ومن الشمال جزيرة بالشعوم وخور البغال، ومن الغرب مياه الخليج العربي، وقد ذكر المؤرخ (جاسبارو بالبي) أحد أهم الرحالة الذين زاروا الشرق وترك كتاباً يحكي رحلته إلى الهند والشرق في القرن السادس عشر، وجاء في كتابه وصفاً عن جزيرة «أبوظبي» خلال عام 1579 إلى 1588، مما يؤكد أهميتها التاريخية في المنطقة وموقعها الاستراتيجي المهم، وذكر بأنه قد رأى فيها بعض التجمعات السكنية عندما مر بها عام 1580م، وفي كتاب «عرب الخليج» قبل تاريخ 1580، لمؤلفه (سلوت) ذكر الأماكن التي مر بها وهي قرقشان وهو اسم خور يقع في الجنوب من جزيرة ابوظبي، وهذا يوضح لنا أن المنطقة كانت مأهولة ومعروفة وتاريخياً وليس كما أدعى بعضهم من المؤرخين والباحثين أن أول مستوطنة دائمة كانت في عام 1761 م على يد أحد أفراد قبيلة بني ياس. كان يطلق على جزيرة أبوظبي قديماً اسم (مليح) وكانت تربتها بيضاء وفيها العديد من السباخ التي تتجمع فيها المياه ومن ثم تتبخر مخلّفة الملح، ومن هنا جاء تسميتها «مليح» حيث ذكر الرحالة (بالبي) في مذكراته التي كتبها عام 1580 أشار إلى موضعها باسم (قرقشان) ولم يتأكد أن المقصود بها هو هذه الجزيرة أو موضع آخر قريب منها، حيث ذكر العديد من المسميات القريبة من أبوظبي وفي الوقت نفسه كانت هذه الجزر مأهولة بالسكان مثل (داس، وأرزنة، وزركوه ودلما وجزيرة صير بني ياس التي لها دلالة واضحة على وجود قبيلة بني ياس، وأنها كانت جزيرة مأهولة بالسكان ومتميزة بموقعها الجغرافي المتميز البارز على ساحل الخليج العربي. وتقول رواية أخرى أن سبب تسميتها بـ«أبوظبي» تعود إلى أن مجموعة من أفراد قبيلة بني ياس كانوا في رحلة صيد، وكانوا يتبعون قطيعاً من الظباء الذي اجتاز البر إلى هذه الجزيرة عبر الموضع المعروف بـ«المقطع» وأن أحد الأشخاص قد افترق عن أصحابه متتبعاً أثر ظبي، وعندما أدركه واصطاده كان قد أصيب بتعب وأعياء شديد فقام يأكل لحم الظبي، ولكن العطش أصابه فحفر من تلك البئر الذي سميت «طوي أبوظبي»، وبعد ذلك توافدت القبائل والأسر قرب البئر ومنذ ذلك الوقت سميت الجزيرة باسم «أبوظبي» كما أتت الإشارة إلى اسم جزيرة الظباء في الوثائق البرتغالية سنة 1621 م، قبل أن تتخذها قبيلة بني ياس مقراً لها. وكانت تسمى جزيرة الظباء أو الغزلان، وقد جاء في الأرشيف البرتغالي أن من التعليمات التي أصدرها قائد الأسطول فيريرا عام 1621 نشر الأسطول البرتغالي بين خصب في مسندم وجزيرة الغزلان، وأن على القائد البحري أن يستريح في جزيرة الغزلان، ويترك سفينة فيها ويتوجه إلى جلفار وهذا دليل على أن هذه الجزيرة كانت معروفة باسمها لدى أفراد بني ياس وشيوخها، وكانت مسكونة بدليل أنها سميت بجزيرة الغزلان، وذكرها في الوثائق البرتغالية في سنة 1621 يدل على أن أبوظبي أو جزيرة الظباء كانت معروفة لدى سكان شرق الجزيرة العربية منذ القدم.

انتشرت أنباء اكتشاف المياه بسرعة في أبوظبي وما لبث أن اتسع المكان قبل مرور عامين على ذلك وأصبح يضم أربعمئة منزل، وزادت عملية البناء فزاد عدد السكان والمساحة التي يقيمون عليها، ويعود الفضل إلى ذلك إلى الشيخ ذياب بن عيسى آل نهيان في تأسيس المستوطنة السكنية الساحلية، واستقر فيها بالقرب من عشائر وأفخاذ قبيلة بني ياس وفي عام 1793 نقل ابنه الشيخ شخبوط بن ذياب الذي خلفه في الحكم عاصمته من محضر المارية بمنطقة ليوا «الجواء» إلى أبوظبي وأصبح بالتالي أول حاكم فعلي لإمارة أبوظبي التي كانت تعرف بإمارة الظفرة، وكانت تمتد على مساحات شاسعة من منطقة شرق الجزيرة العربية والخليج العربي، وامتد نفوذ القبيلة ووجودها على طول سواحله وجزره وتعاقب الحكام على حكم الإمارة من آل نهيان حتى وقتنا الحالي.

عندما استقر بنو ياس في الجزيرة، وأقاموا فيها الأحياء السكنية بدأت تعرف بعض الأماكن والمواقع وكان يوجد في جزيرة أبوظبي قديماً معالم وتضاريس طبيعية كانت لها مسمياتها المعروفة لدى الأهالي، وقد شيدت في الجزيرة بعض المباني سميت بأسماء خاصة، منها الظهر: ويطلق على ساحل جزيرة أبوظبي الشمالي والمنطقة السكنية من الجزيرة، وتتكون من منطقتي الأولى شرق السوق بمحاذاة البحر، والأخرى غرب السوق ويفصل بينهما طريق الحصن الذي يربط بين الحصن جنوباً والميناء شمالاً، وتمتد المنطقة الشرقية من مسجد محمد بن مسعود شرقاً على السوق غرباً، وتتكون من منطقتين كبيرتين هما فرجان الرميثات والرواشد وبعض من القبيسات، ومنطقة السوق التي يسكنها التجار والبحارنة، أما المنطقة الغربية التي تقع غرب السوق فيسكنها القمزان والمرر والهوامل وغيرهم من عشائر بني ياس وتمتد المناطق السكنية على طول الساحل وعلى مقربة من الحصن، أما البيوت المبنية من سعف النخيل والخيام فتقع

خلف المباني الدائمة من جهة البر تليها بعض بساتين النخيل.
ومن أشهر الأماكن ما عرف بـ«عقلة شخبوط»: وهي مجموعة آبار مياه وسميت عقلة لأنها قريبة من سطح الأرض فبالإمكان سحب الماء منها بعقال البعير، وينزل الناس إليها للروي والتزود بالماء وكانت هذه العقلة هي من أعذب مياه جزيرة أبوظبي، وكانت تسمى العقلة الغربية، لأنه كانت هناك عقلة آخرى تقع في جهة الشرق تسمى العقلة الشرقية، وكانت تقع جنوب قصر الشيخ شخبوط بن سلطان آل نهيان.

- **البطين:** وتعتبر هذه المنطقة إحدى المنطقتين السكنيتين القديمتين في الجزيرة وكانت تسكنها أسر من عشيرتي آل بومهير والسودان وهما من قبيلة بني ياس، وكل عشيرة تسكن في حيين سكنيين يعرفا باسم فريج آل بومهير وفريج السودان وكان يسمى الحي السكني «حارة أو فريج». وقد ذكر لوريمر في دليل الخليج: «بطين على الشاطئ الشمالي من خور البطين على بعد نحو ميل ونصف من الداخل وهي قرية تتكون من 130 كوخاً من سعف النخيل مئة منها آل بومهير والباقي لقبيلة السودان، فيها مزارع النخيل التي تقع فيها آبار مياه الشرب، وللسكان 50 قارباً لصيد اللؤلؤ ولكن لا توجد مراكب بحرية أخرى».

- **حديقة أو حدبة الزعفرانة:** هي منطقة رملية مرتفعة محدبة الشكل، تقع في وسط جزيرة أبوظبي من جهة الشرق، وسط الطريق المؤدية من المقطع إلى حيث الحصن والبيوت والسوق، وقد سميت بالحدبة نسبة إلى زمن الغوص حيث كانت نساء أبوظبي عند عودتهن من المحاضر في ليوا والعين وعُمان يتوقفن عند ذلك الموضع فينزلن عن ظهور الإبل ثم يقمن بالتجمل لأزواجهن العائدين بعد 4 أشهر فراق وهي رحلة الغوص الكبير،

وكن يستخدمن الزعفران الذي كان ينسكب في ذلك الموضع فيصبغ التربة بلون الزعفران الأصفر فسمي ذلك الموضع الرملي بـ«حدبة الزعفرانة».

- **حدبات الغبينة:** وتقع غرب المقطع وشرق حدبة الزعفرانة، وهي أعلى مرتفع رملي وسميت باسم الغبينة لبعدها عن الأنظار، وقد اختار الشيخ شخبوط بن سلطان آل نهيان - رحمه الله - هذا الموضع لبناء استراحة له تعرف باسم استراحة شخبوط، وتم ترميمها بناء على توجهات من سمو الشيخ محمد بن زايد آل نهيان، حفظه الله.

- **خور البغلة:** ويسمى خور الدانقيّة، يقع في منطقة البطين مقابل حارة آل بومهير، وتسمى بخور البغال نسبة إلى السفن البحرية التقليدية المعروفة باسم «بغلة»، وجمعها «بغال» وكانت هذه السفن كبيرة جداً ولا تستطيع الوصول على سواحل أبوظبي وذلك لكبر حجمها وضحالة المياه قرب السواحل، لذلك كانت ترسو عند مدخل سواحل جزيرة أبوظبي ويعرف هذا الموقع حالياً باسم النادي السياحي .

- **الخبيرة:** تقع الخبيرة في آخر الجزيرة في جهة الجنوب الغربي وهي لسان من اليابسة ممتد في مياه البحر إلى جهة الجنوب الغربي.

- **الراس:** هو رأس من اليابسة ممتد في البحر، يقع في جهة الشمال الغربي من جزيرة أبوظبي وحل مكانه الآن ميناء الشيخ زايد ويسمى رأس الدمية.

- **برج المقطع:** هو برج حراسة ومراقبة، يقع في شمال خور المقطع، وهو الممر المائي الذي يفصل جزيرة أبوظبي عن البر الرئيسي، وقد بُني على صخرة لا يزيد ارتفاعها على متر عند أعلى مد، وهو دائري الشكل بعرض 16 أمتار تقريباً.

- **حصن المقطع:** هو حصن على شكل مربع، يقع على المقطع، وقد بُني في آخر سنة 1953، يتكون من طابق واحد وسطح للرماة، وبرج مربع في الناحية الجنوبية الشرقية، ثم أضيف إليه غرف الحرس في الجهة الشرقية من المبنى في منتصف الخمسينيات عندما نشطت حركة نقل المسافرين والبضائع عبر المعبر البحري لجزيرة أبوظبي، وتطلب ذلك دخول الشرطة إلى الحصن عام 1958، وتمت إضافة مجموعة من الغرف الملحقة بالحصن في الجهة الشرقية، واستخدمت كمكاتب وسكن الموظفين، خاصة بعد أن شغلتها عناصر من الشرطة وفي بعض الأحيان مجموعة من موظفي الجمارك لحصر البضائع الداخلة لجزيرة أبوظبي كما استخدمها كاستراحة لكبار الوزارة القادمين عن طريق البر، حيث كان ينزل ضيوف الحاكم وبعض الأعيان عند وصولهم ليلاً إلى الجزيرة، وفي أيامها الأخيرة استخدمت الغرفة لمبيت حرس

المقطع، وذلك قبل أن تُبنى الإضافات الخاصة بالحرس ورجال الشرطة عند حصن المقطع.

- **غرفة شخبوط:** وهي غرفة بناها الشيخ شخبوط بعد أحداث غناضة بين أبوظبي ودبي في عام 1946، تقع الغرفة على بعد 1800 متر شمال غرب برج المقطع، وقد شيدت على مرتفع رملي طبيعي يبلغ ارتفاعه خمسة أمتار عن مستوى سطح البحر، يسمى «حدبات الغبينة» وكان الشيخ شخبوط يعقد مجلسه في الغرفة لأوقات طويلة في فصل الشتاء.

- **السوق:** يقع في منطقة الظهر الواقعة في غرب جزيرة أبوظبي، وهو عبارة عن محلات صغيرة وكانت بعض المحلات مبنية بالحجر، قال الرحالة هندرسون سنة 1994: «أما السوق فكان صغيراً، ومعظم البيوت التي كان يعيش فيها السكان صنعت من جريدة النخيل»، وذكر لوريمر في (دليل الخليج) سنة 1907 عدد الدكاكين في السوق فقال: «يوجد 70 حانوتاً من جميع الأنواع في سوق أبوظبي، 40 منها للإيرانيين، و19 للهندوس، و10 للعرب والصادرات الوحيدة هي اللؤلؤ، ويستورد الهندوس القماش والأرز والبن والسكر ويتاجرون باللؤلؤ، وتوجد أحياء غرب السوق وشرقيه وأم الغربية ففيها حارات الرميثات والرواشد وبعض القبيسات، وأما الغربية فيسكنها القمزان والمرر والهوامل وغيرهم من عشائر بني ياس».

-**مسجد العتيبة:** هو المسجد الكبير في جزيرة أبوظبي بناه الشيخ سعيد بن طحنون حاكم إمارة أبوظبي في عام (1845 - 1855) ثم قام بترميمه السيد خلف بن عبدالله العتيبة عام 1936، وسمي «جامع العتيبة» ويقع شمال غرب قصر الحصن، واليوم استبدل بهما بمسجد واحد هو مسجد خليفة بن زايد الأول.

- **مبنى الوكالة السياسية البريطانية:** هو مبنى يتكون من طابقين أرضي وعلوي، يقع غرب منطقة الظهر بالقرب من شاطئ البحر، تم افتتاحه في 20 أكتوبر عام 1956، وكان السيد مارتن بكماستر أول من عينته وزارة الخارجية لمنصب الوكيل السياسي في أبوظبي.

- **مبنى الجمارك:** يقع مقابل الميناء القديم على شاطئ الجزيرة، وهذا المبنى في الأصل يسمى عمارة بومباي (بمبي) ويعود للتاجر أحمد بن خلف العتيبة، ويتكون من طابقين أرضي ودور أول ومكانه عند دوار الساعد قديماً وتم هدمه سنة 1967م تقريباً.

هذا مختصر لبعض أسماء الأماكن والمباني في جزيرة أبوظبي، ورغم أن بعضها قد غاب عن الذاكرة ولكن هناك بعض الأماكن التاريخية والأسماء لا تزال حاضرة في الأذهان، وفي صدور الأولين وتحتاج من يعيد إحياءها من جديد بالحفظ والتوثيق ■

* رئيس قسم الأرشيفات التاريخية - الأرشيف الوطني

«بينونة».. إيقونة الرمال

مريم سلطان المزروعي

«إن هذا المكان الذي نراه هنا ونمشي في أورقته اليوم، يحمل بعضاً من عبق ذاكرة المكان الأكبر الذي عاش فيه أهلنا وأحبتنا، يحمل رائحتهم، عبق عطورهم، وعرقهم، وهذه الوجوه التي تطالعنا هنا، الملامح التي يرى فيها بعضنا شيئاً من نفسه، أو تجعلنا نقف لتأملها متسائلين عن حياتهم وكيف عاشوها، متى ضحكت ومتى بكت، ومتى غادرت للبعيد، كل هذه الشخصيات تنهض مرة أخرى من التراب وتمتشق قاماتها حاضرة في المكان وفي النفوس، لعلها تخبرنا عن نفسها، أو أنها تسأل عمّا بقي منها فينا» عبارة ذكرتها الدكتورة حصة لوتاه عند زيارتها لمتحف المرأة في دبي، تصف ذاكرة المكان.

إن شريطاً من الذكريات تمر أمام أعيننا، ممزوجة بالكثير من التفاصيل الدقيقة والصغيرة التي قد لا تخطر على بال إنسان، ولكنها تحمل ما بين طياتها الكثير، فهناك ذكريات ترتبط بروائح متنوعة كرائحة طبخ أمي، ودق (الهاون)، عندما تسعى بكل حب لتصنع القهوة لوالدي أو لضيوفها، عندما كنت أسمعها أتذكر منزلنا القديم، وكيف كانت تفاصيله الصغيرة، لكن قلوبنا كانت كبيرة تتسع للجميع على الرغم من صغر منزلنا، جدي وجدتي وأمي وأبي - رحمهم الله - وإخواني الذين لم يبق منهم غير اثنين، أما الباقون فقد رحلوا علنا، كنا من العائلات الممتدة، لكن الآن قد اختلفت الآراء وتغيرت الاتجاهات والآمال والطموحات، الذكريات مرت سريعاً أمام أعين الوالدة أم علي المزروعي التي أخذت تتحدث بكل شوق عن ذكرياتها، كأنها تحاول استعادة طفولتها فتقول بكل شغف: «مسميات كثيرة تغيرت علينا اليوم، فأبوظبي كانت مدينة صغيرة، كنا نسمع من أهالينا بأنها جزيرة كانت مملوءة بالظباء، أعدادنا قليلة جداً، كنا نعرف بعض بعضاً، وكان الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - رحمه الله - يأتي إلى زيارتنا وكثيراً ما كنا نراه يسأل عن حالنا، بيوتنا كانت من الخيام أو من سعف النخيل (عرشان أو عرش)، كنا إذا أردنا أن نحتفل بأي مناسبة نجتمع عند قصر الحصن، وهذا أهم معلم يميز أبوظبي عن غيرها من المناطق، كان حولنا الكثير من الجزر، وأذكر جزيرة دلما التي تعتبر من أهم الجزر بالنسبة إلينا، وكانت مصدراً للتجارة عاش فيها العديد من القبائل معظمهم من القبيسات والمريخات وعدد قليل من المزاريع، وجزيرة داس وأمُّ النَّار وأَرْزِنة وأم النار، وفي وقت القيظ كنا نذهب إلى مدينة العين، ورجالنا يخرجون إلى الغوص بحثاً عن اللؤلؤ، حتى أهالينا من بينونة كان يذهبون عن طريق جبل الظنة إلى دلما التي كانت مصدر رزق لهم، وهذه بينونة منطقة كبيرة مد البصر، من الشرق الطفّ ومن الغرب سبخة مطّي، وفي جنوب بينونة كانت رمال كثيرة واسعة وشاسعة وبها موارد الماء والعشّب، يذكر علي أحمد الكندي المرر في كتابه: «الأسماء التاريخية للأماكن في إمارة أبوظبي»: سبب تسمية بينونة هو ما ذكره البكري بقوله: قال ابن شبّة: وإنما سُمّيت بينونة لأنها وسط بين البحرين وعُمان فصارت بينهما، قال النابغة الجُعدي:

عليهـــنَّ من وَحـش بينونـــةَ نِعـــاجٌ مطافيـــلُ في رَبـــربِ

وقال الراعي:

عُميريّـةٌ حلّت برملِ كُهيلـــةٍ فبينونةٌ تُلْقى ها الدهر مَرْبعَا

وفي كتاب أحمد محمد عبيد، «الأصول التاريخية لأسماء المواضع في دولة الامارات»: (قال ياقوت الحموي: «بينونة... موضع سمي بالمصدر، ومن قولها: بان يبين بينونة إذا بعد، وهو موضع بين عُمان والبحرين، بينه وبين البحرين ستون فرسخاً، قاله أبوعلي الفسوي النحوي، وأنشد في الشيرازيات:

يا ريـــح بينونـــة لا تذمينـا جـئت بـأروا المصفرينـــا

يقال: ذمته الريح تذميه، قتلته، وأصله أذهب ذماه، وهو بقية الروح، وقال الأصمعي: بينونة آخر حدود اليمن من جهة عُمان، وقال غيره: بينونة أرض فوق عُمان تتصل بالشحر، وقال الراعي في رواية ثعلب:

عميرية حلت برميـــل كهيلـة فبينونة تلفى لها الدهر مربعا

وقال في تفسيره: هما بينونتان، بينونة الدنيا وبينونة القصوى في شق بني سعد، ويبدو من هذا القول إن بينونة السفلى أو الدنيا في ديار بني سعد، أما بينونة القصوى فهي في عُمان، بينما عمر بن شبه يقول: «سميت بينونة لأنها وسط بين البحرين وعُمان» وهذه هي بينونة المنطقة الصحراوية من المنطقة الشمالية الغربية لإمارة أبوظبي تحتل مساحة واسعة من هذه الإمارة، وهي التي تعرف بـ«بينونة القصوى». لقد تغنى عدد من الشعراء والأدباء بذاكرة المكان، وتنوعت الأماكن والبيئات من الصحراء، ومنها إلى الأزقة، فالمدن العتيقة ومن الزراعة إلى المباني الشاهقة، نتذكرها بروائح جميلة تنبع من عبق التاريخ وترسخ، فالذاكرة تُبَين هوية المكان». وفي «معجم أسماء الأماكن والمواقع في دولة الإمارات العربية المتحدة»، الصادر عن الأرشيف الوطني، يشير تقرير «مجلة العربي» الكويتية عن بينونة سنة 1998: «إن غابة بينونة، بها ملايين الأشجار تصطف وتتقاطع صفوفها على مدّ البصر، كأنها منسقة ببرنامج حاسوبي أخضر جبار، فبرغم تحليقنا ودوران الطائرة كان عصياً على البصر أن يلمَّ بحدود الغابة في نظرة واحدة أو مديدة، ثمَّة غابتان رأيناهما في بينونة، يفصل بينهما شريط من الرمل، عرضه نحو كيلومترين: أولاهما طولها 50 كلم، وعرضها 35 كلم، والثانية طولها 35 كلم، وعرضها 25 كلم». بينونة موقع يعتمد على موقع بئر دعفس، مع العلم أن موقع بئر دعفس لا يتوسط بينونة؛ إذ تقع على بعد نحو 30 ميلاً جنوب شرق جبل الظنة المقابل لجزيرة ياس، وعلى بعد نحو 20 ميلاً إلى الداخل من أقرب نقطة على البحر، والموقع البديل المنسوب إلى دعفس أبعد كثيراً إلى الجنوب وإلى الشرق من الموقع الذي وُصف الآن، ولا نزاع في أن بينونة بين ليوا والبحر، أو بمعنى آخر: لا تصل إلى أقصى الطرف الغربي من الظفرة على حدود سبخة مطي، يطلق عليها اسم «الطف الغربي»، وهي أحد الأقسام الخمسة التي تشكل منطقة الظفرة، بين سبخة مطي غرباً، وبندر المرفأ وبندر المغيرة شرقاً، على شكل تلال غير منبسطة، ترتفع فيها ثلاثة جبال بارزة، وهي: الوتيد، وبراكة، والظنة، ومنطقة بينونة منطقة قديمة معروفة». أن «بينونة» حاضنة ليوا ومحاضرها، ولا تزال موطن البدو والبداوة بإمارة أبوظبي، وقد كان الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - طيب الله ثراه - مهتماً بقيمة الأماكن وأهمية المحافظة عليها، لذلك كانت له نظرة ثاقبة وواضحة، وقد أوضح هذا في قصيدة «بينونة»، التي هي موطن بني ياس، كما نلاحظ كيف اعتز بأسماء الأماكن وتباهي بها:

يعـــل نوّ بـانت امزونـــه يسجي الظّفـــره أوْ يرويها
لين يزخـــر عشـب بينونـــه والغـزر تسقـــى سواقيهـا
والرّمـل يعشـــب أويرعونـــه والبـــدو تزهـي مبانيهـــا
ويستجي مِ الغيث في السّونـــه شـــرق والوديـــان يريهـا
والجبـــل تدّفّـــق اركونـــه ويملي الجيعـــان ياريهـــا

لقد تغيرت الكثير من المواقع والمدن الجغرافية القديمة، وتمت إزالة بعضها كالأحياء الشعبية والمقاهي والشوارع وتعرضت للهدم والإزالة والتخلص منها، وأقيمت مشاريع عمرانية جديدة، ولكن للأسف لم يتم توثيق تلك المرحلة التاريخية لتلك المباني ربما لقلة المراجع الجغرافية فيما يتعلق بموضوع البحث عن المسميات والأحياء والمناطق، وكذلك اعتمادها على مصادر أخرى من الدول المحيطة بنا مثل عُمان والسعودية، وبعضها يرجع إلى اللهجات اليمنية، لذلك لابد من توجيه الجهود وتكثيفها لإبراز أجمل ما في هذه المواضيع الجغرافية وتوثيقها وتأصيلها حتى تكون للأجيال القادمة عنوان ومرجع يستعان به ■

جغرافية الإمارات في التراث الشعري

الأمير كمال فرج

اهتم الإنسان منذ نشأته بعملية التوثيق، وبدأ ذلك في عصور سحيقة بأدوات بدائية في العصر الحجري، وفي وقت لم تكن هناك أدوات تم ذلك في البداية على الأحجار.
لذلك لا غرو أن حضارات كاملة تم توثيقها على الأحجار، ومن بينها الحضارة المصرية القديمة، حيث حرص الفراعنة على توثيق ثقافتهم وفنونهم وحياتهم اليومية على جدران المعابد الحجرية.

ومع تطور أنماط التأليف ظهرت روافد كثيرة لعملية التأريخ أو التوثيق، ومن بينها المستشرقون، ومن أشهرهم قوردون لوريمر الذي وضع كتاب «دليل الخليج»، وديفيد صمويل مرجليوث صاحب كتاب «أصول الشعر العربي»، وويلفريد ثيسيجر الملقب بـ «مبارك بن لندن» صاحب كتاب «البلاد السعيدة»، ولورنس العرب صاحب كتاب «أعمدة الحكمة السبعة».
ومع تطور الأساليب الأدبية ظهر أدب الرحلات وهو نوع من الأدب الذي يوثق فيه الكاتب بلغة أدبية ما مرّ به من أحداث ومشاهد وتجارب أثناء رحلة قام بها لأحد البلدان. وتُعد كتب الرحلات من أهم المصادر الجغرافية والتاريخية والاجتماعية.
وفي العالم العربي ساهمت الكتب في توثيق العديد من المواضع والمناطق والأماكن والعادات والتقاليد ورصد تطور المجتمعات عبر الأزمنة المختلفة، وحظي الجانب الجغرافي بأهمية خاصة، لدوره في رصد حركتي التطورين العمراني والبشري.
وإذا حاولنا توثيق أسماء المناطق والمدن والمواضع التاريخية، فهناك العديد من المصادر التي يمكن التعويل عليها في هذا الصدد، ومن بينها القرآن الكريم والسُّنة النبوية، وكتب الأولين، والمراجع التاريخية، وكتب الرحلات، والرواة وكبار السن أيضاً.
ومن بين المصادر التي يمكن الاستفادة منها في هذا الصدد، والتي لم تحظَ باهتمام الباحثين الشعر. بمعنى أدق التراث الشعري الذي وثق في كثير من الأحيان العديد من الأشياء، كالأحداث والأنساب وحركة العمران والاستيطان البشري، ومن بينها أسماء المناطق والجهات والمواضع.

الشعر وثيقة تاريخية

الشعر ديوان العرب، فقد كان منذ القدم مستودعاً للعادات والتقاليد والقيم والسمات الاجتماعية، على سبيل المثال عكس الشعر الجاهلي على مرّ التاريخ البيئة العربية ومظاهرها المختلفة، ووثق عبر القصيدة الأسماء والأحداث والمواقف والمعارك والأزياء والأكلات والحياة اليومية والتحديات التي تواجه الإنسان في هذا العصر.
ومن بين ما وثقه الشعر العربي الأماكن، عن طريق ذكر أسماء المناطق والمواضع والمفازات، بشكل دقيق، حتى تشعر وكأن أماكن الشعر العربي أشبه بقطع فسيفساء تتجمع وتشكل

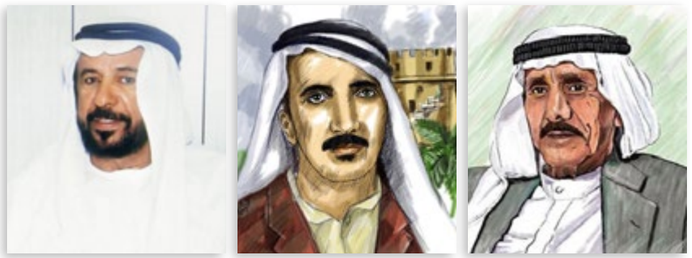

خريطة لجغرافية العصر القديم. وللمكان أهمية خاصة لدى الإنسان العربي، ففي بيئة صحراوية خالية من العمران ومقومات الحياة، وضرورة التنقل من مكان إلى آخر وراء العشب والكلأ أصبح الحنين للمكان سمة أساسية. ولعل أحد الأدلة على ارتباط العربي بالمكان الوقوف على الأطلال الذي كان القاسم المشترك، واستهلال لابد منه في القصيدة العربية. حتى لو كان غرض القصيدة ليس الغزل.
يقول عنترة بن شداد في معلقته موثقاً المكان الجديد الذي انتقلت إليه محبوبته عبلة وهو «الجواء»:

(هَـل غـادَرَ الشُعَـراءُ مِن مُـتَرَدَّمِ
أَم هَـل عَرَفـتَ الدارَ بَعـدَ تَوَهُّـمِ
يـا دارَ عَبلَـةَ بِالجَـواءِ تَكَلَّمـي
وَعَمـي صَباحـاً دارَ عَبلَـةَ وَاسلَمـي
فَوَقَفـتُ فيهـا ناقَـتي وَكَأَنَّهـا
فَـدَنٌ لِأَقضـيَ حاجَةَ المُتَلَـوِّمِ)[1]

الأماكن في الشعر الإماراتي

حرص الشعراء الإماراتيون على تجسيد البيئة المحلية، وكان المكان أحد العناصر المهمة التي اهتموا بها، فذكروا في أشعارهم المدن والجبال والأودية والآبار والهضاب والنفود والقرى، وكان التوثيق في بعض الأحيان توثيقاً مباشراً، بذكر اسم المدينة أو المنطقة، مثل قول الشاعر علي بن رحمة الشامسي في قصيدته «بين دروب الحويّة»:

(بين دروب «الحويّة»
بين الفليْ والذيد
طالب قلبي عليّه
أمشي بذاك السيد)[2]

وفيها يذكر الحويّة وهي منطقة رملية فيها بئر مندثر يسمى «طوي بن جليس» وهي في منطقة الرفيعة في الشارقة، كما يذكر الفلي والذيد وهما مدينتان في الشارقة.
وفي أحيان أخرى يذكر الشاعر المناطق بالتفصيل، وقد يذكر في

إطار ذلك الآبار والجبال والأودية، يقول الشاعر سالم الجمري في قصيدة «ياندبي» مخاطباً زميله سالم الكاس:

(ياندبي شد لي حمرا وبر
عيْدهيّه للكلف جثما سمين)[3]

ويصف الشاعر الناقة، ويذكر في إطار الوصف مناطق جغرافية محددة، يقول:

(ما رعت «سيح الشعيب» ولا «غفر»
ولا ربتْ في حي ناسٍ ممحلين
رابِيَه في «الساعدي» ولْها مقر
روضة خضرا عشبها ما يشين)[4]

في هذا المقطع يذكر الشاعر مناطق مثل «سيح الشعيب»، وهي منطقة بين دبي وأبوظبي، وكانت تشكل مدخل حدود إمارة أبوظبي للقادمين من الإمارات الشمالية، و«غفر» وهي منطقة قريبة من سيح شعيب وتقع إلى الشرق منها، و«الساعدي» وهي قرية في منطقة الجري برأس الخيمة قريبة من الحمرانية.

إلى أن يقول:

(عَ «العوير» ودوس«نزوه» والفجر
عندك «جبال السميني» بيّنين
جنّب «ايديّه» عليها لا تمر
ولا «طوي لْمضاحْيَه» صوبه تلين
هيّا «بالفاو» واصْعد «بالكبر»
واقْطع الرمله وخذها بالبطين
حنّها عن لا توردها «الهيَر»
هاتها شرقي صدير الواردين
يومها كلّه نهارك والعصر
إنت في دار الكرام الطيّبين)[5]

وفي هذا المقطع يواصل الشاعر تحديد عدد أكبر من المناطق، والجبال والقرى، ومنها «العوير»، وهي منطقة في دبي، و«نزوة» وهي منطقة تابعة للشارقة قريبة من قرية المدام النائية، و«جبال السميني» وهي الجبال القريبة من مدينة العين وتقع في شرقها، وهي جزء من جبال منطقة محظة، و"ايديّه" وهي منطقة قريبة من الشويب، كانت في السابق بئرماء تعيش بجواره وتشرب منه بادية بني قتب القاطنة هناك، خاصة في موسم الأمطار، و«المضاحية» وهي قريبة من قرية الهيرن وسميت باسم جماعة ابن ضاحي، و«الفاو والكبر» وهي مناطق بين منطقة الشويب والهير، وكانت عبارة عن استراحات للقوافل الذاهبة والآتية من العين إلى دبي والمناطق الشمالية، و«الهير» وهي منطقة الهير المعروفة التابعة للعين في أبوظبي. وقد يحدد الشاعر في قصيدته مكاناً محدداً، ويجعله منطلقاً لقصيدته العاطفية، ويوظفه في الغزل والتعبير عن الشوق، كما فعل سالم الجمري في قصيدة «بياته» محدداً بياته وهو بئرقديم، يقول:

(آه يا قلبي تسقّى بحْسراته
من غرامه ذاب ما له يعينَه
شاقني ربمٍ عفر يورد «بياته»
واسْتصبت مْنَه وحان القلب حينَه)[6]

و"بياته" بئرماء عذبة قديمة تقع شمال غرب فلج المعلا، وسميت الآن المنطقة باسمها، وتعتبر المنطقة من المناطق المعروفة في البر، وخاصة في مواسم الربيع بعد الأمطار الموسمية.

ديار الجمري

الجمري من أكثر الشعراء توثيقاً للمواضع والأمكنة في أشعارهم، وفي قصائده العديد من أسماء الأماكن والمواضع والقرى، يقول في قصيدة «البارحه ونّيت»:

(البارحة ونّيت في هيْعة الملا
ونّة دريكٍ في تلايا ليل
واحسرتي من ليعتي وا ونّتي
بأقصى الضمير لْها زفير طويل)[7]

ويبدأ الجمري في ذكر المواقع والأماكن التي يريد من نديمه «فتى الجود» ارتيادها، فيذكر 9 مواضع في القصيدة التي عدد أبياتها 27 بيتاً، ويقول:

(سرها نديبي يا فتى الجود م «الفليْ»
وانته خبيرٍ بالديار دليل

واقْصد جنوب وعجّل السير بالوحا
على «الذيد» وهات بْها وجرّ سهيل
على «وْشاح» مع «حمده» وجريان سهْلها
ولك يا فتى غربي «فِلِيْ» مْجيل
والعصر روّح واقْطع السيح مجنب
يْلين «جرن حمار» عنْك يميل
واخطف على «لخْروس» وارْجع مشرّج
و«القور» جدّامك وفيه نخيل
خلّه على يمناك واضْبط مْسيرك
وبيْجيك مظهارٍ وعنده غيل
واظهر شمال يا فتى واصْعد الجبل
وبتْشوف «الْمنيعي» كشطّ النيل) [8]

والمواضع في هذا المقطع هي: الفلي: يقصد فلج المعلا، ووشاح وحمده، وهي قرى على طريق الذيد - المدام، وفلي: منطقة بين الذيد والمدام من جهة الشرق، وجرن حمار: منطقة جنوب شرق فلي، تبعد عنها نحو 25 كيلومتراً، والخروس هي طوي الخروس، منطقة بين الجبال الجنوبية على الطريق القديم إلى الحويلات وفيها بئر يسمى الخروس، والقور قرية تقع في الجبال الجنوبية قريبة من المنيعي، والمنيعي هي قرية المنيعي بالقرب من وادي القور والحويلات، وهي من توابع إمارة رأس الخيمة.

مصالحة الدهماني

ومن الشعراء الذين اهتموا بذكر الأماكن في قصائدهم سالم بن سعيد الدهماني، ومن أمثلة ذلك قصيدة «قصيدة المصالحة» التي يقول فيها واصفاً الطريق لأحد الأشخاص:

(جيبه ع «شوكه» واعترض على «المغرقه»
وبتْشوف مركز فارس الضرغامي
لفه ع «كدره» عن طريق الكركره
صوب «المنامه» والعرب الاحشامي)[9]

والأماكن في هذا المقطع، «شوكه» وهي منطقة جبلية تابعة لرأس الخيمة تبعد عن المنيعي شمالاً نحو 30 كيلومتراً، و«المغرقه» وادي الماء الموجود حالياً في شوكه الذي ينزل من السد حالياً، ويقطع الشارع الرئيسي، و«كدره» منطقة جبلية قريبة من شوكه من الشمال، و«المنامة» قرية جبلية تابعة لعجمان قريبة من الذيد.

أماكن المايدي بن ظاهر

المايدي بن ظاهر شاعر الإمارات الأول يتميز شعره بأنه توثيق لقاموس البادية، ففي قصائده العديد من الأسماء والظواهر والمعاني التي كانت معروفة في زمنه، وفي قصائده توثيق عجيب للعديد من المناطق في الإمارات أيضاً.

وعندما تقرأ هذا المناطق والأماكن والتلال والآبار ستلاحظ أن هذه الأسماء التي تشكل جغرافية العديد من المناطق لم تأتِ صدفة، وكأن الشاعر يقصد توثيق هذه الأماكن قصداً، انطلاقاً من دور الشاعر وهو التوثيق.

ومن أمثلة ذلك قصيدة تأملية يبوح فيها بخواطره حول الكون

والحياة، في أسلوب يتسم بالحكمة، ويذكر فيها أماكن ومواضع عديدة، وتتضمن هذه القصيدة وعدد أبياتها 74 بيتاً 23 موقعاً ومكاناً في الإمارات، وهو أسلوب تميز به الشاعر وتبعه في ذلك كثيرون، يبدؤها الشاعر قصيدته بالتالي:

(يقول المايدي أبيات شعرٍ
يدادْ الجيل عدْلاتْ المباني
مداراةٍ تكن للعارفين
عروف الجيل فطْنٍ في المعاني)[10]

وبعد ذلك يدعو الشاعر بسقوط المطر لدار ريان الشباب، فيقول:

(سقا الله داررِيّانْ الشباب
من الغيم الهميم المسفهاني
أغرْ المزنْ مسْودْ الحيابْ
وتسمع رعْدها م الْبعدْ داني)[11]

ثم يذكر العديد من المناطق التي يتمنى سقوط المطر فيها فيقول:

(ورويتْ الأرض من شرقٍ وغربْ
وأسْقتْ كلّما حازتْ «أعماني»
من «فْيويْ» «الينوبْ» إلى الشّمال
من «الظّفْره» إلى «سيفة إدهاني»
وروي الرّمل مع «سيْح الغريف»
ووادي الْمكن داناه المداني
على «نزْوهْ» وما حاز الهباب
ووادي الجرن واسقانا زماني
على الصجْعه وما حاز العشوش
على البطحاء وتمّت روهجان
وأسقت من «فلاحْ» إلى العذيب
مجوجْ الماء ثمانٍ في ثماني
على رمْل «الحويمي» و«الغدير»
وسيح الْيلْح مخْضّر المثاني
على تاهل وعثمر والغويل
على «وادي سلام» و«سيهجاني»
إلى كفًا وما حازْ «الخرير»
مشرّجةٍ تبا حيْل «الدباني»
على «المزْرع» وخطّا والهزوع
مهايفةٍ إلى مرْيالْ ثاني
على «كلبا» وما حاز الجبال
من البلدان من قاصيْ أو داني)[12]

وأسماء المواضع في هذا المقطع: «عُماني» مسمى إقليم عُمان،

ويشمل الإمارات وسلطنة عُمان، حيث كانت الإمارات تسمى إمارات ساحل عُمان المتصالحة، و«فيوي» الفجوج جمع فج، وهو الواسع من الأرض، و«الينوب» الجنوب، و«الظفرة» بادية أبوظبي وتقع في جهة الجنوب منها وتمتد غرباً حتى الحدود السعودية، و«سيفة إدهاني» اسم منطقة في رأس الخيمة، و«سيح الغريف» يقع في إمارة الشارقة بين منطقتي الشويب والنديد، و«نزوهْ» منطقة في بادية الشارقة، وتقع شرق منطقة العوير، و«الهباب» منطقة في دبي تقع جنوب غرب نزوة، و«وادي الجرن» وادي العوير في دبي، و«الصجعه» طوي في الشارقة، و«العشوش» منطقة غرب طوي الفقع، و«العشيش» منطقة في إمارة رأس الخيمة، و«البطحاء» وتسمى حالياً بطحاء آل علي في أم القوين، و«فلاح» طوي في إمارة الشارقة، و«العذيب» طوي في إمارة أم القوين، و«الحويمي» شمال منطقة بياته في إمارة أم القوين، و«تاهل» طوي في الشارقة، و«الغويل» طوي في أم القوين، و«وادي سلام» منطقة في بادية رأس الخيمة يقع شمال المزرع، و«سيهجاني»، ويسمى سيهياني، طوي شمال وادي سلام، و«الخرير» منطقة الخرّان في رأس الخيمة، و«البرير» منخفض في الرمال الواقعة شرق طوي حريمله وجنوب غرب منطقة الخريّجة في بادية رأس الخيمة، و«الدباني» نسبة إلى منطقة دبا، ويطلق على ساكنها الدباني، و«المزرع» منطقة في رأس الخيمة تقع جنوب شرق الجزيرة الحمراء، و«خطا» منطقة تقع جنوب شرق المزرع في إمارة رأس الخيمة، و«الهزوع» الرمال الواقعة غرب منطقة الحمرانية في إمارة رأس الخيمة، و«كلبا» مدينة تقع على الساحل الشرقي من إمارة الشارقة.

أمطار بن مترف الجابري

يلاحظ في الشعر الشعبي أن ذكر المواضع والأماكن عادة اتبعها الشعراء عند الدعاء بالمطر، ومنهم خليفة ابن مترف الجابري في قصيدته «رحلة الأمطار» التي يتمنى فيها سقوط الأمطار.

يقول الشاعر :

(البارحه نومي مجدّد حرايبه
هيّض امّا من بارقٍ في سحَايْبه)[13]

ولا يكتفي الشاعر بتمني سقوط المطر بشكل عام، ولكنه يجتهد لذكر أكبر عدد من هذه الأماكن، فيذكر في قصيدته التي تتكون من 120 بيتاً أكثر من 60 موضعاً في الإمارات، وهو بذلك يفوق المايدي بن ظاهر الذي ذكر 21 موضعاً في قصيدة تتكون من 74 بيتاً.

يقول خليفة بن مترف الجابري:

(من «الفجيره» لين «جلفار» يازم
راعي الرحايل ما يقيّد ركايبه
اطلاق في عشبٍ تهاياه جنّه
زرعٍ وسقّايه يرضّف شرايبه
يعمّها م «الرمس» لين الجزيرة
وينوب عَ ذْيار الخواطر صبايبه
ع «الساعدي» يعله يسوّي مخايل
دار المعزّه وين القلوب طايبه
ويسند على «اللبسه» و «لقرن» بيوده
وعلى «بياته» ينسفنّه سوايبه
وعلى «الفَلَيْ» و«النديد» يبطي هميله
يْلين وديانه تْسوّي نحايبه
وشرّق على «كلبا» وذيك المحاضر
«وادي وسام» اللّي عذيّه هبايبه)[14]

والمواضع في هذا المقطع هي: «الفجيره»، إمارة الفجيرة، و«جلفار» وهي واحدة من أقدم المدن في رأس الخيمة، و«الرمس» منطقة تقع في إمارة رأس الخيمة، و«الجزيرة» في إمارة رأس الخيمة، و«الساعدي» منطقة في رأس الخيمة، و«اللبسه» منطقة في أم القوين، و«بياته» إحدى مناطق فلج المعلا في إمارة أم القيوين، و«الفَلَيْ» منطقة في الشارقة، و«النديد» مدينة في الشارقة، و«كلبا» مدينة في الشارقة، و«وادي وسام» في مدينة كلباء . وهكذا وثق تراث الشعر العربي الأماكن والمواضع، كما نجح في توثيق مظاهر البيئة والحياة اليومية للإنسان العربي في العصور الأدبية والاجتماعية المختلفة، ويمكن عن طريق هذا التراث، والمناظرة والمقارنة بين المصادر الأخرى وضع خريطة جغرافية للأسماء وأصولها اللغوية والاجتماعية، ومراحل تطورها على ألسنة السكان، وهو ما يمنحنا المزيد من الفهم لهذه المجتمعات في عصورها المختلفة ■

* صحفي وباحث مصري

الهوامش والمصادر

1. ديوان عنتره بن شداد، موقع الديوان: www.aldiwan.net.
2. ديوان نسيم الخليج «علي بن رحمه الشامسي»، د. راشد المزروعي، نادي تراث الإمارات، أبوظبي 2010.
3. ديوان الجمري «سالم بن محمد الجمري العميمي»، إعداد وتحقيق د. راشد أحمد المزروعي، نادي تراث الإمارات، مركززايد للدراسات والبحوث، الطبعة الثانية، 2013.
4. المصدر السابق نفسه.
5. المصدر السابق نفسه.
6. المصدر السابق نفسه.
7. المصدر السابق نفسه.
8. المصدر السابق نفسه.
9. ديوان الدهماني «سالم بن سعيد الدهماني»، د. راشد أحمد المزروعي، نادي تراث الإمارات، مركززايد للبحوث والدراسات، أبوظبي 2007.
10. شرح قصائد شاعر الخليج المايدي بن ظاهر، د. حماد الخاطري النعيمي، معهد الشارقة للتراث، 2022.
11. المصدر السابق نفسه.
12. المصدر السابق نفسه.
13. ديوان ابن مترف «خليفة بن مترف الجابري»، د. راشد أحمد المزروعي، نادي تراث الإمارات، مركززايد للدراسات والبحوث، أبوظبي 2008.
14. المصدر السابق نفسه.

في رحاب الإمارات..

الأرشيف والمكتبة الوطنية يسهم في توثيق أسماء الأماكن

جمال مشاعل

حين احتفل الأرشيف والمكتبة الوطنية عام 2008 بالذكرى الأربعين لتأسيسهما عقدا مؤتمراً دولياً في تلك المناسبة بعنوان: «مفاهيم جديدة في تدوين تاريخ الإمارات العربية المتحدة»، وقد غطت البحوث موضوعات تتعلق بتاريخ الإمارات وتراثها، وفي ذلك المؤتمر قدم الدكتور حسن النابودة بحثاً بعنوان: «مواضع وأمكنة من الإمارات في المصادر العربية الأولى»، ويشير البحث إلى أن ما كتبه الرحالة الإيطالي بالبي حين زار منطقة الخليج عام 1580م، من أقدم ما وصل من معلومات عن أسماء المدن والمناطق الواقعة على الساحل العربي للخليج، وقد ذكر أسماء جميع الإمارات، وعدداً من المدن والمناطق.

ويعود الدكتور النابودة إلى القرن الخامس عشر الميلادي الذي شهد ظهور أحد أشهر الملاحين العرب أحمد بن ماجد الذي بلغت شهرته الآفاق، وقد كشفت أشعاره وأراجيزه وقصائده حقائق تاريخية كثيرة منها ذكر أسماء بعض الإمارات الشمالية وهي: رأس الخيمة، الشارقة، أم القيوين، عجمان، وذلك في إحدى قصائده التي يقول فيها:

كـــذاك مـــن طنب لنحـــو الشارقـــة
هـــذي المطالـــق ياهمام صادقـــة
أم القويـــــرة فلهـــا علـى السُّهيـــل
فـي شرقـــه من طنـــب بالليـــل
ومـــن جـرى أيضـــاً لرأس الخيمـــة
والصّيـــر في الإكليـــل بالعزيمـــة

وهذا ما يؤكد أن هذه المدن كانت موجودة بأسمائها الحالية قبل قدوم البرتغاليين إلى المنطقة، ولولا أهميتها وشهرتها ما ورد ذكرها في قصيدة أحمد بن ماجد.

وذكر بالبي في قائمته: دلما وصير بني ياس وجبل الظنة وخور قرقشان، «خور في الجنوب الغربي لجزيرة أبوظبي»، وقد يكون ذلك أقدم إشارة إلى أبوظبي ضمن قائمة الأماكن المشهورة حينذاك. وعن اسم دبي يقول النابودة: ذكر اسم دبي في أحد الأمثلة العربية القديمة، وهو (جاء بدبا دبي) ويفسره ابن منظور في لسان العرب بقوله: يقال ذلك في موضع الكثرة والخير والمال الكثير، وورد ذكر اسم دبي في قائمة بالبي؛ وذلك لاشتهارها باللؤلؤ، وتعد هذه أقدم إشارة صريحة وواضحة لمدينة دبي.

وأما اسم الشارقة فربما يكون قد غلب الاسم القديم للمدينة، مع أن أحمد بن ماجد ذكر اسمها، وذكرها بالبي، وقد كانت مأهولة بالسكان في القرن الثامن عشر وفق التقارير الهولندية، وكان يحكمها القواسم حينذاك.

أما رأس الخيمة فهو اسم مركب يدل على موضع جغرافي كجبل شبيه بالخيمة مثلاً، أو خيمة كبيرة، واسمها القديم «جلفار»، وذكرها في أشعار ابن ماجد يدل على ازدهارها في ذلك العصر، وفيها قال:

رعى اللـــه جلفـــاراً ومن قد نشأ بهـــا
وأسقـــى قراها واكـــف متتـــابع

ويتطرق البحث إلى باقي أسماء إمارات الدولة، والعديد من مدنها وجزرها.

أبوظبي في معجم الأماكن

وفي كتاب (معجم الأماكن في شعر أهل الظفرة) الذي أصدره الأرشيف والمكتبة الوطنية لمؤلفه علي أحمد الكندي المرر، ورد أن أهل المنطقة عرفوا جزيرة أبوظبي قديماً، وسكنوها في مواسم صيد اللؤلؤ، وقد رأى تاجر الجواهر البندقي غاسبارو بالبي بعض التجمعات السكنية فيها عندما مر بها سنة 1580م.

وقد قال ب.ج. سلوت في كتابه (عرب الخليج): إن في كتاب بالبي

قائمة بأسماء الأماكن التي يوجد فيها اللؤلؤ، ومن الأماكن التي مر عليها بالبي وذكرها في كتابه: (قرقشان) وهو اسم خور في الجنوب الغربي من جزيرة أبوظبي. ويواصل المرر في كتابه: كان يطلق على جزيرة أبوظبي قديماً اسم (مليح) ربما بسبب أرضها الملحية، إضافة إلى اسم آخر هو جزيرة الظباء أو الغزلان، وجاءت إشارة في الوثائق البرتغالية سنة 1621م بأن هذه الجزيرة كانت معروفة لدى سكان الساحل بهذين الاسمين.

الساحل.. الاسم القديم لدولة الإمارات

وبالعودة إلى مؤتمر «مفاهيم جديدة في تدوين تاريخ الإمارات العربية المتحدة» فقد شارك فيه الباحث الدكتور عبد العزيز مسلم ببحث عنوانه: (الساحل.. الاسم القديم لدولة الإمارات العربية المتحدة) وفيه يشير الباحث إلى أن أهم أسباب تسمية الإمارات قديماً باسم (الساحل) هو وقوع جلّ مساحتها على ساحل طويل يقدر بنحو 700 كيلومتر، ولأن أهم المدن كانت ساحلية تمتد بامتداد الساحل، ويحدها سور منيع ليحصرها على الساحل بما يؤكد غلبة هذا الاسم عليها.

وقد تكرّر ذكر اسم (الساحل) عند الرحالة والمستكشفين الذين زاروا المنطقة أو مروا بها مروراً فوصفوها، وكان من ضمن ما ساروا إليه في وصفهم تسمية المنطقة باسم (الساحل) مجرداً أو بإضافة صفة له، وذلك ما ورد في كتابات كل من: الحاج عبد الله وليمسن، وتشارلز بالجريف، وألبير لوندر، وجيمس موبرديك، وجون س وليكنسون... وغيرهم.

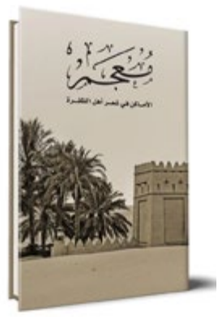

معجم أسماء الأماكن والمواقع في دولة الإمارات.. توثيق لأسماء الأماكن ووصفها

ولعل الإصدار الأكبر عن الأرشيف والمكتبة الوطنية «معجم أسماء الأماكن والمواقع في دولة الإمارات العربية المتحدة» الذي يوثق - في ثلاثة مجلدات - أسماء الكثير من الأماكن والمواقع الجغرافية المختلفة في دولة الإمارات العربية المتحدة؛ من مدن وقرى، وسهول وجبال، وجزر ومغاصات، ومحاضر وشعبيات، ومساجد وبيوت أثرية، وآبار وسدود، وموانئ وأخوار. وكمثال على ما يوثقه هذا المعجم بخصوص أسماء الأماكن مدينة خورفكان التي يصفها بأنها مدينة تاريخية على الساحل الشرقي لدولة الإمارات، ذكرها ياقوت الحموي، وابن بطوطة في عام 1350م، وقال عنها ألبوكيركة البرتغالي: ميناء على سطح جبلي عالٍ، ومحصن طبيعياً عند الساحل من الجانب البري؛ هي بلدة كبيرة تربى فيها الخيول التي تُصدّر إلى الهند، وهي تشتهر بأشجار البرتقال والليمون، والأترج والتين، والنخيل وبها عيون ماء عذبة. ويذكر سلوت في كتابه «عرب الخليج» أنه في خور فكان ينتهي الشاطئ الرملي الذي يبدأ عند رأس دبا؛ لأن جبلاً صخرياً يقبع جنوب خورفكان ويصل إلى كلباء.

وكان الهولنديون قد زاروا المكان سنة 1666، وذكرها القنصل البريطاني مايلز في كتابه «الخليج: بلدانه وقبائله»؛ إذ يقول عنها في نهايات القرن التاسع عشر: كانت لخورفكان أهمية عظيمة في الماضي، غير أنها لم تستعد تلك الأهمية بعدما أمر ألبوكيركة بتدميرها سنة 1507 ...، وهذا قليل من كثير أورده المعجم عن خورفكان وتاريخها ومعالمها ■

* كاتب وصحفي مقيم في الإمارات

التراث الجغرافي الوصفي وأرض السبخة (بندر أبوظبي)

مابين ابن خرداذبة والإدريسي

حسن صالح محمد

ارتبط ظهور الأدب الجغرافي العربي وهو ما عُرف بالوصف الجغرافي، وهو تراث سردي عربي، بانتشار الإسلام في الأقطار والبلدان، التي شكّلت فيما بعد الخلافة الإسلامية. وأضحى هذا التراث السردي غنياً بالنصوص التي كتبها أدباء، وفقهاء، وعلماء لغة، وجغرافيون، وبحارة، ورجال من عامة الناس؛ استهوتهم الأسفار، وحب المغامرة، والشوق إلى البقاع المقدسة، وطلب العلم، والتعرف على أقاليم الدولة الإسلامية. كما تمكّن حب الارتحال من نفوسهم، وشكّل لهم شغفاً محفزاً على السفر والرحلة. وارتبطت نصوص الأدب الجغرافي بجميع أنماطها؛ ابتداءً من «نمط الفضائل ونمط المسالك والممالك»، إلى نمط المعاجم الجغرافية ونمط الرحلات، ارتباطاً وثيقاً بالجغرافيا بما تمثله من سيرة للإنسان والمكان. ويمكننا القول إن الأدب الجغرافي لم يشكل إطاراً مغايراً لأدب الرحلة، والجغرافيا الوصفية، وأدب المسالك والممالك، كما شاع لدى الدارسين؛ بل على العكس من ذلك، كان رَحِماً توالدت فيه كل هذه الأنواع، وشكّلت بذلك أنماطه الأساسية، التي أدى تطورها على مدى التاريخ إلى إنتاج نصوص مثلت علامات فارقة في الأدب العربي، وفي الأدب العالمي على السواء.

ففي أوج ازدهار الخلافة العباسية، نشأت مصنفات «المسالك والممالك» على يد عدد من المصنفين مما ذكرنا إضافة إلى كتّاب الدواوين الذين كانت تتجمع بين أيديهم معطيات كثيرة عن الطرق والمسالك والخراج والواردات والنفقات، وأسماء المواضع. وكان فاتحة هذا العلم كتاب ابن خرداذبة «المسالك والممالك» الذي وضعه سنة 232 هجرية (846م) بعد أن تولى البريد والأخبار في «بلاد الجبل» في عهد المعتمد العباسي. وقد تطورت إلى أن بلغت ذروتها في العصر المملوكي بموسوعة «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» لابن فضل الله العمري المتوفى سنة 749 هجرية (1338م)، واختتمت بكتاب «زبدة كشف الممالك في بيان الطرق والمسالك» لخليل بن شاهين الظاهري المتوفى سنة 873 هجرية (1468م)، الذي يعد آخر المصنفات العربية الإسلامية. وبين كتاب ابن خرداذبة وكتاب الظاهري، ظهرت مؤلفات كثيرة تحمل الاسم نفسه، أي «المسالك والممالك» أو شيئاً قريباً من ذلك، مثل كتاب الجيهاني وابن حوقل والإصطخري والبكري وغيرهم.

وإذا أردنا أن نتتبع نشوء وظهور هذه المصنفات وتأريخها فإننا سنبدأ منذ أن اتسعت رقعة العالم الإسلامي حيث وجد الخلفاء والحكام ضرورة إيفاد مبعوثين وسفراء إلى الأراضي المختلفة لتعيين ممثلين لهم فيها في بعض الأوقات، وكذلك لدراسة أحوالها والتعرف على طبائع السكان وبيان الطرق والمسالك

المؤدية إليها، أو التعرف على البلاد التي فتحت صلحاً أو عنوةً أو أماناً لتحديد نوع ومقدار الخراج الواجب فرضه على كل مصر من تلكم الأمصار. والحقيقة فإننا نجد أن هذا التصرف كان يأتي ضمن اهتمام العرب بشؤون البلدان والدول والشعوب التي انضوت تحت رايتهم أيضاً، إلى جانب الاهتمام بتعيين محطات القوافل على طريق الحج ودروب التجارة. وبالتدريج أصبحت كل المعلومات التي بدأت تتجمع شيئاً فشيئاً منذ القرنين الثالث والرابع الهجريين إلى بداية ظهور مدونات جغرافية تختص بشرح وتبيان مواقع هذه الممالك والأقاليم وهو ما عُرِفَ بالمصادر البلدانية وكتب المسالك والممالك، أي الكتب التي اهتم أصحابها بالنهوض بالتراث الجغرافي الوصفي، المعتمد بالأساس على الرحلة والزيارات لتلك الديار وجمع معلومات عنها وتدوين مشاهدات وملاحظات مباشرة. فهذه المصادر كان لمادتها ومنهجها أثره المباشر في أن تشكّل عوناً وسنداً لمن يريد الوصول لتلك البقاع والتعرف عليها. كذلك فقد قدمت تلك المصادر المساعدة للباحثين عن الجوانب التاريخية المعززة بالمشاهدة والأدلة وبالتالي أضحت من أهم المصادر لكافة الباحثين في حقلي الجغرافية والتاريخ.

لقد تراوح اهتمام أصحاب تلكم المصادر بتسجيل الأوصاف الطبيعية والجغرافية كالتضاريس والسباخ والأنهار والبحار والمناخ، ودراسة الأوضاع الاقتصادية من المحاصيل الزراعية والمنتجات الحرفية والمبادلات التجارية والطرق والمكاييل والأوزان والعملات والأسعار، هذا إضافة إلى دراسة الخصائص الجسدية والذهنية للسكان وعاداتهم وتقاليدهم. أضف إلى ذلك

صورة تخيلية للخليفة العباسي

تطرقها إلى عرض نبذ وجوانب من الحياة الاجتماعية وأنشطة السكان، وقد تولّدت عنها مصنفاتٍ وكتباً تناولت فيما بعد الجوانب السياسية والسكانية.

ومن دون شكٍ أن كتب البلدان والمسالك والممالك خدمت الأغراض الإدارية للخلافة الإسلامية، فاستفاد منها الحكام والتجار بالدرجة الأولى، وكانت جغرافيتهم جغرافيا نفعية أساساً، فقد غطّت في بعضٍ منها نواح عديدة كونها قدمت أحياناً بحسب شاكر خصباك[1]، وصفاً للمدن قدر الإمكان مع نبذة عن تاريخها ومن بناها ومن سكنها وأهم الآثار فيها. ووصفاً لطرق المواصلات من حيث اتجاهاتها وطوبوغرافيتها والمدن التي تقع عليها والأبعاد بين تلك المدن ومدى درجة الأمن فيها. والاهتمام بدرجة أقل بوصف الظواهر الطوبوغرافية والتركيز بصورة أخص على مجاري المياه أيضاً، والأنهار والوديان والبحار والبحيرات، والاهتمام بدرجة أقل بذكر الصناعات والزراعات والمعادن والأحوال الاقتصادية.

وكذلك سرد المعلومات التاريخية المتعلقة بالبلدان والمدن وحكامها، وبعض المعلومات التاريخية كالحديث عن سكان البلاد ودياناتهم ومذاهبهم وعاداتهم وتقاليدهم. وذكرنا أن أهم من برز في هذا المجال وخلّف كتباً رائدة ركزت اهتمامها بطرق المواصلات وبالمدن الرئيسية في أقطار العالم الإسلامي وبمقدار خراجها وغلاتها، ويأتي على رأسهم كتاب «المسالك والممالك» لابن خرداذبة ت سنة272هـ/885م، و«كتاب البلدان» لليعقوبي ت سنة 284هـ/897م، و«مختصر كتاب البلدان» لابن الفقيه الهمذاني في القرن 03هـ/10م، و«مسالك الممالك» للإصطخري ت سنة 340هـ/951م، وكتاب «صورة الأرض» لابن حوقل ت سنة 367هـ/977م، و«أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» للمقدسي ت سنة 390هـ/1000م، و«المسالك والممالك» للبكري ت سنة 487هـ/1094م، وغيرهم. وأولئك كانوا من أهم الجغرافيين الوصفيين منذ منتصف القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجريين، الذين أولوا الاهتمام بطرق المواصلات والمدن، كالاهتمام بالمعالم الطبيعية والأحوال الاقتصادية والاجتماعية للسكان، حتى برز ما يعرف بكتب الجغرافية الإقليمية وأفضل الأمثلة عليها كتاب «المسالك والممالك» للإصطخري، وكتاب «صورة الأرض» لابن حوقل، وكتاب «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» للمقدسي، وكتاب «المسالك والممالك» للبكري[2].

فالمصنفات البلدانية أو كتب المسالك والممالك بأنواعها المتعددة مثلت الأساس الذي قامت عليه كتب الجغرافيا العربية، حيث اتخذ أصحابها أسلوب المشاهدة والمعاينة والدراسة الشخصية للبلدان والأقاليم التي كتبوا عنها، متبعين في ذلك المنهج الوصفي[3]. أو منهج الجغرافيا الوصفية الذي قال عنه «كراتشوفسكي»: «هو الذي يسترعي النظر بغزارة مادته وهو الذي يغلب على الأدب الجغرافي العربي ويسبغ عليه طابعه المميز، ويعطيه شكله الخاص به مما يصعب إيجاد مثيل له في آداب الأمم الأخرى»[4].

فمنهج الجغرافيا الوصفية هذا، كان له ارتباط وثيق بظاهرة الرحلة التي بدأت تنتشر منذ عهد مبكر من العصر الوسيط بين المسلمين، سواء بغرض الحج أو طلب العلم أو التجارة أو الاستكشاف، وذلك بسبب شيوع الأمن والاستقرار في الدولة الإسلامية، ما ساعد على تجمع المعارف الجغرافية[5]، حيث قامت الرحلة بتوجيه الكشف الجغرافي في الاتجاه السليم، وزودته بالمعرفة الجغرافية الطازجة[6] وهذا معناه أن البلدانيين والجغرافيين المسلمين لم يعتمدوا في كتاباتهم على مجرد النقل وترجمة كتب الجغرافيا القديمة، بل تجلى واضحاً الاجتهاد الشخصي، بعد أن حققت لهم الرحلة فرصة الدراسة الميدانية في المكان، ومعايشة خصائصه الطبيعية والبشرية (وكانت الطريقة التي اتبعها أكثر البلدانيين العرب والمسلمين هو تقسيم المنطقة المدروسة إلى مناطق أو أقاليم وتحديد موقعها بالنسبة إلى العالم المعمور، ثم ذكر أهم المظاهر التضاريسية في كل إقليم على حدة، ثم التعرض بعد ذلك لدراسة المدن المهمة وأوجه النشاط المختلفة التي يمارسها السكان وحياتهم الاجتماعية، والإنتاج النباتي والحيواني والمعدني للإقليم[7].

وفي كتاب لنا قيد الطبع بعنوان (نفض الغبار عن أم النار)، وهو كتاب يتناول تاريخ أبوظبي منذ ما قبل الألف الثالث ق.م حتى القرن السابع الميلادي، حيث الكنائس المسيحية في صير بني ياس وأم القيوين، فإننا رصدنا ما دوّنه الجغرافيون والبلدانيون العرب المسلمون عن هذه المنطقة، وقارنا بينهم وبين الرحالة الأجانب الذين أثروا هذا الجانب البحثي وأضافوا إليه معلومات غنية، ولا وقت هنا للتطرق لما ذكرناه بكتابنا في تلك المضاهاة لأن معه سيطول بنا السرد عما وجدناه من خيوطٍ تتبعناها وقارناها بعناية.

أرض ساحل الإمارات

بسبب العمق التاريخي لأرض ساحل الإمارات، التي لم يكتشف أحد من المكتشفين مداها عن قرب فإننا نقر بأن أولى الإشارات عن الخليج العربي جاءت من قبل الميلاد من قبل المؤرخ هيرودتس (Herodot) في حدود (480 - 425ق. م). أما كتابات الجغرافيين والبلدانيين والرحالة العرب فهي متأخرة حيث بدأت بالصدور مع بداية القرن التاسع الميلادي، وهي لا تقل أهمية عن كتابات الرحالة والجغرافيين اليونان والرومان، ومما كتب عن البحار الشرقية والخليج العربي، كتاب «أخبار الصين والهند» الذي يعود إلى أواسط القرن التاسع للميلاد، ووضعه «سليمان

التاجر» وأضاف إليه «أبو زيد السيرافي» بعض المعلومات التي تخص طبيعة هذه البحار وأمواجها وأمطار سواحلها والرياح المصاحبة لها. وبرأينا أن كتابات البلدانيين من العرب تأتي في المرتبة التالية لما حازه اليونانيون والرومانيون، من سبقٍ.

وللإنصاف نقول إن اليونانيين والرومانيين قد سبقوا أعمال وكتابات البلدانيين من العرب، التي بدأت في وصف المنطقة منذ القرن الثالث الهجري تقريباً، أي التاسع الميلادي.

وهم بذلك لم يشهدوا ولم يتحصلوا على معلومات وأخبار عن العهود القديمة قبل الميلاد، ولم يتوفر لديهم ما لدى المؤرخين والجغرافيين الأجانب الذين جابوا الأرض وسجلوا بأنفسهم، بدءاً من هيردتس. وتقارير (إسترابو وبطليموس وبليني). فما قام به «نيارخس»، وأمراء بحر أغارقة آخرون عملوا تحت إمرة الإسكندر الكبير، وخلفائه السلوقيين من محاولات جمع معلومات دقيقة عن سواحل الخليج العربي وعن مياهه كانت محاولة ولم تكتمل حقيقة. ما يعتبره بعضهم محاولات لبداية دراسة الخليج العلمية الحديثة.

بندر أبوظبي وتوام وبينونة

فمما قدمتها كتابات الجغرافيين العرب، أنهم ذكروا نهراً كان يجري عند جلفار، ونعتقد نحن بأنه من بقايا تأثيرات فترات المناخ المتقطعة إلا أن المُعلِمَين العربيين الشهيرَين: ابن ماجد (المتوفى قرابة 1500 م) وسليمان المهري (المتوفى قرابة 1553م) وصنفا أعمالهما الملاحية الرائعة عن السواحل، والبنادر، والمدّ والجزر، وأحوال منطقة الخليج العامة، وتزايدت الكتابات تزايداً ملحوظاً بعد ذلك فقد وصف ابن ماجد أبوظبي بـ «بندر أبوظبي».

ونعتقد قلة تفاصيل جولات البلدانيين من الجغرافيين، أن جولاتهم ورحلاتهم تزامنت مع ظروف وأحداث شهدت فيه منطقة الخليج، عبث القرامطة وتهديداتهم. ومع كلٍ فقد أصبح لهذه الأرض التي تشكل جزءاً من الساحل الشرقي لشبه الجزيرة العربية عدداً من المسميات والأوصاف في كتابات البلدانيين العرب، ومنها وصف أرض أبوظبي بـ «السبخة» ودارت أوصافهم حولها، فقد أطلق عليها هذا الوصف «ابن خرداذبة». في القرن 3 هـ / 9 م، حيث كان (عاملاً لبريد العباسيين)، وكان مهتماً بوصف المسالك والطرق بحكم عمله في نقل البريد، فدوّن معلومات مهمة عن أرض الإمارات فوصف «بينونة» التي في المنطقة الغربية لإمارة أبوظبي، وفي وصفه للطريق البحري ذكر «السبخة» وقال: فيها كان يتم صيد الأيائل والثيران.

- كذلك «قدامة بن جعفر» في القرن 4 هـ / 10م. وأن الطريق البري يمر بها ما بين البصرة وعُمان، لكنه لم يذكر مراكز الاستقرار فيها ...و في القرن 6 هـ / 12م نجد تحديد أرض «السبخة» أكثر وضوحاً وتحديداً في كتاب الشريف الإدريسي «أنس المُهج» وهو يصف الطريق بين عُمان والبحرين بقوله: «على الساحل من صحار إلى الجبل إلى جلفار إلى السبخة إلى قطر إلى العقير إلى ساحل هجر، وهذه البلاد والمراسي مسافات من عُمان إلى البحرين اثنتي عشرة مرحلة».

فالسبخة إذن أرض متوسطة تمتد ما بين جلفار وقطر. أما في كتاب الإدريسي المهم الآخر «نزهة المشتاق» فيظهر لنا مرسى السبخة، يقول عنه : «ومن جلفار وأنت نازل إلى البحرين تصير إلى مرسى السبخة». وهنا نستطيع الافتراض بأن كثرة استخدام الطريق البحري، ما بين البصرة وعُمان بعد القرن 4هـ/ 10م كان

المسؤول عن ظهور ميناء السبخة في أرض الإمارات ليكسبها أهميتها الاستراتيجية في المجال البحري. ولعل ما يدعم رأينا ما قاله الإصطخري وابن حوقل في القرن 4هـ/ 10م عن الطريق البري بين عُمان والبحرين بأنه طريق شاق يصعب سلوكه لتمانع العرب وتنازعهم فيما بينهم.

وفي القرن 5 هـ/ 11 م يؤكد البكري أن الطريق البري بين البحرين وعُمان «ركبه الرمل، فأما الطريق اليوم في عُمان البحر» واستمر الطريق البحري هو المستعمل المفضل ويسلك ما بين البحرين وعُمان فيما بعد القرن 5 هـ / 11م(6). إذن أهمية الطريق البري عبر أرض السبخة فقد أهميته الاستراتيجية لصالح الطريق البحري الذي يمر بمياه وموانئ الإمارات أيضاً، بسبب مشكلات طبيعية وهي الرمال؛ ونعزو السبب الآخر للنزاعات و الصراعات القبلية (ونذهب إلى أن النزاعات السياسية نشبت بسبب سلطة القرامطة في البحرين القريبة، ما سبب خوف التجاروالمسافرين عبر هذا الطريق في القرن 4 هـ/10م).

مشكلة الرمال

ولا بد لنا من وقفة على مشكلة الرمال التي تميز مناطق السباخ الساحلية والداخلية في أرض الإمارات وبلاد البحرين أيضاً، والتي غدت مشكلة كبيرة أثّرت على مناطق ومراكز الاستقرار في تلك الأرض، وحاول ساكنوها التغلب عليها بإيجاد وسائل تخفف من وطأة هذه الرمال لاسيما الكثبان الرملية. ولعل خير من فصل في ذلك من البلدانيين «البكري» وتبعه « الحميري» وأظهر لنا كيف أن الكثبان الرملية كانت سكة بسعف النخيل للتخفيف من أضرار تحولها ودفنها لمنازلهم .. وإذا عجزوا عن ذلك انتقلوا إلى مواضع أخرى. وهكذا تحكمت بمراكز الاستقرار في أرض الإمارات. وتُحدثنا كتبهم عن بينونة، فجاء ذكرها أول مرة فيما دوّنه ابن خرداذبة في القرن 3 هـ/ 9 م في تعداده لمدن البحرين وهي عنده: الخط والقطيف والدرة وهجر والفروق وبينونة كما أكد ابن الفقيه الهمداني، في القرن نفسه، على أن بينونة هي من مدن بلاد البحرين. وقد وصف «الإدريسي» ساحل الإمارات بمرسى السبخة، الذي هو ما بين البحرين، وجلفار، وأشار إلى السبخة بأنها أبوظبي وأن في بحرها عدة جزائر، يأوي إليها أجناس من الطير البحري والبري فيجتمع بها من زبولها المقادير الكثيرة، فيبيعونها بالثمن الكثير، ويصف مواسم السفر بالسفن والمراكب ونعتقد بأنها مراكب الغواصين الباحثين عن اللؤلؤ.

وشرقاً حيث تستقر الجَوّ، التي هي تُؤام هي الجوّ وهي البريمي)، وإذا أضفنا بينونة فيمكن تحديد كل تلك البقعة في إطار الحدود الغربية لإقليم عُمان بشكل عام بالربع الخالي، وهو حد طبيعي فاصل لهذا الإقليم ما بين الإمارات الحالية من جهة الغرب وسلطنة عُمان في الجنوب الشرقي، لذا فهو بهذه الحالة يمثل فاصلاً طبيعياً قوياً بين شمال غرب عُمان والوسط والشمال الشرقي لشبه الجزيرة العربية. إذن تؤام: هي المناطق الداخلية من أرض الإمارات وتشمل العين والبريمي، وهي أرض واحات استخدمت الأفلاج من أجل الزراعة، ولذا شهدت استقراراً بشرياً. وعنها يقول» المقدسي ت هـ /10م»: تؤام قد غلب عليها قوم من قريش فهم بأس وشدة. وجاء في وصفها أنها قصبة داخلية لإقليم عُمان مثلما عُرِفت أنها مدن ساحلية كدبا وجلفار. فتؤام هي جزء من أرض الإمارات وإمارة أبوظبي التي اكتسبت أهميتها بوصفها مركز استقرار بشري مهماً وعليه أشار «الزمخشري» إلى وجود بينونة بين البحرين وعُمان، وأكد ذلك ياقوت الحموي في إحدى رواياته أيضاً.

وذكر «البكري» أن موقعها بين عُمان والبحرين. فأهمية موقع البريمي/ تُؤام تكمن في أنها كانت (ملتقى الطرق القادمة من ساحل الباطنة عبر وادي الجزي والمتجهة إلى إقليم السر) الظاهرة (وإقليم الجوف) الداخلية (جنوباً، أو المتجهة من السر والجوف إلى بينونة) ليوا (أو المتجهة من تُؤام) البريمي (إلى إقليم الصير والساحل الغربي للخليج العربي والبحرين؛ وقد عدّ ابن قتيبة، وآخرون تُؤام عاصمة للأقاليم الساحلية في إقليم عُمان).

ومن المعلوم أن بينونة التي تقع في غرب إمارة أبوظبي الحالية، يوجد فيها قدر كاف من الماء والنبات لإقامة مجتمع سكاني، كما يبدو ذلك واضحاً في ليوا، التي تغير اسمها في المدونات التاريخية مع مطلع القرن السابع عشر إلى ليوا. كأهم منطقة استيطان في جنوب وسط إقليم الظفرة في المنطقة الغربية من إمارة أبوظبي. فبينونة تسمية أطلقت على أرض تقع وسطاً بين عُمان والبحرين، ومن موقعها الوسط أخذت اسمها وهي بهذا الشكل تُشكل جزءاً من أرض الإمارات؛ بل ويذهب «ولكنسون: إلى أن بينونة ربما شملت كافة أراضي أبوظبي اليوم، لكنها تقلصت وأصبحت تُطلق على شريط صغير غرب أبوظبي، البحرين، عُمان. من الخليج العربي وما يقابلها في ساحله الشرقي (ساحل فارس).

وقد ذكر معجم ياقوت اسم موضع (طُريفة)، أي طريف في المنطقة الغربية لأبوظبي.

وفي وصفه للطريق الساحلي من عُمان إلى البحرين منازل هذا الطريق يذكر الإدريسي: من صحار ودبا إلى مسقط إلى الجبل إلى جلفار. وهاتان قريتان لهما مغايص اللؤلؤ، ثم يقول (ومن جلفار وأنت نازل إلى البحرين تصير إلى مرسى السبخة). وفي كتاب «أنس

المهج»، يقول الإدريسي «من صحار على الساحل إلى مدينة الجبل أقل من يوم ومنها إلى جلفار مثل ذلك ثم يكمل» من صحار إلى الجبل إلى جلفار إلى السبخة.

نهر الفلج يسقي أرض جلفار

وتحدث كل من الإدريسي وشيخ الربوة (شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي، المعروف بشيخ الربوة، (654 - 727هـ/ 1256 - 1327م) صاحب مخطوط: (نخبة الدهر في عجائب البر والبحر). عن النهر الذي يسقي أرض جلفار. فالإدريسي يشير إلى وجود مركزين للاستقرار على ضفتي «نهر الفلج» الذي ينحدر من جبال عُمان ويجري إلى جلفار ليصب أسفلها في البحر. وقد أكد شيخ الربوة ذلك بقوله: إن نهر الفلج يجري من جلفار ويصب في البحر. كذلك فقد أثبت العلماء أن نهراً كان يتدفق في غرب أبوظبي، ولكنه بحسب علماء الجيولوجيا كان خلال الزمن السحيق عندما كانت بيئة منطقة الإمارات بيئة سفانا استوائية شبيهة ببيئة شرق أفريقيا.

ويُعد أقدم وصف تفصيلي للطريق الساحلي يعود إلى ابن خرداذبة فهو كعامل بريد لبني العباس كان مهتماً بتتبع طريق البريد وطرق النقل والتجارة. ويبدو من وصفه الدقيق والتفصيلي لهذا الطريق، وإهماله لذكر طريق الجادة البري، يعود إلى أن هذا الطريق كان أيامه الطريق الرسمي للبريد العباسي إلى أرض الإمارات وفيه يبدأ ابن خرداذبة بوصف الطريق ومحطاته من البصرة في أرض العراق إلى السبخة (أبوظبي، بدولة الإمارات الحالية).

الطريق البري إلى إقليم عُمان

وفي وصف الطريق البرية إلى إقليم عُمان يقول ابن الفقيه: يسير الطريق إلى هجر أو ساحل هجر، والتي تبعد عن البصرة خمسة عشر يوماً على الإبل، ثم إلى العقير وبعدها قطر ثم إلى السبخة، وبعد أرض السبخة يصل الطريق إلى صحار في عُمان. والسبخة عند قدامة بن جعفر (في القرن 4 هـ 10م) أول المنازل للقادم من عُمان إلى البحرين في الطريق البري ما بين البصرة والبحرين وعُمان. وبذلك فأرض السبخة جزء من أرض الإمارات يمر بها الطريق البري القادم من البصرة ونستنتج، وفقاً لدراسة قدمها كل من صباح الشيخلي، طارق الحمداني بعنوان: الإمارات وما جاورها من البلدان في جذورها التاريخية في العصور الإسلامية والحديثة: بيروت، عام 2014. إن الظروف الطبيعية والسياسية أدت بتقادم الزمن إلى عزوف التجار عن استخدام الطرق البرية بين البحرين و(إقليم) عُمان سواء كانت ساحلية أم داخلية وإقبالهم على استخدام الطريق البحري بكثافة. وتقع منطقة السباخ في المنطقة الغربية من أبوظبي، ضمن ما يُعرف بمنطقة الربع الخالي، التي تعرف بأنها صحراء شاسعة تتألف من كثبان رملية وسهول الحصى الواقعة ما بين الكثبان والسبخات، وتحتل جزءاً كبيراً من النصف الجنوبي لشبه الجزيرة العربية ■

* باحث وكاتب من السودان

الهوامش والمراجع:

1. شاكر خصباك، الجغرافية عند العرب، دار المعارف للطباعة والنشر، تونس، 1986، ص 48 - 49.
2. المرجع السابق نفسه، ص 49 - 51.
3. المرجع السابق نفسه، ص 44 - 45.
4. أغناطيوس يوليانو فتشكراتشوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة: صلاح الدين عثمان هاشم، القسم الأول، منشورات جامعة الدول العربية، القاهرة، 1963، ص 18.
5. بشير رمضان التليسي، الاتجاهات الثقافية في بلاد الغرب الإسلامي، خلال القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، ط1، دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، 2003، ص 477.
6. صلاح الدين الشامي، الفكر الجغرافي: سيرة ومسيرة، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1999، ص 232.
7. يسري الجوهري، الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 2003، ص 103.

أصل تسمية بعض الأماكن في إمارة الشارقة

حمادة عبد اللطيف

يرتبط الإنسان بالمكان ارتباطاً وثيقاً، فالمكان بالنسبة للإنسان ليس الحيز المادي الذي يمارس فيه أنشطته الحياتية فقط، ولكنه فكرة ومفهوم يرسخان في الذهن ويشكلان حالة من التماهي والمزج بين المادي الملموس والذهني المُتخيل، وبمرور الوقت، يزداد هذا الترابط والتلاحم بين الإنسان والمكان ليتبادل كل منهما التأثير في الآخر، فيظهر على المكان شيء من صفات ساكنيه، ويتأثر الإنسان بمفردات المكان الموجود فيه. يحاول الإنسان بشكل مستمر أن يكيّف المكان الذي يوجد فيه ليتناسب مع احتياجاته وطريقة معيشته، ومن ضمن عناصر تكييف المكان أن يكون له اسم يرتبط به ويشير إليه، وترجع تسمية الأماكن إلى أسباب مختلفة منها ما يرتبط بأشخاص أو بأحداث أو غير ذلك، وبمرور الزمن تسقط أسباب التسمية ليظل الاسم هو الذي يعلق في الأذهان فقط، ليصبح لاحقاً دلالة واضحة على هذا المكان، بل ويتم اختزال المكان بأكمله في هذا الاسم. وفي هذا السياق نتعرف على أسباب وأصل تسمية بعض الأماكن في إمارة الشارقة، منها ما هو مناطق صغيرة تابعة للإمارة، أو ضواحي وأحياء داخل مدينة الشارقة .

وادي الحلو

وادي الحلو، قرية صغيرة تقع في المنطقة الجبلية ما بين مدينة كلباء ومنطقتي شوكة والمليحة. وهي من المناطق التابعة إدارياً لمدينة كلباء ضمن نطاق إمارة الشارقة، ويعود تسمية منطقة وادي الحلو بهذا الاسم إلى المياه العذبة والينابيع الجارية التي كانت تنتشر في المنطقة عقب سقوط الأمطار بغزارة،حيث كان جريان الوادي يستمر لعدة شهور، وتقوم على هذه المياه العذبة (الحلوة) الناتجة من الأمطار بعض الأنشطة الزراعية المحدودة، وتتميز هذه المنطقة بطبيعتها الخضراء والوديان الفسيحة والمزارع المنتشرة بكثرة.

كلباء

تقع مدينة كلباء في الجهة الشرقية لدولة الإمارات العربية المتحدة على امتداد ساحل خليج عُمان، وهي تتبع إمارة الشارقة، وفيما يتعلق بتسمية كلباء بهذا الاسم فقد أورد صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، عضو المجلس الأعلى حاكم الشارقة، تفسيراً لهذا الاسم - وهو الأرجح - إذ أرجع سبب التسمية إلى شجرة شوكية كانت تنبت في المنطقة بكثرة وتتميز بأشواكها القوية المتشابكة، وعندما يمر الإنسان بجوارها تكلب أي تنشب وتلتصق بملابسه ويصعب إزالة آثارها أو تنظيف الملابس منها بسهولة، ومن هنا جاء اسم كلباء من (كلب أو يكلب في الشيء أي يلتصق به التصاقاً شديداً) .

خورفكان

تقع مدينة خورفكان على الساحل الشرقي لدولة الإمارات العربية المتحدة، وتطل على خليج عُمان، وتجاور مدينة كلباء وإمارة الفجيرة، ينقسم اسم خورفكان في تفسيره إلى جزأين،

خورفكان

الجزء الأول (خور) والخور هو عبارة عن لسان مائي ممتد داخل اليابسة على شكل خليج صغير، والجزء الثاني (فكان) من كلمة فك، ويشير إلى الجبلين اللذين يحيطان بالمنطقة على هيئة فكين، ومن ثم يصبح تفسير اسم خورفكان - وهو التفسير الأكثر شيوعاً - الخليج الصغير أو الخور الذي يحيط به جبلان كبيران إحاطة تامة، وقد أشار المؤرخ العُماني ابن زريق إلى منطقة خورفكان بقوله (فكان) من دون إضافة خور، و المؤرخ ابن بشر النجدي أوردها بالقول (خور المكان) أيضاً، وأشار إليها ابن بطوطة بكلمة (فكان) فقط من دون خور.

الرولة

من أشهر المناطق داخل مدينة الشارقة وأكثرها حيوية منطقة الرولة، حيث تتوسط المدينة، وتشتهر الرولة بأسواقها ومتاجرها المتنوعة التي يفد إليها الناس من أماكن عدة، وكثيراً ما يأتي بعضهم إلى تلك المنطقة بحثاً عن نوع معين من البضائع لا يجدونه إلا في الرولة، ومن ثم ذاعت شهرتها كمنطقة تجارية توفر جميع أنواع البضائع والمشتريات، ويرجع أصل تسمية منطقة الرولة بهذا الاسم إلى شجرة كبيرة تسمى شجرة الرولة، كانت فيما مضى مكان تجمع الناس في المناسبات، يحتفلون أسفلها ويتناولون الحلوى والمشروبات، بينما يلعب الأطفال على الأرجوحات التي كانت تنصب أسفل الشجرة وبخاصة في المناسبات و الأعياد، وبمرور الوقت ارتبط هذا المكان بشجرة الرولة الكبيرة حتى عُرف باسم الرولة، ومازال المكان يحمل هذا الاسم حتى الآن.

المحطة

منطقة المحطة هي ضاحية سكنية وتجارية تقع في وسط مدينة الشارقة، وتعود تسمية المنطقة بهذا الاسم إلى أنه عندما تم إنشاء أول مطار في الإمارات، وكان في تلك المنطقة، عُرف هذا المطار باسم مطار المحطة، لأنه كان محطة استراحة لرحلات

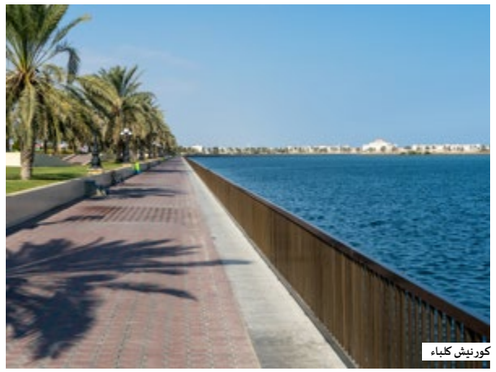
كورنيش كلباء

طائرات الخطوط الجوية البريطانية المتوجهة نحو الشرق، والتي كانت تمر عبر دول الخليج العربي، حيث كان هذا المطار هو الاختيار الأول في منطقة الخليج العربي للتوقف ونقل الركاب من المناطق المحيطة، وقد حافظ على الاسم ذاته بعد تحوله إلى متحف للطيران، وأصبح يعرف باسم متحف المحطة، ومازال برج المراقبة الخاص بالمطار القديم موجوداً إلى الآن، حيث كان مواجهاً لمدرج الهبوط والإقلاع، وقد حلّ محل هذا المدرج الآن شارع الملك عبد العزيز، ومازالت المنطقة التي تضم المتحف تُعرف إلى وقتنا هذا باسم المحطة.

الخان

تعد منطقة الخان من أقدم المناطق في مدينة الشارقة، وقد كان لموقعها المميز بين الشارقة ودبي دور كبير في ظهور أهميتها قديماً وحديثاً، فهي تقع في الطريق بين الشارقة ودبي، وهذا الموقع الاستراتيجي جعل لها خصوصية وأكسبها ميزة مهمة، إذ كانت تقع في طرق القوافل الذاهبة والعائدة بين الإمارتين والمناطق الصغيرة المحيطة بهما، لهذا عرفت بأنها استراحة المسافرين والتجار، امتهن سكان منطقة الخان قديماً المهن المتعلقة بالبحر كالغوص والصيد والتجارة، أما بالنسبة إلى اسم الخان، فإن هناك تفسيرين لهذا الاسم، الأول أنّ تسمية الخان تعني مكان المبيت، وقد اكتسبت المنطقة هذا الاسم نظراً إلى موقعها في الطريق بين الشارقة ودبي، حيث كانت قديماً استراحة للقوافل والسائرين بين الإمارتين والبلدات الواقعة بينهما، مثل: بوهيل والوحيدة والممزر واللية .والتفسير الثاني يُرجِع التسمية لوقوع المنطقة في طرف إمارة الشارقة، أي في زاوية منها (على اعتبار أنه في العامية يطلق على الزاوية خانة) ولهذا أطلق عليها اسم الخان، أي التي تقع في الزاوية ■

*كاتب من مصر

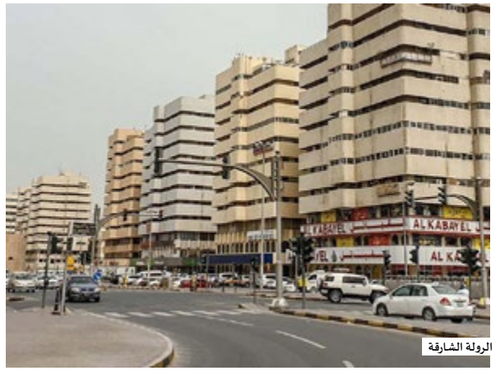

الرولة الشارقة

بِئْدار اللَّهْجَةِ الإماراتيّة فيما طابق الفصيح (3)

أفعال المطاوعة والرجاء

محمد فاتح زغل
أكاديمي وباحث في التراث

«المطاوعة» لغة: هي الانقياد والموافقة، وفي الاصطلاح هي تأثير الفعل المتعدّي حتى يصير المفعول فاعلاً مثل صيغة: «انفعل» فقالوا: كسرت الزجاج فانكسر؛ أي طاوعني وانكسر، فأوجدوا هذا المفهوم. والمطاوعة لا تقتصر على اللغة العربية فحسب؛ ولا على لهجاتها، بل تشترك فيه اللغات السامية ولهجاتها أيضاً على اختلاف بينها في الصيغ. وقد عمّت صفة«الطاعة» لتشمل الأفعال التي تتم بفعل ذاتي، والأفعال التي تتم بفعل خارجي، وتعابير مثل: (سمعاً وطاعة - أمرك مطاع - طاعة عمياء - عصا الطاعة...إلخ) وهذا يعني أن الحياة الاجتماعية تؤثر على الفكر، والفكر يؤثر على اللغة وعلى الحياة الاجتماعية. وكما في اللهجات العربية حيث وجدت المطاوعة اللغوية، فقد وردت أيضاً في اللهجة الإماراتية وهي من الفصيح وقال بها النحويون الأوائل.

ومن بيدار اللّهجة الإماراتية في هذا الشأن قولهم:

انْكَعْمي (انْجَعْمي): يُستَعْمَلُ فِعْلُ المطاوَعَةِ هذا في هذه اللَّهْجَةَ بمعنى : انْكِبّي، واسْكُتي، واخْرَسي، كما في قَوْلِهم للمَرْأَة : انْجَعْمي، وهو في لَهْجَةِ فِلَسْطِيْنَ، والأُرْدُنِ، بالجِيْم، كما في قَوْلهم: انْجَعِم، واجْعام يِجْعَمَك. ويَظْهَرُ لِي أنَّ دَلالَةَ هذا الفِعْلِ في هذه اللَّهْجَةِ تَتَبَدَّى مِنْ قَوْلِ العَرَب: كَعِمَ البَعِيْرُ (شَدَّ فاهُ في هِياجِهِ، لِئلاَّ يَعَضَّ، أو يأكُلَ)، وكَعَمُوا أفْواه الإبِلِ، وكَعَمَهُ الخَوْفُ (أمْسَكَ فاهُ)، وحَدِيْثٌ عليٍّ، رضي اللّهُ عنه: «فهُمْ بين خائِفٍ مَقْمُوْعٍ، وساكِتٍ مَكْعُوْم»، والمُكاعَمَةُ : التَّقْبِيْلُ، والكِعامُ : ما يُكْعَم به. ويَظْهَرُ لِي أنَّ ما في لَهْجَةِ فِلَسْطِيْنَ يَدُوْرُ في فَلَكِ داءِ الجُعامِ الَّذي يُصِيْبُ الإبِلِ، كما في قَوْلِ العَرَب: جَعِمَتِ الإبِلُ (لَمْ تَجِدْ حَمْضاً، ولا عِضاهاً، فَتَقْضُمُ العِظامَ، وخُزْءَ الكِلابِ). والجَعْماءُ مِنَ النِّساءِ (المُسِنَّةُ، الهَوْجاءُ، البَلْهاءُ).

ومن أفعال الرجاء في اللهجة الإماراتية قولهم:

هَتي، هَتي : يُقالُ في تَشْجِيْعِ الطِّفْلِ على المَشْيِ في هذه اللَّهْجَة: هَتي، هَتي، يا باباه، وهَتِيْه، هَتِيْه يا باباه، وهي لَفْظَةٌ مِنَ الفَصِيْحَة: هتا، بِمَعْنَى : كَسَرَهُ بوَطْئِه برِجْلِه، على أنَّ الهَتْوَةَ الوَطْأَةُ الشَّدِيْدَةُ الَّتي تَكْسِرُ ما تَقَعُ عليه، كما ذَكَرَ الدكتور غسَّان الحسَن: «واللَّفْظَة العامِيَّة مُصَغَّرَة (هَتيه)، فالأُم إذن تَتَمنَّى لابنها مَشْياً سَلِيْماً، ووَطْأً على الأرْض شَدِيْداً مَعَ التَّصْغِيْر للتَّحَبُّب»، كما في قَوْلِهم: هَتَيَّه، هَتَيْهْ، يا البابا. ويَتَبدَّى لِي تَأْوِيْلٌ آخَرُ قَدْ يَكونُ أوْلى، وأظْهَرَ، وأكْثَرَ دَلالَةً، وهو أنَّ (هَتي) أصْلُه: هاتِ، على أنَّ الألف قَدْ حُذِفَتْ تَخْفِيْفاً، لِكَثْرَة الاسْتِعْمال، والياءَ ناشِئَةٌ عَنْ إشْباعِ كَسْرَةِ التَّاءِ، أمَّا الهاءُ فَزِيْدَت للسَّكْتِ، ولعلَّ ما يُعَزِّزُ ذلك أنَّ هذا الاسْتِعْمالَ يُطابِعُنا في لَهْجَة فلسطينَ، إذْ تَضَعُ الأُمّ شَيْئاً أمامَ الطِّفْل، ثُمَّ تَطْلُبُ مِنه مُشَجِّعَةً إيَّاهُ أنْ يُحْضِرَ هذا الشَّيْءَ، أو تَجْعَلُ الطِّفْلَ أمامَها وَجْهُهُ نَحْوَها، وتَطْلُبُ منه أنْ يَأْتي إلَيْها، وتَشْدِيْدُ الياءِ في (هَتَيَّه) يُمْكِنُ تَعْلِيْلُه بأنَّ أصْلَ هذه اللَّفْظَةِ : هَتِي، يا وَلَدي، على أنَّ ألف (يا)، و(ولَدي) قد حُذِفا، ثُمَّ زِيْدَت هاءُ السَّكْتِ، للوَقْف على الياءِ مُتَحرِّكَةً بالفَتْحَةِ. أو بأنَّ اسْم الفِعْل (هَتِي) قد صُغِّرَ على: هُتَيَّه. وأختتم بما قاله المستشرق الأمريكيّ وليم ورل عن مستقبل اللغة العربية: «إنّ اللغة العربية لم تتقهقر فيما مضى أمام أيّ لغة أخرى من اللغات التي احتكّت بها، وينتظر أن تحافظ على كيانها في المستقبل كما حافظت عليه في الماضي، وفي اللغة العربية لين ومرونة يمكّنانها من التكيّف لمقتضيات هذا العصر» ■

هوية المكان في ذاكرة القصيدة الإماراتية

عادل نيل

تمثل الهُوية، على اختلاف مفرداتها، مدخلاً مهمّاً في قراءة الإبداع الإماراتي، شعراً ونثراً، لارتباطها العميق بانعكاسات الانفتاح على تحولات واقع ما بعد النفط، وارتباطها كذلك بانتماء الإماراتي لتاريخ أرضه بأشخاصها وشواخصها وأزمنتها وأمكنتها.

وفي البحث عن هذه الهوية، يأتي المكان في القصيدة حاملاً العديد من الدلالات التي تشكل جزءاً من التاريخ الثقافي للشخصية الإماراتية بإرثها وقيمها وعاداتها وتقاليدها، ليتخطى حضور المكان مجرد التعبير عن جماليات الفضاءات والأمكنة، والوصف الظاهري لمحسوسات البيئة وحيزها الجغرافي، ليكون تعبيراً عن وعي الشاعر بجوهر هويته التي يشكل المكان جزءاً أساسياً من مقوماتها.

ومن أولى مظاهر ارتباط الشاعر الإماراتي بهوية المكان، التعبير من خلاله عن ذكريات الطفولة ومرابع الصبا وأنس البساطة في كل تفاصيل الحياة، وهو في ذلك يعبر عن نظرة ذاتية وجدانية صافية، حين يستدعي وجهاً صافياً للحياة، يأخذ نضارته من ملامح المكان في الماضي، كما يعبّر عن نظرة اجتماعية، حين يلمس ما فعلته يد المدنية من تغيرات وتحولات عميقة نالت من هُوية المكان مثلما نالت من هوية من فيه؛ ولذلك كان حضور المكان في بعض القصائد تعبيراً عن حالة اغترابية، حين يبحث الشاعر في أفق ماضيه عن ذاته التي لم تعوضها مظاهر الحضارة المعاصرة، إثر تدفق الثروة النفطية بما أحدثته من تغيرات أسلمته لشعور اغترابي، جعلته يستدعي ويستعصم بذكريات المكان بوصفه جزءاً من إرثه وهويته وخصوصيته.

نقرأ لدى الشاعر سلطان خليفة في قصيدته (والشندغة كانت أميرة) هذا المعنى الذي يستدعي ماضي المكان، الممزوج بحالة شعورية تعلو فيها نبرة من الحنين، تتردد صداها بوضوح مع الفعل «كان» في أسطره الشعرية، فيقول:[1]

كُنّا صغارًا..
عَابثِينْ..
ودبيُّ كانتْ مِثْلنا
والشَندغةْ
كانتْ أميرةْ
والسيفُ ممتدُّ الرؤى
والموجُ يهمسُ للرمالْ
فلا حدودَ ولا سدودْ
ولا موانئ ولا دخانْ
يحجِبُ الرؤيا النضيرةْ
وإذا عرجت على البيوتْ
ووقفت بالباب العتيقْ
رأيت جَدِّي في الرواق
هناك مفترشاً حصيرْ

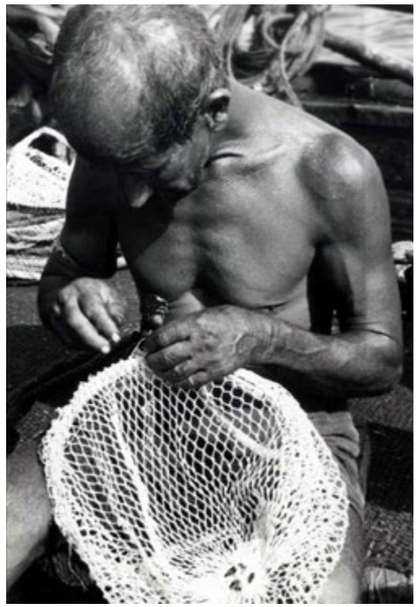

يحكي لنا أيامه
أهوال ذلك البحر
عن رحلة الغوص الصعيبْ

والشاعر في مثل هذه القصائد يمزج المكان بحالة شعورية حسية يندمج فيها مع عناصر الوجود الخارجي، فالذات التي يستدعيها في الصغر لا تنفصل عن هوية (الشندغة، ودبي) في أفق رحبة لا تحدها حدود، ولا يمنع من امتدادها سدود، ولا تنفصل كذلك عن واقع يفتقد فيه موروثاً تاريخياً له خصوصيته الثقافية والاجتماعية، حيث حكايا الماضي التي تسرد صمود الآباء والأجداد في وجه مشقة الحياة، وحيث بساطة المكان المفترش بالحصير، والبيوت ذات الأبواب العتيقة التي تحمل أصالة لا يغني عنها ثراء واقع الحياة الجديدة، وحيث رحلات الغوص التي ترتبط بإرث زاخر لا ينفصل عن هويته رغم عمق التحولات والتغيرات، ولعل ذلك ما يفسر ارتباط الشاعر ذاته، وغيره الكثير من شعراء الإمارات، بالمكان، سواء البحر أو الصحراء، في التعبير عن مشاعره الخاصة في استدعاءات الماضي. لقد أتى استدعاء شواهد المكان رصداً دقيقاً للتحولات التي نالت من العادات المجتمعية والمفاهيم الثقافية التي تختزنها الذاكرة، ليقيم الشاعر مفارقة بين الماضي والحاضر، ويتحول الحيز الجغرافي إلى أيقونة يلتحم الشاعر من خلالها بهويته، ويتحد مع ما يتشكل في تاريخه الثقافي من قيم وعادات. وفي هذا المعنى الاغترابي الذي يرتبط بهوية المكان والإنسان، يناجي الشاعر عبد العزيز إسماعيل في إحدى قصائده، (شجرة الرولة) الموجودة في ذلك الميدان المعروف باسمها في مدينة الشارقة، والتي ترتبط في أذهان أبنائها بتاريخ آبائهم حين كانت ساحة لاجتماعاتهم ومسامراتهم، معبراً عن اغتراب يظهره هذا التباين بين حاضر المكان وماضيه، حين كانت الشجرة مكاناً لتجمعات وأسمار الآباء والأجداد التي تحمل وجهاً من وجوه الاعتزاز بالماضي ومكونات الهوية:[2]

يـــا أمَّ أشجارنـا يـــا ســـاح ملعبنـــــا
ويـــا ظـــلالاً به أطفالنـا كبـــــروا

يا رفقـــة العمـــر يا تاريـــخ تربتنـــا
ويـــا نـــداء مـــن الأعمـــاق يَنهمـــرُ
لقـــد ذبحنـــاك أوصـــالاً مقطعـــة
وانـداح ظلٌّ بـــه الأجيـــال تعتمـــرُ
وطـــوق الســـاح أبـــراج مهجّنـــة
يـــا ليتهـــا مدن الأسمـــنت تندثـــرُ

لم يكتفِ الشاعر بهذه النداءات التي يستدعي بها ماضي آبائه وأجداده ليرسم ملامح من تاريخ المكان والإنسان، وإنما يجسد بعتبة العنوان «وإذا الموءودة سئلت» دلالات التجسيد في عاطفة البنوة التي تتداعى معها مشاعر الحنين الجارف إلى الماضي المرتبط بالمكان، أو بالأدق هويته التي تغيرت بعد أن صار المكان مهجّناً، ولكن، كما يقول الشاعر في تقديم نثري لنصه، ليس خالياً، لأن الجذور لا تزال ضاربة في الأرض، وهو بذلك يستثير في الذات ما يرتبط بذكريات المكان، التي تتردد صداها بين لهو الطفولة وأسمار الصبا، وواقع تبدلت معه ملامح المكان بمراتع البساطة والاستئناس ببراءة الحياة ووداعتها، ومن ثم فالمكان «ليس مجرد خريطة جغرافية، أي ليس نصاً تراتيباً في ذي موضوع، فهو بدوره يكون نتاجاً لاشتغال تراكمي للدلالة».[3] وفي قصيدته (الرولة)، يبث حبيب الصايغ دبيب الحياة في تلك الشجرة من خلال أنسنة تخلع عليها معاني وجدانية عميقة، تجعلها تتفاعل مع الوجود بحب الحياة، تميل مع الشمس حين تميل، وتمضي مع الرجال حيث يمضون، وفي هذا وذاك يترسخ حنينها بقدر عمق جذورها الضاربة بعمق في هذه الأرض التي تنتمي إليها وإلى إنسانها انتماءً وجودياً عميقاً، يقول:[4]

ورق أخضرُ
ورق أحمر وجذور تمر ولا تعبر
وحفيف من الوشوشاتْ
لم تكن تلكم الشجرةْ
غير روح تميل قليلاً إذا مالت الشمس
نحو الشمال
وتمضي إلى بيتها حين يمضي الرجال
وكانت تميل قليلاً قليلاً
تحن إلى الأرض أكثر
تميل وتكبر

أما الشاعر أحمد أمين المدني، فقد جعل المكان في قصائده، استدعاء لمراتع الذكريات والحنين إلى أحياء دبي وشواهد طبيعتها التي عاش فيها صباه، فنجد في قصائده وصفاً لمنطقة (خور دبي)، ووصفاً لمنطقة (ديرة)، ووصفاً لحي (البطين)، وغيرها من الأماكن التي كانت جزءاً من تكوين ذاته حين تسرد الذاكرة من وعيها تلك العلاقة العميقة بين الإنسان والمكان، فيقول في قصيدته (أطياف البطين):[5]

مُـــروا علـى حـيِّ (البطين) وجـدّدوا
ذكرى شبـــابٍ ضـــاعَ في الأوهـــامِ
ودعـتُ بين بيوتِهـــا بيـــضَ المـنى
رقراقـــةَ الأطيـــافِ بالأحـــلامِ
وتركـــتُ بين ربوعِهـــا مَـــنْ لا تـرى
عينـاي بعدهـــمُ سوى الأسقـــامِ

والشاعر محمد خليفة بن حاضر، في قصيدته (شاطئ جميرا)، مزج بين وصف الطبيعة على الشاطئ الفضي، الذي راح يُسائِله ويناديه ويلوذ بخواطره التي يستعيد فيها ذكريات الشباب، وبين استدعاءاته إرثاً ثقافياً، مؤكداً هوية المكان من خلال مفردات تأخذ خصوصيتها من البيئة التي يستدعي الشاعر ملامحها، فيقول:[6]

أتيتـــك من عمق الســـنين مفتشـــاً
عن الموجـة الخجلى عن الزورق الورســي
عن النـــورس الرحال ينشـــد إلفـــه
إذا ما فتـاة الدهر مالـــت إلى الغطـــسِ
عـــن (اليَلِ) عن إنسان، عيـــن مكانـــه
عن (البـــدْحَة) الفضية اللون و(السِلْسِ)
أتيتـــك مشتاقـــاً إلى (رايـح) الضحـى
و(خرُوفةٍ) عن عالم الجـــن والإنـــسِ
فلـم تسعـــف المشتـــاق رداً وإنمـــا
أخذت بصمـــت ويـــك أدنى إلى الخـرسِ
وساعـــة أزمعـــتُ الوداع أجبتنـــي:
ستحظى بما تهـــوى على شاطئ الأمـسِ

مع مشاعر الحنين إلى الماضي وأحاسيس الاغتراب أدخل ابن حاضر إلى معجم قصيدته ألفاظاً من اللهجة المحلية، ليعمق خصوصية هذه الهوية المكانية، تعبيراً عن قيم وجدانية تشكلت من حنين جارف إلى الماضي الممزوج بوحشة الاغتراب بين مظاهر حياة ابتلعت في جوفها الكثير من بساطة الماضي وتقاليده، وبين وجوه وألسنة وثقافات غزت المجتمع مع عشرات الجنسيات المتباينة لغاتها ولهجاتها ولكناتها وثقافاتها، وهذا التوظيف الفني «يقدم شهادة على الاعتزاز بالموروث المشترك، ويكشف عن خوف دخيل من ضياع رابطة تعد مقدسة، حين تتعرض أقلية ما للانصهار في تيار كبير».[7] مناجاة الشاطئ التي يستغرق فيها الشاعر بإحساسه الذاتي أعادته إلى مراتع الطفولة وذكرياتها التي تختزن في الوجدان أشواقاً وحكايات، فكانت اللهجة المحلية- «اليَلّ»: شباك صيد سمك السردين بوجه خاص، «رايح»: رائح، وربما أراد جلسة الضحى «خرّوفة»: خُرافة، «البدحة»: نوع من السمك صغير الحجم يعيش في الضحل، «السِلْس»: نوع من السمك صغير الحجم- جزءاً من مكونات التجربة، باعتبارها جزءاً من تكوينه الوجداني في الاشتياق والحنين إلى ماضيه، وقد جمع الشاعر في استدعاء ملامح هذا الماضي بين العادات الاجتماعية في الخرافات والمعتقدات الشعبية، وبين نشاطهم اليومي في رحلات الصيد، جاعلاً تلك المظاهر التي كان المكان مسرحها، جزءاً من ذكرياته الخاصة.

ويشكل عمق البُعد التاريخي في رسم ملامح المكان، إحدى وظائف هذا الاستدعاء لدى الشاعر الإماراتي، ويظهر هذا البُعد مع (جلفار)، التي كانت محوراً لقصائد بعض شعراء الإمارات، منهم الشاعر عبد الله السبب، في قصيدته (روليت)، والشاعر سعيد المنصوري في قصيدته (جلفار تحت المجهر)، والشاعر عبد الله الهدية، الذي جعل مطوّلته (أضاعوني) التي بلغت

خمسة وخمسين بيتاً، حشداً لمعانٍ وطنية وتاريخية وقومية وإنسانية:[8]

جلفـــارُ والأيـــامُ سفـــرٌ بيننـــا
هـــل كـنت إلا المخلـــص المتفانيـــا
يـــا دارُ حسبـــكِ أنني بك يا هائـــمٌ
لـم يبـــقِ حبُّـــكِ في فُـــؤادي باقيـــا
أوَ تذكريـــنَ الصـــرحَ حين طلبتِـــهِ
وانســـابَ صوتُـــكِ للحبيبِ مناجيـــا

يطوف الشاعر من خلال المكان/ جلفار، بين مواكب التاريخ في تناصات دينية وتاريخية، يُسائِل حضارته العربية ويدين أدواء حاضرها، مستدعياً «ابن ماجد» الذي لم يعد شراعه كالأمس يمخر عباب البحار وخرائط المدن بعد أن ضاعت، ومستدعياً كذلك عرش «بلقيس» وحدائق «الزباء»، وأساطير البطولة في «الزير» و«جساس»، في شعور اغترابي يستثيره عبق المكان، وما يلقيه من ظلال حضارية، ترتبط بالبطولة وحكاياها، ومع ذلك فالشاعر في مطولته التي تمتلئ بالتوجع على ما مضى، يختتم بالانتماء للمكان ومفردات هويته، قاسماً على وقوفه حامياً على ثغور جلفار بنخوة العربي الذي تأبى مروءته أن يتخلى عن ميدان وحمى مكانه:[9]

فالـــدارُ داري والمـــروءةُ منهجـــي
والعزمُ جـــرّدَ للنفـــاقِ حُساميـــا
قسمـــاً بمن رفـــعَ السمـــاءَ وزانَهـــا
سأظـــلُّ يا جلفـــارُ درعـــاً حاميـــا
الأمُّ ثـــمُّ الأمُ قيلـــتْ حكمـــةً
وأنا حفظـــتُ بمقلتـــي أوطانيـــا

هذه المعاني التي ترتبط بالمكان تأكيد على أنه لم يكن لدى بعض شعراء الإمارات مجرد حيز جغرافيّ تُسلط عليه لغة شعرية واصفة، وإنما هو جوهر كاشف عن هموم الشاعر وهويته، حين يستجمع رؤاه من خلال المكان الذي يسقط عليه أبعاداً ذاتية واجتماعية وحضارية، «فالعمل الأدبي منجز إبداعي ينطوي على رؤية ثقافية ونزوع سيكولوجي وخبرة أدبية وظروف اجتماعية وشروط تاريخية، تتفاعل مع بعضها ضمن شروط شديدة الفرادة والخصوصية لتنتج رؤية لها منطقها الخاص الذي يغلب شيئاً أو بضعة أشياء على سواها».[10] وقد يأتي المكان وصفاً لخصوصية الطبيعة الإماراتية، ويتردد هذا المعنى بشكل لافت للانتباه، لا سيما في الأماكن التي ترتبط بالصحراء والبحر، كما في قصيدة (جبل حفيت) للشاعرة كلثم الشيباني، وقصيدة (السيح) للشاعرة هند القاسمي، وهي منطقة صحراوية ينبت بها أشجار السدر والسمر والغاف، فتصف ما يمتلئ به أرجاء السيح، حيث نفح الزهر وحمائم الدوح والظباء الفاتنات والنياق التي تتهادى في عناق:[11]

أيهـــا السيـــح سلامـــا
زانـــك الغيـــث بزهـــرِ
مـــلأ الأرجـــاء نفحـــاً
بشـــذا عـــود بجمـــرِ
واستفـــاق الفجـــر يمحـــو
غســـق الليـــل بعســـرِ
وحمـــام الـــدوح يشـــدو
بيـــن نـــوار وزهـــرِ
وظبـــاء فـــاتنـــات
لونـــها صـــافٍ كتبـــرِ
تتبـــارى كـــي تـــؤدي
رقصـــة مـــن كـــل قطـــرِ
ونيـــاق تتهـــادى
فـــي عنـــاق مستمـــرِ

وتغنّى الشاعر عباس العصفور في ديوانه همسات شاعر، بما يبعثه (شاطئ الراحة) بأبوظبي في النفْس، حيث يتجلى حسنه وقد تبدت فيه مباهج الحياة بنسيمها العليل، وشمس تشرق كاللجين، وتغرب في الأصيل لتذهب معها هموم النفس وأكدارها، كما تغنت الشاعرة عزة بنت عبد الله بن خادم في قصيدتها (القصباء) بأحد المعالم الحضارية الذي صار يشكل جزءاً من الشارقة الحديثة، كما تغنت كذلك في قصيدتها بجمال (واحة الذيد)، في يوم ماطر أرّخته في قصيدتها عام 1986م، فتقول:[12]

بين صحـــــراء ونخـــل وشجـــرْ
ورواب سرنـــي فيهـــا النظـــرْ
وثمـــارٍ يانعـــات حلـــوةٍ
قد حباهـــا الله من حســـن الثمـــرْ
ومياهٍ عذبـــةٍ من فضلـــه
صانهـــا المولى علـــى مدر الدهـــرْ
وسقاهـــا وابـــل يجـــري بهـــا
فإذا الإمطـــار فيهـــا كالنهـــرْ
فاضـــت الوديـــان فيهـــا رحمـــة
نعمـــة المولى على كـــل البشـــرْ

وفي هذه النصوص لا يأتي المكان بناءً جماليّاً فحسب، وإنما هو جزء من التعبير عن خصوصية البيئة الإماراتية وهويتها المرتبطة بالبحر والصحراء، فمنحت أصحابها حكمة، وصلابة، وعزيمة، وجَلداً على الحياة، وثقافة أصيلة، وإرثاً قيميّاً راسخاً، وهو ما يشكل في إجماله هوية الشخصية الإماراتية ■

* كاتب وأكاديمي مصري

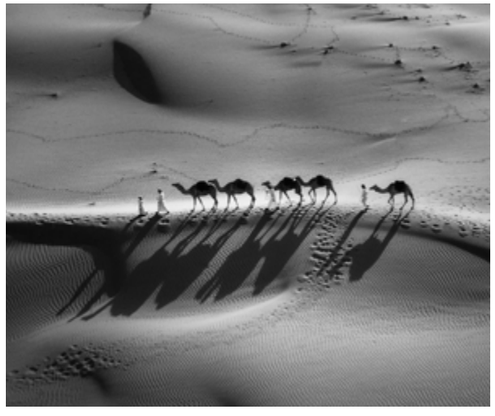

الهوامش:

1. سلطان خليفة، ظلال الشموع، مطابع البيان التجارية، دبي، د.ت، ص 102 وما بعدها.
- سلطان خليفة الحبتور: من مواليد عام 1942م بدبي، حاصل على بكالوريوس في العلوم العسكرية من القاهرة عام 1967م، شغل منصبي وكيل وزارة الأشغال، ووكيل وزارة العمل في الحكومة الاتحادية، وهو من شعراء الفصحى والنبطي، أصدر دواوين عدة من شعر الفصحى، خلال الفترة (1978 - 1998)، ثم انقطع بعدها عن النشر، وتفرغ لإدارة أعماله الخاصة. (دليل الأدباء بدول مجلس التعاون لدول الخليج العربية، من إصدارات الأمانة العامة لمجلس التعاون لدول الخليج العربية، دار المفردات للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، 2008م، ص 29).

2. السمفونية العاشرة، عبد العزيز إسماعيل عبد الهادي، دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة، ط1، 2008م، ص 133.
- عبد العزيز إسماعيل: شاعر ودبلوماسي، حصل على ليسانس اللغة العربية من جامعة القاهرة عام 1963م، عمل بالتدريس لمدة عشر سنوات، ثم التحق بوزارة الخارجية، فعمل قنصلاً بإيران لمدة أربع سنوات، انتقل بعدها إلى جنيف ليكون عضواً في سفارة الدولة، بالإضافة إلى عضويته في وفد الدولة الدائم للأمم المتحدة، وظل بها ثلاث سنوات، ثم تنقل بعد ذلك بين سفارات الدولة في الهند والجزائر واليابان.

3. حسن نجمي، شعرية الفضاء: المتخيل والهوية في الرواية العربية (دراسة نقدية)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2000م، ص 80 بتصرف.

4. حبيب الصايغ، الأعمال الشعرية، اتحاد كتاب وأدباء الإمارات، أبوظبي، ط1، 2012م، ج1، ص 452.
- حبيب يوسف الصايغ: شاعر إماراتي (1955 - 2019)، ترأس مجلس إدارة اتحاد كتاب وأدباء الإمارات، كما شغل منصب أمين الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب، أصدر دواوين عدة جمعت في أعماله الكاملة الصادرة في جزأين، (يُنظر: دليل الأدباء بدول مجلس التعاون لدول الخليج العربية، ص 46).

5. أحمد أمين المدني، الأعمال الشعرية الكاملة، اتحاد كتاب وأدباء الإمارات، الشارقة، ط1، 2006، ص 188.
- أحمد أمين المدني (1931 - 1995): من مواليد دبي، حصل على ليسانس الشريعة والعلوم العربية من جامعة بغداد، ثم حصل على درجة الدكتوراه من جامعة كامبردج عام 1967م، حول فكرة التوحيد في الإسلام، وكان أول إماراتي يحصل على تلك الدرجة العلمية، تقلب بعد عودته إلى الإمارات بين وظائف عدة، من بينها التدريس والإذاعة والصحافة الثقافية، والمدني هو رائد قصيدة التفعيلة في الشعر الإماراتي، وإلى جانب دواوينه التي جمعت في أعماله الكاملة، ومقالاته الأدبية التي نشرت في الصحف، له مؤلفات عدة، منها: دراسات في الشعر الأندلسي، دراسات في الفلسفة، الشعر الشعبي في دولة الإمارات العربية المتحدة. (يُنظر: د. شهاب غانم، شعراء من الإمارات: مع عشرة من الشعراء الراحلين، هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، أبوظبي، ط1، 2008م، ص 92 وما بعدها).

6. شعر محمد خليفة بن حاضر المهيري: استعادات وامضة لجماليات الراحل المسافرة، إعداد وتقديم: إبراهيم الهاشمي، دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة، ط1، 2012م، ص 66.
- محمد بن حاضر (1945م - 2011): درس إدارة الأعمال بجامعة ليدز البريطانية سنة 1967، والتحق بالعمل الدبلوماسي إلى أن أصبح قنصل الدولة العام في باكستان، ثم ترك السلك الدبلوماسي عام (1981)، واتجه إلى العمل الاستثماري، وقد عُرف بنزعته القومية التي وضحت جلياً من أعماله الشعرية، وإسهاماته في تأسيس مؤسسات ولجان وطنية عدة تدعم العمل التطوعي لخدمة الوطن العربي،

وتعبر قصائده عن حس وجداني عميق عبّر من خلاله عن كثير من همومه الذاتية والوطنية والقومية. (يُنظر: المصدر نفسه: ص7 وما بعدها).

7. اتجاهات الشعر العربي المعاصر، د. إحسان عباس، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، عالم المعرفة، العدد (2)، فبراير، 1978م ص 119.

8. عبد الله الهدية، الباحث عن إرم، دائرة الثقافة والإعلام، حكومة الشارقة، ط1، 2015م، ص 28.
- عبد الله حسن الهدية الشحي، من مواليد رأس الخيمة عام 1962، عمل بالتدريس فترة طويلة، وترقى إلى الإدارة المدرسية، وله مساهمات في تدريس الشعر والتدريب في علم العروض، له من الدواوين الشعرية إليك أغني (1992)، إلى متى (1996)، أين أنت (2001)، (يُنظر: بلال البدور، موسوعة شعراء الإمارات، الجزء الأول: الشعر العامودي، دبي، 2013م، ص 489).

9. المصدر السابق نفسه، ص 33.

10. د. صالح هويدي وآخرون، ملتقى الشعر الإماراتي.. تأريخ وإبداع، اتحاد كتاب وأدباء الإمارات، الشارقة، ط1، 2005م، ص 130.

11. هند بنت صقر بن سلطان القاسمي، نفوس شامخة، تقديم: د. مصطفى الشكعة، ط1، 1996م، ص 121.
- هند بنت صقر بن سلطان القاسمي: من مواليد عام 1957م بالشارقة، حاصلة على ليسانس في الجغرافيا والتاريخ، وهي عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية، من أعمالها: نفوس شامخة (1996)، ووهج اللهيب (2000)، (دليل الأدباء بدول مجلس التعاون لدول الخليج العربية، ص 57).

12. عزة بنت عبد الله بن خادم، قلائد الزمان، ط1، 2007م، ص 173.

قراءة في كتاب «التناص في الأمثال الشعبية الإماراتية»

للدكتور عبد الحكيم الزبيدي

د. شهاب غانم

صدر مؤخراً عن نادي تراث الإمارات، مركز زايد للدراسات والبحوث، كتاب «التناص في الأمثال الشعبية الإماراتية» للأديب الشاعر الإماراتي الدكتور عبد الحكيم الزُبيدي، وقد صدر في طبعة أنيقة في 324 صفحة من الحجم المتوسط. والتناص مصطلح نقدي حديث يقصد به وجود تشابه بين نص وآخر أو بين نصوص عدة.

يقول المؤلف في مقدمته إنه لاحظ خلال إعداده بحثاً عن الأمثال الشعبية الإماراتية منذ سنوات وجود تشابه بينها وبين الأمثال الشعبية في بعض البلدان العربية، خاصة دول الخليج واليمن، بل قد يصل ذلك التشابه إلى حد التطابق في بعض الأحيان مع بعض الأمثال في دولة عُمان التي تحاذي الإمارات، بالإضافة إلى أمثال في حضرموت البعيدة نسبياً أيضاً، التي تقع في جنوب الجزيرة العربية. وقد أشار المؤلف إلى كتابي عن الأمثال وعنوانه 1500 مثل إنجليزي وما يقابله في العربية من أمثال عربية فصيحة وشعبية، ومن آيات قرآنية وأحاديث شريفة وأبيات شعر فصيح في الحكمة أيضاً، وكان هو من حاورني حول ذلك الكتاب في معرض أبوظبي الدولي للكتاب منذ بضع سنوات.

وقد رتب المؤلف الأمثال حسب الحرف الأول من أول كلمة من المثل مع إهمال (أل) التعريف، وإذا كانت للمثل صيغ أخرى أوردها تحت ذلك المثل. وقد اعتمد في اختيار الأمثال على عدة كتب تناولت الأمثال الشعبية الإماراتية حسب صدور تلك الكتب، وأقدمها الكتب التالية:

• كتاب إبراهيم الصباغ «**الأمثال الشعبية في دولة الإمارات العربية وما يقابلها من الأمثال الدارجة في الوطن العربي**» الصادر عام 1978م.

• كتاب عبيد بن صندل «**الأمثال والألغاز الشعبية في دولة الإمارات**» الصادر عام 2004 م.

• كتاب محمد المر «**كلام الناس**».

وقد كتبَ المؤلف كلمات الأمثال كما هي في اللغة وليس حسب طريقة نطقها. وفي حالة وجود أكثر من مثل في قطر عربي معين مقابل للمثل الإماراتي يختار المثل المقابل الذي يراه الأقرب في ألفاظه للمثل الإماراتي؛ فمثلاً مقابل المثل الإماراتي «إذا غاب القطو العب يا فار» اختار المثل اليمني «إذا غاب الدِّم تقنبع الفار» ولم يستعمل المثل اليمني «إذا غاب الأسد ترندع الدرين». وكان عندما يجد أكثر من تفسير لمثل إماراتي يختار الشرح الأقرب إلى فهمه هو. فمثلاً فسر بعضهم المثل الإماراتي «من دقَّ الباب جاه جواب» بمعنى: من سعى نال، بينما فسره بعضهم بمعنى: من بدأ بالشر فسيأتيه الرد شراً، وهو التفسير الذي اختاره المؤلف.

والمؤلف يبدأ بشرح معنى المثل الإماراتي واستخدامه، وأحياناً يشير إلى تناص المثل مع حديث شريف أو بيت من شعر الحكمة ثم يأتي بالأمثال المقابلة له من عدة بلدان عربية مختلفة مثل السعودية والعراق وعمان واليمن. وفي بعض الأحيان كان يشير إلى المناطق أو المدن التي أتى منها المثل في بعض البلدان العربية الواسعة حسبما تيسرت له المعلومات مثل الحجاز وبغداد وحضرموت، وأما الأمثال من صنعاء وعدن وتعز وتهامة،... إلخ في اليمن، فقد اكتفى بوضعها تحت مسمى (أمثال يمنية) لأن مرجعه الرئيسي كان كتاب «الأمثال اليمانية» للعلامة إسماعيل الأكوع الذي لم يكن دائماً يحدد منطقة المثل.

وأخيراً فإن هذا الكتاب الذي يحوي نحو 300 مثلاً إماراتياً يعدّ إضافة قيِّمة لكتب الأمثال الشعبية الإماراتية يشكر عليها المؤلف■

روحية الأبواب

عبد الفتاح صبري
روائي وناقد مصري

الأبواب رديف للسكينة - فهى تضفي الأمان - حين تدارينا عن بعضنا أو حتى تداري خصوصيتي عن العيون المتفتحة والرائية والباحثة والمنقبة هي تحمي من يريد الحماية من أن يكون مكشوفاً في الشكل أو في الأوضاع التي يجب عدم الاطلاع عليها من قبل الآخرين مثل وجودنا في حالة نوم أوعري أوحتى في ملابس غير لائقة .. بل إنها حماية للفقير من فقره الذي لا يحب أن يطلع عليه الآخرون، حيث بساطة الأدوات والمواد والممتلكات حتى الخجل من الآخر حال اطلع عليها أو تعمد أن يراها فتنجرح المشاعر وتتلبس الشخص لبوس الرجفة واليأس والقنوط من أنه أصبح متاحاً للآخرين كي يروا عوراته المادية والمعنوية التي يخفيها عن الآخرين لأسباب مرتبطة بالنفس أو العوز أو الحاجة أو التعفف... الباب أمين يحفظ الأسرار التي لا نحب أن يطلع عليها الآخرون ... فيمنعهم من أن يعرفوا أو يطلعوا على نوعية طعامي ومشربي وكيفية حياتي داخل المكان المصمت - المنزل .. في حالة دخول المنزل أسدل الستار بيني وبين الخارج، إذاً الفلسفة النفسية والروحية للباب تكمن في وظيفة الستر التي يقوم بها الباب - الإنسان تتسق سلوكياته مع مفردات المكان أو المنزل، حيث إن هذه المفردات من حوله لما تكون لها آثار جانبية إيجابية فإن الإنسان سيكون في حالة تصالح وسلام مع نفسه ومع الآخرين والباب بوصفه سمتاً في فراغ المنزل أو فضائه فإنه يشكل حالة لها تأثيرها الإيجابي حين يكون لونه منفتحاً دافئاً يمتلك مكملات لها شكلها المريح مثل المقابض أو تقسيمات الباب الهندسية التي توحي بالرحابة والجمال وتتناسق هذه المركيات على الباب أحياناً.. أو حتى في سمته المنساب بلا تذاويق لكن هذا الانسدال في شكله المنساب المنفتح نحو سلاسة التواصل المريح من العين تجاه الباب بمكوناته اللونية وجاذبيتها التي تعطي إشراقاً ودفئاً للتواصل مع مفردة مهمة ينظر إليها فتسل للروح إشارات البهجة والسعادة وانشراح الداخل وبالتالي يصبح المزاج معتدلاً... عكس إن كانت حالة التواصل مع الباب غير مريحة نظراً لعدم جاذبية الباب أو لونه القاتم الباعث على عدم الطمأنينة والمفضي إلى المُحزن وبواعث اللا أمل.. فإن ذلك يدفع بإنسان الداخل التعامل مع الباب في حركته الدؤوبة داخل المكان إلى أن يكون حزيناً مرهقاً مثقلاً ببواعث عدم الطمأنينة والكآبة الوقتية وتتسرب إلى روحه طاقة سلبية تجعل منه إنساناً عدوانياً عصبي المزاج. ولذلك فإن بعضهم يحاول أحياناً أن يُلبس هذه الأبواب لبوسات أخرى إضافية غير المكملات الضرورية كالمقبض، حيث يُلبسها أستاراً أخرى من بهاء مثل وضع صور طبيعية جميلة .. أو صور لشخصيات محببة أو خيالية تبعث على البهجة والسعادة وبعضهم يلصق مرآة على الباب ليفتح مجالاً في المكان مبهجاً ويعطي عمقاً للمكان، وإن كان خيالياً، ورحابةً له تضفي متسعاً وبهجةً وبزداد البهاء في حالة الإنارة، كما تُعطي المرآة صورة متجددة كلما مر أحد بالمكان أو اتجه للباب فإنه سيفاجأ بنفسه منيراً وواضحاً ما يعطي له حالة من الوعي بلحظات من نور وأمل وبهجة تكتمل بمرأى نفسه التي يقدمها أو يراها أنها أحسن من في الكون لأنها نفسه. هذه العلاقة التي تنشأ بين الباب وأصحاب المكان إذاً تعود في غالبيتها إلى أهمية الباب في حياتهم كونه عامل أمان وطمأنينة فتتم حالة من السكون الفطري والرضا تغمر المكان - ولكن العلاقة الروحية تتأسس من شكل الباب أيضاً وما يضفيه من جمالياتٍ تبهج أو قُبحٍ يؤلم فتفر الروح وتتألم، وبالتالي ينتهج الإنسان عدوانيته تجاه الأشياء وتعتصره مشاعر من حسرة وكآبة بسبب هذه الطاقة اللا إيجابية التي تعتوره من سمت الباب الذي لا يمتلك سوى قُبحٍ في لون داكن باعث على الحزن أو في شكل غير سوي للعين وغير ممثل لك فيأخذ صاحبه إلى الضيق والعصبية التي يسهم فيها بكلاحة لونه أو اهتراء مكوناته وأزيز مفصلاته..

والعلاقة الروحية الوقتية نفسها تنشأ مع الزائر المارق إلى الداخل أو الدائم مع أصحابه هذه العلاقة كان أهل البيوت القديمة التراثية يعون ذلك ويعرفون أبعاد هذه العلاقة وكذلك الفنان الذي يصنع هذه الأبواب ولذا كان يهتم بزخرفته ويحتفي بلمسات جمالية بأشكال هندسية ونباتية أو في مكملاته مثل المقابض أو المطارق أو شكل البرقع الذي كان يقدم فيه الفنان لوحة منحوته من إبداع، وألوان ومنمنمات وأحياناً كتابة آيات قرآنية أو ترحيب على الباب وكلها تضفي جمالاً وبهجة تؤسس لعلاقة روحية مع المار إلى داخل الدار ما يجعله مبتهجاً في دخوله متوشحاً ببسمة ألقٍ ورضا وحبور تؤهله إلى تأسيس لحظة اللقاء الأولى مع ناس الداخل بدفء وحميمية ما يفتح آفاقاً من رحابة الود والتعانق الحميم واللطيف بين الزائر وأهل البيت.. ولك أن تتخيل لو كان العكس وكان الباب سبباً لمسحة حزن تصيب الزائر أو تعطيه انطباعاً بالألم والتوتر ما يزيد في عصبيته فيدخل بلا توافق مع من سيلتقيهم في الداخل. وبشكل عام ارتبط الباب في العمارة القديمة وفي الريف العربي والمدن العربية بالمعتقدات الشعبية أيضاً. كان الناس يعيشون في كنتونات شبه منغلقة عليهم وبرغم أن حياتهم كانت تسودها المودة والمحبة والتعاضد فإنهم كانوا يؤمنون بحزمة من المعتقدات الخاصة منها العين والحسد.. ولذا نجد أن في الأحياء الشعبية حين تسود مثل هذه المعتقدات الجمعية .. يتم تعليق طائر هدهد محنط موضوع في كيس قماش على الباب - حيث إن الهدهد في اليقين الجمعي يطرد الحاسد ويبطل حسده كما تصوره الحكايات الشعبية المتداولة وخاصة عن أهل السحر الذين يروّجون لبعض الطيور ومدى أثرها في انتفاء أو طلب الحاجة - الهدهد طائر له مفعول السحر في طرد العين المحسودة وآثارها المدمرة - ولذا قام بعضهم بتعليقه على بابه .. ومن الأشياء الطاردة للحسد - ويتم استخدام الباب وسيلة لذلك هو - تعليق ما يسمى «خمسة وخميسة» وهي عبارة عن كف أزرق من الجص أو الخشب أو المعدن على الباب لمنع الحسد للمارق إلى الداخل ومن الأشياء اللافتة للانتباه أيضاً في أبواب العمارة العربية والمتسقة مع السياق نفسه هو أن تتخذ مطرقة الباب شكل اليد بخمس أصابع وتكون مصنوعة من معدن الحديد هي مطرقة وفي الوقت نفسه تكون أداة لطرد العين وإبطال مفعولها. وقديماً كان يكتب على الباب عبارات للترحيب وأخرى مانعة للحسد مثل «يا داخل هذا المكان صلي على النبي العدنان» وغيرها من العبارات والحكم البيضاء في ظاهرها ولكن باطنها لمنع الحسد. وأظهرت بعض العبارات في حكمهم وأمثالهم ما تحصنوا به متخذين من الباب وسيلة لإظهار هذه المباهج أو التخوفات المرتبطة بما يعتقدونه أيضاً فمن ضمن ما جاء في الأمثال العربية.. على الباب «الباب اللي يجيلك منه الريح سده واستريح»، و«الباب المغلق يسد القضاء المستعجل»، و«باب مردود شر مطرود»، و«الباب المفتوح عمره ما يتقفل»، و«الباب المفتوح مفضوح». هذه حزمة من أمثلة شعبية مرتبطة بالباب وبروحينياته العامة.. ويمكننا إذا ما حاولنا شرحها أن نرى مدى ارتباط الأبواب بالثقافة الجمعية روحياً ومادياً وكيف أنها استخدمت كدلالة على المعتقد السائد أو على الحكمة الجماعية المستقرة في يقين الثقافة الشعبية ولتأخذ مثالاً «الباب اللي بيجي منه الريح سده واستريح» في يقين المجموع أنهم مسالمون ويركنون إلى السلام والدعة وحب الهدوء وعدم العدوانية، المجتمعات العربية قديماً أو المجتمعات الشعبية في الريف العربي دوماً تميل إلى السلام والتعاضد والترابط وعدم المباشرة بالعدوان والبحث عن الراحة والسلام الاجتماعي، ولذلك فالمثل يدعو إلى الركون إلى إدامة هذه الدعة وهذا السلوك الحميد واتخذ من الباب نموذجاً لتقريب هذه القيمة الجماعية.. السلام والمحبة ولذا فعليك لاتقاء الهواء الشديد المزعج والضار أن تغلق بابك دونك وهذا كناية عن التوجه نحو السلام والعيش بهدوء وصد المنغصات والبُعد عنها وعدم إتاحتها ولو تأججت. بينما في مثل «الباب المفتوح عموماً ما يتقفل» وهذا كناية عن قيم وسلوك الكرم الإنساني والكرم العربي والمثل يعني أن باب بيت الكريم مفتوح دوماً ولا يغلق تعبيراً عن استدامة الكريم في كرمه، وفيه حض على انتهاج قيمة الكرم في سلوك الإنسان أيضاً - كما يدل على العزو علو المكانة.

الباب مدخل للطمأنينة والسكينة ودفء الرضا في المكان.. ولكنه أحياناً يكون مسرباً للقلق والتوتر وعدم الرضا أيضاً: إنه باختصار يشكل علاقة مع أصحابه وفق شكله ولونه ومدى تأثيره المباشر وغير المباشر فهم ■

الأقصر «العاصمة الخالدة»

ضياء الدين الحفناوي

الأقصر مدينة في مصر غارقة في التاريخ والثقافة والفن. فهي موطن لبعضٍ من أشهر المعالم السياحية في مصر، ويوجد فيها أهم المعابد الفرعونية، مثل: معبد حتشبسوت، ووادي الملوك، ومُجمَّع معابد الكرنك، ومعبد الأقصر وغيرها الكثير. ويعدُّ أشهر موقع للمجموعات الفريدة للمقابر والآثار القديمة المذهلة. وتنتمي (طيبة) إلى ذروة المملكة المصرية القديمة، وكانت مدينة يزيد عدد سكانها على مليون نسمة، وقد أمر الفراعنة الذين حكموها بمشاريع بناء كبيرة، في محاولة لتخليد نفوذهم من خلال المباني التي تركوها وراءهم. أحد هذه الهياكل هو معبد الكرنك، وهو مجمع مثير للإعجاب يقع داخل مدينة الأقصر، والآخر هو مدينة هابو، وهو مجمع معبد بناه رمسيس الثالث، ويعتبره العديد من الزوار من بين أكثر المعالم السياحية إثارة للإعجاب التي يشاهدونها في الأقصر. وتشتهر بجدرانها واللوحات الأصلية التي لا تزال مرئية على أسطحها المنحوتة. إنه المكان المثالي لاستكشاف عجائب العالم القديم ومعرفة المزيد عن تاريخ المنطقة وثقافتها، وفي ذروة الدولة المصرية الحديثة (1549 - 1069 قبل الميلاد) كانت عاصمتها طيبة (الأقصر)، وأصبح الفراعنة الذين حكموا هذه المملكة أثرياء من خلال النجاحات العسكرية التي وسعت نفوذهم جنوباً إلى النوبة، وغرباً على طول البحر الأبيض المتوسط، وشرقاً إلى سوريا الحديثة.

هذه الثروة والقوى العاملة الضخمة التي كانت تحت تصرفهم جعلت من الممكن لفراعنة الدولة الحديثة أن يشرعوا في تنفيذ مشاريع بناء كبيرة، في محاولة لتخليد نفوذهم من خلال المباني التي تركوها وراءهم. واليوم في الأقصر ما زلنا معجبين بجهود هؤلاء الفراعنة للحفاظ على تراثهم في المعابد الكبيرة والمجمعات الجنائزية التي لا تزال قائمة على جانبي النيل في موقع طيبة القديمة. غالباً ما يشار إلى الأقصر اليوم باسم «أكبر متحف مفتوح في العالم». يأتي هذا الاسم من حقيقة أن المدينة الحديثة تقع في موقع طيبة القديمة نفسها. لقد تم بناؤه حرفياً فوق كنوز الدولة القديمة وحولها، والتي لا تزال تُستكشف حتى يومنا هذا. يُعد معبد الأقصر ومجمع معبد الكرنك الضخم المحاطين بالبناء الحديث من أكثر المواقع إثارة للإعجاب في مصر. يتم تعزيز تأثيرها من خلال التباين فقط بين الهندسة المعمارية الحجرية القديمة والبناء الحديث الذي يحيط بها، بالإضافة إلى ذلك تنتشر في المنطقة المحيطة بالأقصر والضفة المقابلة للنهر ثروة من المعابد والمقابر الأخرى. قد يستغرق الأمر أياماً عدة لاستكشاف المواقع الأثرية المهمة جميعها في غضون ساعات فقط بالسيارة من الأقصر مع عرض كل منها شيئاً فريداً من شأنه أن يضيف إلى فهمك الكثير عن هذه الحضارة القديمة التي ازدهرت هنا. تطوَّرت المدينة على مدى 1500 عام، أضيف إليها جيل بعد جيل من الفراعنة وأسفرت عن مجموعة من المعابد والمقدسات والأبراج وغيرها من الزخارف التي لا مثيل لها في جميع أنحاء مصر. وتُكافأ الطيور المبكرة المستعدة للنهوض من فراشها وهي لا تزال مظلمة بإطلالة شاملة على الضفة الغربية في رحلة منطاد الهواء الساخن عند الفجر. في الواقع إنها واحدة من أفضل الأماكن لركوب منطاد الهواء الساخن في العالم.

وتنطلق رحلات المنطاد هنا بعد شروق الشمس مباشرة وتطفو فوق الضفة الغربية، حيث تقع حقول الزراعة الخضراء بين الجروف القاحلة، وتطل على المعابد في المنطقة ومواقع المقابر من أعلى ويستغرق وقت الرحلة عادة نحو 45 دقيقة، على الرغم من توقع أن تستغرق رحلة منطاد الهواء الساخن في الأقصر نحو ثلاث ساعات من الالتقاء في الفندق إلى النزول إلى هناك.

وإذا كنت قد امتلأت بالمعابد والمقابر طوال اليوم ، فلا توجد طريقة أفضل للاسترخاء في الأقصر من ركوب الفلوكة (قارب صغير) إلى جزيرة الموز والإبحار على بعد خمسة كيلومترات من الأقصر إلى هذه الجزيرة الصغيرة المظللة بأشجار النخيل وهو التناقض المثالي مع يوم مملوء بالغبار لاستكشاف الكنوز الفرعونية في الضفة الغربية والشرقية ولن تواجه أي مشاكل في استئجار فلوكة. قباطنة القوارب يروّجون للعملاء على طول طريق الكورنيش بجانب النيل في وسط مدينة الأقصر وتدور أحداث ركوب الفلوكة حول مجرد الجلوس لمشاهدة المناظر المطلة على جانب النيل بينما يرفع قبطان القارب الشراع وأنت تنزلق إلى أعلى النهر في مشهد رائع يغمر الروح بالهدوء والمتعة. وإذا أبحرت مرة أخرى عند غروب الشمس، ستتمكن من رؤية النهر في أروع صوره.

مدينة حابو

على الرغم من أن مدينة حابو ليست من بين المواقع السياحية في الضفة الغربية، فإن العديد من الزوار يعتبرونها من بين أكثر المعالم السياحية التي يشاهدونها إثارة للإعجاب في الأقصر. تم الحفاظ على مجمع المعبد هذا بشكل مثير للإعجاب.

وفي حين تم بناء الرمسيوم من قِبل الفرعون الأكثر شهرة (رمسيس الثاني)، فإن مدينة حابو بنيت بتكليف من رمسيس

الثالث، وتعد مشهداً أكثر إثارة للإعجاب حيث لا تزال العديد من جدرانها سليمة والكثير من اللوحات الأصلية مرئية على جدرانها.
وفي عهد رمسيس الثالث، عملت مدينة حابو كمدينة مسورة مع المعبد ومركز إداري داخل الجدران التي كانت تحمي سكان المنطقة في الأوقات الصعبة. في وقت لاحق أصبح المجمع مدينة مسورة للمسيحيين الأقباط الذين يعيشون في المنطقة في وقت لاحق.

معبد الأقصر

قد يكون هذا المعبد أعظم دليل على سبب حصول الأقصر على لقبها «أكبر متحف خارجي في العالم». يقع معبد الأقصر في مدينة الأقصر الحديثة، الذي تم بناؤه في موقع العاصمة المصرية القديمة طيبة ويعد المعبد من أفضل المعالم الأثرية المحفوظة مع وجود كميات كبيرة من الهيكل والتماثيل والمنحوتات البارزة التي لا تزال سليمة، ما يجعلها واحدة من أكثر الزيارات إثارة للإعجاب في منطقة الأقصر وكل مصر. إضافة إلى جاذبيته بشكل كبير. تبدأ المدينة الحديثة من جهة وينجرف النيل من جهة أخرى. وهناك عدد قليل من الأماكن في مصر كمدينة الأقصر حيث تجتمع روعة المعمار ودقة تفاصيله الهندسية التي يعجز العلم حتى الآن عن الإلمام أو معرفة طريقة بنائها في العصر القديم بهذا الشكل المذهل الذي صمد ضد العوامل الجوية والتغيرات المناخية عبر السنين.

معبد حتشبسوت

كانت حتشبسوت الفرعون الأنثى الوحيدة في تاريخ مصر القديمة. وصلت إلى السلطة خلال عصر الدولة الحديثة بعد وفاة والدها، تحتمس الأول، وأخوها غير الشقيق وزوجها تحتمس الثاني،

الذي خلف والدها في الحكم وعملت في الأصل كوصي للمملكة لابن زوجها من قبل زوجة أخرى، تحتمس الثالث، لكنها استولت على العرش منه وتمكنت من الاحتفاظ بالسلطة حتى وفاتها. ومع ذلك، فإن مكانة حتشبسوت باعتبارها الأنثى الوحيدة التي حكمت مصر ليس السبب الوحيد لشهرتها فقد كانت ملكة قوية وازدهرت في حياتها الدولة المصرية القديمة. كان المعبد في حالة خراب عندما تم اكتشافه في منتصف القرن التاسع عشر، بعد أن خربه تحتمس الثالث بشدة إثر توليه العرش، ربما لأن حتشبسوت أبعدته عن السلطة.
ويتميز معبد حتشبسوت بتصميمه المعماري الخاص المنفرد بمقارنته بالمعابد المصرية التي كانت تبنى على الضفة الشرقية من النيل في طيبة ويتكون المعبد من ثلاثة طوابق متتابعة على شرفات مفتوحة. بُني المعبد من الحجر الجيري، ونصبت أمام أعمدة الطابق الثاني تماثيل من الحجر الجيري للإله أوزوريس وللملكة حتشبسوت في توزيع جميل. في الأصل كانت تلك التماثيل ملونة، ولم يبقَ من الألوان الآن إلا بعض الآثار، وبعض التماثيل في حالة جيدة تماماً تدل على أناقة تصميم المعبد وجماله وفي الوقت نفسه نجد على جدرانه نقوشاً لبعثات بحرية أرسلتها الملكة حتشبسوت إلى بلاد (بونت) للتجارة وإحضار البخور والمر من تلك البلاد. كان الفراعنة يقدمون البخور إلى آلهتهم ليحظوا برضاهم، وقد سجل العديد من فراعنة مصر ذلك في لوحات على معابدهم وهم يقدمون القرابين والبخور إلى مختلف الآلهة. بالإضافة إلى البخور والمر كانت بعثات حتشبسوت تنقل أخشاباً وأشجاراً وحيوانات نادرة أيضاً لا توجد على أرض مصر، وفراء النمور الذي كانت ترتديه طبقة معينة من كهانوت مصر.
وكان وادي الدير البحري مخصصاً لعبادة هاتور وأمون رع، بالإضافة إلى ذلك كانت به عبادة حورس وأنوبيس.
ويرجع ذلك إلى الأسرة الـ 11 حيث كان فرعون منتوحوتب الثاني أول من استغل تلك المنطقة لبناء مقابر ومعبد لنفسه ولزوجاته وللمقربين إليه من أهل البلاط. كان ذلك خلال الدولة المصرية الوسطى أما معبد حتشبسوت فقد بُني في الدولة المصرية الحديثة في عهد حكم الأسرة الثامنة عشرة، وأمرت بإنشائه الملكة حتشبسوت.
وخلال انتشار المسيحية في مصر بعد نهاية عهد البطالمة، أقام المسيحيون ديراً للعبادة على أنقاض معبد حتشبسوت. كان الدير يسمى «دير فوبيأمون» كان هذا الدير يستخدم في العبادة حتى القرن الـ 11 وقام بزيارته العديد من القساوسة المسيحيين. ثم سميت المنطقة بعد ذلك الدير البحري. وفي الدير البحري توجد معابد مصرية عدّة قديمة ومقابر للفراعنة، من ضمنها معبد حتشبسوت، وبجانبه معبد منتوحوتب الثاني وبالقرب منهما معبد تحتمس الثالث وهو معبد صغير لم تتبقَ منه إلا آثار بسيطة. سعى المصريون القدماء منطقة معبد حتشبسوت بيت المليون سنة.

وادي الملوك

وادي الملوك هو المكان الذي بدأت فيه أسطورة مصر الحديثة مع اكتشاف هوارد كارتر لمقبرة توت عنخ آمون، كاملة مع جميع الكنوز التي دفن بها، في عام 1922. وقد أدّت شهرة هذا الاكتشاف

إلى دخول عصر جديد من السياحة المصرية، حيث جابت كنوز توت عنخ آمون العالم وأثارت اهتماماً جديداً واسع النطاق بتاريخ مصر القديمة. ويقع وادي الملوك على الضفة الغربية لنهر النيل بالقرب من الأقصر. ويعدُّ أشهر موقع للمجموعات الفريدة من المقابر والآثار القديمة المذهلة وهذا الموقع يجعلها واحدة من أهم المواقع لاستكشاف التاريخ المصري القديم. كان علماء الآثار يجتاحون منطقة وادي الملوك منذ قرون، وما زالوا يفاجئونهم حتى الآن فالمنطقة لا تزال لم تكشف عن كل أسرارها. تنتمي المقابر الموجودة في وادي الملوك بالضفة الغربية إلى السلالتين التاسعة عشرة والعشرين ويُعرف الآن ما يقرب من 80 مقبرة، تم حفر معظمها بواسطة بعثة إيطالية بقيادة سكيابارلي بين عامي 1903 و 1905 والعديد من المدافن غير مكتملة ودون زخرفة تشبه الكهوف الصخرية. ويوجد عدد قليل من النقوش المحفورة ويتكون الكثير من الزخارف من رسومات على الجص وهناك أربع مقابر فقط مفتوحة للجمهور، ولكن واحدة من هذه المجموعة هي مقبرة الملكة نفرتاري الشهيرة، التي أعيد فتحها عام 2016 فقط، ما يجعل الرحلة هنا تستحق العناء.

تعتبر مقبرة الملكة نفرتاري زوجة رمسيس الثاني من أرق مقابر الضفة الغربية. جدران وسقوف الغرف هنا مغطاة بمشاهد مبهرة ومفصلة للغاية وغنية بالألوان، التي تحتفل بجمال نفرتاري الأسطوري ومن بين المقابر الثلاث الأخرى التي يمكن رؤيتها هنا، يعد قبر الأمير أمين خوفشيف هو الأفضل، حيث إن اللوحات الجدارية لغرفة ذات ألوان محفوظة جيداً. توفي ابن رمسيس الثالث، أمين خوفشيف، وهو لا يزال مراهقاً.

وإذا كان لديك وقت فإن قبر خائمواست (ابن آخر لرمسيس الثالث) وقبر الملكة تيتي يحتويان على بعض المشاهد المحفوظة المثيرة للاهتمام.

متحف الأقصر

يعدُّ متحف الأقصر أحد أفضل المتاحف في مصر، ويحتوي على مجموعة معروضة بشكل جميل من المنطقة المحلية، والتي تحكي قصة طيبة القديمة، من المملكة القديمة حتى العصر الإسلامي ومقتنيات المتحف هي المومياوات الملكية لأحمس الأول وما يعتقد أنه رمسيس الأول في غرفتين في الطابق الأرضي ويحتوي الطابق العلوي على عرض رائع للتمائم والأوعية الفضية ومفروشات القبور والمقابر وألواح نذرية تمتد عبر منتصف المساحة الأرضية. أثناء وجودك هنا، تحقق من النقوش على جدار أخناتون الذي أعيد بناؤه. تم تغطية 283 كتلة من الحجر الرملي بنقوش مرسومة، وهي تنتمي في الأصل إلى معبد أخناتون للشمس في الكرنك. ويقع المتحف في منتصف الطريق بين معبد الأقصر ومعبد الكرنك ودير المدينة، الواقعة في الضفة الغربية للأقصر وهي موطن لمعبد صغير وبقايا قرية عمالية (حيث عاش حرفيو المقابر الملكية) ومقابر العمال أنفسهم. وإنها تستحق الزيارة من أجل اللوحات الجدارية التي تزين المقابر والتي تختلف في طرازها عن تلك التي تزين مقابر الفرعون وهي تصوير نابض بالحياة للحياة المصرية اليومية ولا تفوّت زيارة قبر سننجم الذي كان فناناً من الأسرة التاسعة عشرة والذي يحتوي على حجرة قبر مقببة ونقوش ولوحات حول مواضيع دينية، بما في ذلك تمثيل رائع لمأدبة جنازة ومحتويات المقبرة المكتشفة عام 1886، معروضة الآن في المتحف المصري في القاهرة بعد مشاهدة المقابر قم بالسير عبر أنقاض قرية العمال حتى معبد دير المدينة الذي يقع على الجرف خلفه فالمعبد الصغير هو إضافة أصغر بكثير لهذا الموقع ويرجع تاريخه إلى العصر البطلمي ومخصص للإله حتحور.

تمثالا ممنون

هذان التمثالان العملاقان البالغ ارتفاعهما 59 قدماً هما أول مشهد يرحب بالزوار الذين يستقلون العبارة من الضفة الشرقية. اشتهروا في العصور القديمة بصوت غامض ينبعث من أحدهم في كل شروق شمس. يعتقد العلماء الآن أن هذا الصوت ناتج عن مرور الهواء عبر مسام في الحجر حيث تم تسخينه في ضوء الشمس، لكن لا توجد طريقة لتأكيد ذلك منذ توقف الصوت منذ قرون وبغض النظر عن السبب كان الصوت هو مصدر اسم التماثيل لأنه جعل الإغريق يعتقدون أن التماثيل كانت (لممنون الخالد) تيمناً ببطل أسطوري يدعى ممنون الذي قتل على يد (أخيليس البطل الأسطوري الإغريقي في حرب طروادة).

معبد الكرنك

عند زيارة الكرنك، فأنت تقوم بزيارة قلب مصر خلال عصر الدولة الحديثة. كان مجمع المعبد الضخم هذا مركزاً للإيمان القديم بينما تركزت القوة في طيبة (الأقصر الحديثة) وتنعكس أهميتها في حجمها الهائل. بالإضافة إلى أهميتها الدينية، كانت بمثابة خزينة أيضاً، ومركز إداري، وقصر لفراعنة الدولة الحديثة، وهو أكبر مجمع معابد تم تشييده في أي مكان في العالم ■

* كاتب من مصر

الشاعر حمد بن علي المزيني

سيرة شعرية حافلة بالإبداع

مريم النقبي

الشاعر حمد بن علي المزيني، أحد شعراء إمارة الشارقة ومن بلدة الحيرة التي تضم مجتمع أدبي ثقافي، وقد برز من هذه البلدة العديد من الأسماء المهمة في الساحة الأدبية في دولة الإمارات العربية المتحدة، وأنجبت العديد من الشعراء وكان منهم شاعرنا الراحل رحمه الله، الذي انتقل إلى جواربه مطلع شهر فبراير الماضي، قبل تكريمه بأيام في الدورة الأخيرة من مهرجان الشارقة للشعر النبطي.

ولد الشاعر في الأول من أكتوبر عام 1953 للميلاد، وتعلق بالشعر في وقت مبكر من حياته، وكان يحرص على الاستماع لقصائد الرعيل الأول من شعراء الإمارات فتأثر بشعراء ذلك الجيل ومنهم الشاعر الجمري وراشد الخضر وأحمد بن علي الكندي رحمهم الله. انضم الشاعر، في فترة مبكرة من حياته، إلى نادي عجمان الوطني للثقافة والفنون، وقد أتيحت له الفرصة حينها للعمل على تدوين الشعر النبطي لشعراء الإمارات، فساهم في إصدار العديد من الدواوين في تلك الفترة منها ديوان الشاعر راشد بن طناف وسلطان الشاعر وماجد بن علي النعيمي وغيرهم، وكان يكتب القصيدة الشعبية بأسلوب السهل المباشر الذي يُعبّر عن الهوية الإماراتية الأصيلة . وقد كتب قصائده في أغلب الأغراض الشعرية كغيره من الشعراء، في الغزل والوصف والمدح والوطنيات والاجتماعيات والحكمة. وتغنى بكلماته العديد من الفنانين مثل شهاب حمد، وخالد محمد ورجب عبدالله وسعيد الدوبي وغيرهم .

ومن قصائده قصيدة مسموح:

مسمـــــوح ثمْ مسمـــــوح مسمـــــوح
مـــن خاطـــري وابغـــي السّماحـــه
مسْمـــوح لك يـــا عايـــف تْـــروح
وين مـــا تبـــا وتْشـــوف راحـــه
مـــا تنجـــبر روحٍ علـــى روح
شـــيْ واقعـــي صـــدق وْصراحـــه
عمـــــر النّدم مـــا يـــاب مربـــوح
وْغلطـــان لـــي عـــدّه رباحـــه
مـــا اغْبـــاه يا اللّي يمـــشي يْنـــوح
عـــا واحـــدٍ لـــي يـــاه زاحـــه
مـــا يـــدري انّ النّـــوح مفضـــوح
وْخســـران لـــي للســـدّ باحـــه
إنتـــه تـــبى إن تـــاح لك تـــوح
والـــذلّ لا اخْضـــع لك جناحـــه
وآنـــا قليـــبي يرفـــض النـــوح
عـــا واحدٍ لـــي يـــاه زاحـــه
كرامـــتي فـــوق كـــلّ مصلـــوح
وْلا همّـــني عـــوق وْجراحـــه
أبشّـــرك مـــا عـــدّت مجـــروح
أنـــا الشقـــا ضامـــن نجاحـــه
غـــيرك تمكّـــن داخـــل الـــروح
فـــي خاطـــري أشـــرق صباحـــه
وْبـــاب حبّـــك صـــار مفتـــوح
عرفـــت صدقـــه مـــن مزاحـــه
أنويـــت بـــي اتْسَلّـــي الـــرّوح
شـــروى التّسلّـــي فـــي السّياحـــه

رحم الله الشاعر حمد بن علي المزيني وأسكنه فسيح جناته ■

* شاعرة وباحثة إماراتية

الرحالة المصور الذي عاصر الشيخ زايد بن خليفة (زايد الكبير)

صورة أبوظبي في أقدم رحلة ألمانية مطلع القرن العشرين

محمد عبد العزيز السقا

الرحالة المصور الذي عاصر الشيخ زايد بن خليفة (زايد الكبير)

صورة أبوظبي في أقدم رحلة ألمانية مطلع القرن العشرين

محمد عبد العزيز السقا*

الخَلِيجُ العَرَبِيّ الذي هو ذراعٌ مائية لبحر العرب ويمتد طول ساحله قرابة 3,490 كيلومتراً من خليج عمان جنوباً وحتى شط العرب شمالاً كان محظوظاً بأهلهِ من سكان الجزيرة العربية وساحلها، وبضيوفه وزواره على حدٍ سواء، تُنبأُ عن هذا وقائع الرَّحلة التي بين أيدينا اليوم، وهي رحلةٌ مصورةٌ لبلدان الخليج العربي مطلع القرن العشرين، من خلال عدسة رحالة ألماني شغف بالتصوير الفوتوغرافي لأجل المتعة، ولطالما أشار إلى معاناته في أن يقتنع الناس بصدقه في مقصوده بقوله: «ما من عربي صدقني بأنني أُسافر من أجل المتعة، ففي نظرهم لا يُسافر الواحد منّا إلا بغاية كسب المال، أو لأجل التجسس على بلدهم». تميزت هذه الصور بنقائها وجودتها، وكونها من أقدم الصور الملتقطة لدول الخليج، وبعضها لأماكن لم يزرها أوروبي قبله.

صاحب الرحلة:

يعتبرنفسه مواطنًا عالميًا، ورجلًا بلا حدود. قادراً على الوصول إلى أماكن غير موطوءة أوروبياً، هو المصور والمستكشف الألماني هيرمان بورخارت Hermann Burckhardt (يكتبه البعض: هرمان بورشاردت) (18 نوفمبر 19-1857 ديسمبر 1909)، وقد أنفق حياته بدءاً من عام 1893م في الترحال إلى البلدان الإسلامية، حَمَلَتْهُ رحلته الأولى في ربيع 1893م إلى واحة سيوة بمصر، وكابد وَعثاء السّفر في الأراضي الليبية وشمال أفريقيا، جزيرة العرب، بلاد الرافدين، الشام، أواسط آسيا، بلاد فارس، ثم في النهاية، قادته جولاته إلى الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة العربية حتى مقتله في حادث غامض باليَمَن عام 1909م، معرفتُه باللغتين العربيّة والتّركيّة، كانت جيدة، وقد تعلمهما بشكل منهجي أثناء دراسته في قسم اللغات الشرقية ببرلين (Seminar für Orientalische Sprachen)* بين عامي 1890 و1892م، كما تعلّم أيضًا أساسيات اللغة السواحيلية والفارسية وتلك همة جديرة بالتنويه. بدأت القصة عندما قرر الشاب الذي ولد ونشأ في برلين لأصل يهودي، أن يلاحق شغفه بالتصوير الفوتوغرافي، فتخلى طوعاً عن تجارته العائلية وعمره 30 عامًا - عقب وفاة والده - الذي ترك له ميراثًا كبيراً، وقرر أن يصبح مستكشفاً ومصوراً، موظفاً الثروة التي تركها والده في استئجار شقة في دمشق بسوريا، استقر بها لسنوات، مستخدمًا المدينة كقاعدة انطلاق لأسفاره الطويلة في البلدان الإسلامية، يرافقه مرشده العربي السوري وصديقه المقرب المعروف باسم (الشامي أبو إبراهيم)، كما وظفها في تجهيز نفسه بأحدث معدات التصوير، والأدوات اللازمة لمعالجة اللوحات بل وإنتاج المطبوعات. وفي برلين استخدم منزل غوستاف ساكس في موابيت، كقاعدة ينزل بها عند العودة إلى الوطن بالإضافة إلى كونه عنواناً بريدياً لا غنى عنه.

شيخ أبوظبي الشيخ زايد بن خليفة في مجلسه أمام قصر الحصن في أبوظبي 7 - فبراير - 1904

الشيخ زايد بن خليفة الأول (1837 - 1909)

فرس الشيخ زايد بن خليفة هدية قدمها شريف مكة

خيول الشيخ زايد بن خليفة

مسقط منظر لقصر الإمام (من جهة البر) 1904

نهاية محزنة

في ثالث رحلاته المكثفة (تحديداً في ديسمبر 1909م)، قام بترتيبات للانضمام إلى نائب القنصل الإيطالي التاجر ماركيز بنزوني في المخا* Mocha باليمن، لمرافقته في رحلة إلى صنعاء عبر تعز وعدن. وفي آخر رسالة أرسلها هرمان بورخارت بالبطاقة البريدية من المخا بتاريخ 8 ديسمبر 1909م، كتب: «ستصلك هذه البطاقة من أحد أكثر الأماكن الصغيرة ضياعًا في آسيا، إنّها تفوق كل توقعاتي فيما يتعلق بالدمار، تبدو وكأنها مدينة دُمرت بالكامل بسبب الزلازل. الطريق من تعز إلى هنا، والذي يستغرق ثلاثة أيام، كان أو كان ينبغي أن يكون غير آمن، كانت هناك الاضطرابات المعتادة مع جباة الضرائب، والتي كان معها وفيات من كلا الجانبين. هنا تسكن القنصلية الإيطالية، وسيعود القنصل معي إلى صنعاء، ستكون الصور من هنا ممتعة للغاية، المرحلة الأخيرة في السهل شديدة الحرارة؛ مياه سيئة؛ يُعطى (الكينين)* لجميع الأفراد (11 شخصًا في العدد، بما في ذلك 8 من قوات الدرك). سأكون سعيدًا بالوصول إلى هضبة الجزيرة العربية السعيدة مرة أخرى».أ.هـ وبينما كانت قافلته الصغيرة في طريقها إلى صنعاء، على مسافة ثلاثة إلى أربعة أيام سيرًا على الأقدام من صنعاء، وكانوا قد عبروا لتوهم وادي الدور إلى الغرب من إب* تعرضوا لكمين وقتلهم مسلحون من قطاع الطرق، يقال إن السرقة هي الدافع، أو إنها حالة سطو طائش، وهناك من يتهم بعض يهود صنعاء أنهم وراء قتله، فيما وصفه البعض بأنه خطأ في تحديد الهوية وأن المراد قتله كان شخصاً آخر. في صنعاء ومدينة الحديدة الساحلية، أثارت الأنباء حدادًا عامًا بين المستعمرة الأوروبية ورفع علم القنصلية نصف الصاري وألغيت

احتفالات عيد الميلاد، وأغلق التاجر الإيطالي جوزيف «يوسف» كابروتي، الذي كان من سكان صنعاء وصديق لـ بورخارت منذ زيارته الأولى لليمن. وفي رسالة بتاريخ 23 ديسمبر 1909 من الحديدة إلى أقارب بورخارت جاءت هذه الكلمات: «..كان صديقنا المحزون عليه من كل من عرفه، محبوبًا بصدق، من المؤكد أن فقراء صنعاء يبكون على موته المأساوي، سيذكر الله لطفه وصدقته، أعرف جيدًا ما فعله لتعزية الفقراء» أ.هـ.

خط سير الرحلة وزمنها:

من البصرة (بالعراق) إلى ساحل الخليج العربي، مروراً بالكويت، ثمّ مجموعة جزر البحرين، ثم محطة جُمرك العقير، ومنها غيّر طريقه برّاً حتى بلغ الحامية التركية في الهفوف، ثم عبر شبه جزيرة قطر إلى الدوحة ومنها ركب البحر باتجاه أبو ظبي (الإمارات)، حيث حلّ ضيفاً على شيخها الشيخ زايد بن خليفة (زايد الأول أو زايد الكبير)* رحمه الله، ومنها إلى دبي، ثم تابع على امتداد «ساحل الصلح»، إلى أن بلغ مُدن عُمان: صُحار، ومسقط، ومطرح. وامتد زمن الرحلة من شهر ديسمبر 1903 وحتى إبريل 1904م، معتمداً وعامداً استخدام وسيلة نقل بحرية صغيرة (قوارب البوم)، وهي قوارب شراعية محلية شائعة في بلدان الخليج العربي، مفضلاً لها على السفن البخارية العاملة بين البصرة وبومباي، لتسمح له بمرونة أكثر في التنقل بين موانئ صغيرة تتناسب مع طبيعة مَقْصُودِه: التقاط الصور وتوثيق التفاصيل، حسب تأكيده.

صور ومذكرات وصناديق منسية.. كيف وصلتنا الرحلة؟

أولاً الصور: عقب مقتل بورخارت، تبرع ابن أخته ماكس جينسبيرج، في عام 1911م بأكثر من 500 لوحة فوتوغرافية وأوراق اتصال للرحالة (مأخوذة من ملكية هيرمان بورخارت) إلى متحف برلين الإثنوغرافي Berlin Ethnographic Museum. وفي عام 1926م، نشر بالألمانية كتابٌ بعنوان من اليمن أو Aus dem Jemen بناءً على شهادة سكرتير بورخارت اليمني العربي، في لايبزيغ (لَيبتسِك، Leipzig بالألمانية)، برعاية أويغن ميتفوخ* بالتعاون مع جمعية الاستشراق الألمانية ومؤسسة بروكهاوس. كان ميتفوخ هو الذي تولى تقييم أوراق بورخارت بعد وفاته وخلال بحث عن ملكية البروفيسور الذي قيم أوراق هيرمان بورخارت عن اليمن في أواخر عشرينيات القرن الماضي، ظهر جزء من ملكية هيرمان بورخارت، ثم عُثر لاحقاً على صناديق منسية في مديرية السجل الوطني في القدس تحوي إرث بورخارت ويومياته، ورسائله، وقوائم عناوين الصور. حظيت معظم الصور بالتأريخ وحُدد موقعها الجغرافي، وتم الإفراج عن جزء رائع - رغم صغره - من المجموعة والتعليق عليه ببراعة في مجلد يحتوي على نصوص باللغتين الإنجليزية والألمانية. على نطاق واسع استخدم الرحالة وعالم الآثار والدبلوماسي ماكس فون أوبنهايم Oppenheim أعمال بورخارت الفوتوغرافية التي نشرها في دراساته الخاصة عن الشرق، كانت الصور التي كان هيرمان بورخارت مغرمًا بالتقاطها هي الشخصيات والأماكن والنقوش والكتابات والموانئ والسفن والأسواق والتجار والشيوخ وزعماء القبائل، واليهود في اليمن. جدير بالذكر أن بورخارت قام بالتصوير على نطاق واسع ليس فقط في الشرق الأوسط العربي بل وشمال إفريقيا بما في ذلك المغرب، وكذلك في تركيا وبلاد فارس وغيرها، واليوم يمتلك المتحف الإثنولوجي في برلين ما يقرب من 2000 لوحة سلبية (نيجاتيف) وزجاجية وسليولويد، وبدعم من مؤسسة الأبحاث الألمانية، تم تحليلها ونشرها علميًا. صدرت نتائج هذا العمل جزئياً في اليمن ودول ساحل الخليج العربي وحظيت باهتمام كبير، والمتحف الوطني في صنعاء لديه معرض صغير دائم

الهفوف: منطقة النعائِل 6 - 17 يناير 1904

رجل عربي من قبيلة المناصير

هيرمان بورخارت

للصور بالأبيض والأسود للرحالة الألماني هيرمان بورخارت بصفته مسافرًا شغوفًا.

ثانياً المذكرات: حُفظت لنا مُجريات رحلة بورخارت وانطباعاته في المحاضرة التي ألقاها بنفسه أمام الجمعية الجغرافية في برلين في فبراير من عام 1906م، ونُشرت محاضراته جزئيًا في مجلة الجمعية، تم وصف هذه المرحلة من رحلة المصور في منشور واحد فقط، وهو محضر محاضرته بمجلة الجمعية الجغرافية. كان بورخارت قد احتفظ بمذكرات أسفاره، ولسنوات عديدة كان الاعتقاد السائد هو أنَّ مذكراته قد ضاعت إلى أن ظهرت في الصناديق المنسية بالسجل الوطني في القدس. وفي عام 2006م طبع في ألمانيا كتابٌ نشرت فيه للمرة الأولى صورٌ فوتوغرافية قيِّمة عن بلدان الخليج العربي بعنوان: «رحلة عبر الخليج العربي - من البصرة إلى مسقط» للمصور الألماني هيرمان بورخارت تكفل بتحريره آنيغريت نيبا وبيتر هربسترويت، ليقدما لنا تفاصيل رحلة بورخارت، غير أن نصّ مذكراته المختصر لا يضاهي الجودة الفائقة لصوره الفوتوغرافية، التي تُظهر تركيز اهتمامه كليّاً على الموضوع الذي يقوم بتصويره، ومع هذا لم تحصل صوره على الشهرة التي تستحقها، ويمكننا القول إن صور بورخارت يمكن أن تكون من أقدم صور بلدان الخليج العربي. ومن خلال أقدمية هذه الصور وبالنظر لمسطرة التَطوّر الهائل الذي شهدته المنطقة، سيكون لهذه الرحلة أهمية بالغة في تعزيز شعور الدهشة بالمنجز الحضاري الذي يتنامى على ساحل الخليج الآن. ولن يسع الباحث في تاريخ الخليج، وتاريخ الإمارات والعائلات الحاكمة أن يفوت تلك الرحلة وصورها، وبحسب لهيئة أبوظبي للثقافة والتراث قيامها بترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربيّة، ويذكر الدكتور أحمد أيبش مترجم النسخة العربية، أن رحلات بورخارت استمرت 16 عاما، وأنه لم يكن مهتما بالسياسة ولا الاقتصاد، ولا المشاريع الاستعمارية أو الاستيطان الأوروبي في المشرق، وأنه نادر بين الرحالة الأوروبيين لأنه محايد، وكان مرافقه أبو إبراهيم يجاوب عنه أحيانا إذا ما طرحت عليه أسئلة حول أهداف رحلاته، وتمويله، مذكرا سائليه بالرحالة العرب الذين لم يكن لهم هدف من وراء ترحالهم سوى حب الاستكشاف مثل الإدريسي، وابن بطوطة، وابن خلدون، كما قدمه لهم باسم يوسف أفندي.

بين الهفوف وقطر: شرب القهوة في الصحراء 19 يناير 1904

هيرمان في أبوظبي

كان بورخارت قد وصل أبو ظبي بعد ظهر يوم 4 فبراير، وتوجه عبر السوق إلى الشيخ، لكنهم أخذوه إلى كوخ مصنوع من سعف النخيل خارج المدينة، كان المجلس العام معقوداً في ذلك اليوم حيث تم فرش سجادة كبيرة للشيخ ليعقد مجلسه، وبعد أن انتظر بورخارت بعض الوقت ظهر الشيخ.

الشيخ زايد بن خليفة الشيخ المهاب

وصف بورخارت الشيخ زايد بن خليفة بأنه رجل كبير السن جليل مهاب، وشخصيته بارزة، حيث وصل وفي معيته حاشية كبيرة، فقدم له بورخارت القادم من قطر خطاب توصية من شيخ قطر. واستمر المجلس لمدة ساعتين، تم بعدها قدمت وجبة طيبة انشرح لها صدر الحاضرين. ويؤكد الرحالة أن الشيخ زايد أصبح أقوى شيوخ الساحل أوائل السبعينات من القرن التاسع

مسقط: وادٍ في نخوم المدينة 12 - 15 مارس 1904

عشر. كما بيّن أن تصرفات الشيخ زايد بن خليفة كانت إنسانية إزاء المستخْدَمين. وتطرق إلى الأمان الذي كان ينعم به سكان المنطقة في تلك الفترة قياساً ببلاد فارس. قدم بورخارت صورة وصفية للشيخ زايد الكبير بقوله: «بدا الشيخ وهو رجل مهيب، بهي الطلعة، تبدو على الرجل هيبة الحكم وسيماء العظمة والوقار، ومعه حاشية كبيرة، وهو رجل كريمٌ مضيافٌ إلى أقصى حد، وسنة بعد أخرى يحلّ عليه الكثير جداً من الضيوف». (دفتر المذكرات اليومية، مطلع يوم 5 فبراير (1904). يستكمل: سلمته رسالة التوصية، وسألني أسئلة عدة اعتيادية. وقام الحضور بعرض قضاياهم التي جاؤوا من أجلها، وتوجد هنا طقوس حقيقية، فكل شخص يحيي الشيخ أولاً، وبعد ذلك يجلس الجميع طبقاً لمناصبهم ومواقعهم، ولكن حتى أفقر الحضور تصرف بصورة تخلو من أي ذل أو خنوع. وبعد نحو ساعتين انتهى المجلس، وتم إحضار طعام جيد، وبعد ذلك أدخلت إلى الكوخ باعتباره مقر سكني، وأذكر الأيام الستة التي قضيتها في ضيافة الشيخ حيث تم الاعتناء بي بصورة جيدة. يجدر القول إن حكم الشيخ زايد بن خليفة قد امتد نحو 54 سنة وتوفي عام 1909، ما يعني أن الرحالة قد رأى الشيخ في أواخر حياته، قام بورخارت بتصوير أحد المجالس اليومية وسجل انطباعاته بقوله: «..هناك بعض الناس يلتفتون إلى الرجل ذي الكاميرا، ولكن أحداً منهم لا يعرض نفسه أمامه للتصوير.. ثمة فتى يصب القهوة من دلةٍ ذات ميزابٍ طويل، ويحمل في يمناه فناجين الخزف الصغيرة، يقدّمها لكلّ ضيفٍ راغب بالشرب.

رسالة إلى (الشيخ الأكرم الأفخم حميد الشيم)

كان بورخارت قد طلب رسالة تعريف وتوصية إلى شيخ أبو ظبي الشيخ زايد بن خليفة من الشيخ أحمد بن محمد بن ثاني في الدوحة، بغية أن يحل ضيفاً على الشيخ زايد الكبير في أبوظبي، وقد وضع الرسالة على لوحة (فلين) من تلك التي تستخدم في طباعة الصور وتبتدئ الرّسالة: «بسم الله الرّحمن الرّحيم ... إلى جناب الأجل الأمجد الأكرم الأفخم حميد الشّيم، الشيخ زايد بن المرحوم خليفة المحترم، سلّمه الله تعالى وهداه آماله، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته على الدوام، غبّ (وتعني من بعد) السؤال عن عزيز خاطركم، دمتم ومن لديكم في أحسن حال، أحوال محبّكم من جميع الحالات بشركم الله تعالى وبوفقنا وإياكم شكر نعمته.. ثم من خصوص هذا الرجل متوجه إلى طرفكم، وهو شخص معتبر في دولة جرمانيا وآدمي معلوم جميع الدول المتحابية، وهو من أشراف قومه وكبراهم وسياحه وحرّرنا هذا معه تعريفاً عن حاله بحسبما حنّا (نحن) مطلعين عليه، وإلا فجنابكم (يقيناً) وطبعاً مَن حَلّ ساحتكم لا يفارقها إلا شاكراً». ثم يقدم الشيخ أحمد عبارات التحية والسلام: «هذا ولا تقطعنا أخباركم الصحية مع ما يبدو، ودمتم سالمين محروسين، والسلام». مؤرخة في 11 ذو القعدة 1321م.

ملاحظات التركيبة الاجتماعية والاقتصاد

من استقراء صور الأشخاص الضبّاط الأتراك الثلاثة، والرّجل العربي، وعازف الموسيقى الزنجي تشهد بأن المصوّر كان غالباً ما يستثير قبول مضيفيه، ويلتقط صوراً تعكس مزيج التركيبة

مسقط: خليج في المدينة 12 - 15 مارس 1904

الاجتماعية بل والسياسية في المنطقة آنذاك، لقد شدتني صورة يبدو عازف الموسيقى الذي صوره بورخارت مرتدياً قميصاً داخلياً، وثوباً، ومعطفاً بسيطاً من الصوف القاتم، يحمل قيثارة نحيلة، وهذا يشي بالعلاقة بين الجزيرة العربية والساحل الشرقي لأفريقيا التي امتدت لقرون. كتب بورخارت في مذكراته شهادة عن حسن معاملة العبيد والخدم في أبوظبي بقوله: «لدى الشيخ الكثير من العبيد وتجارة العبيد واقتناؤهم تنتشر في جميع المجتمعات، غير أن السود مع ذلك يلقون معاملة جيدة جداً، وهم يخاطبون أسيادهم بعبارة «عمّي»، والتي تعني في العربية أخ الأب. تعكس صفحات المذكرات أيضاً انطباعاً هاماً عن الحالة الاقتصادية في ظل محاولات الانجليز احكام السيطرة على التجارة البحرية، مما ظهر أثره في كل شيئ حتى في تكلفة اقتناء العبيد فيقول: «..ارتفعت أسعار السود: 400 إلى 500 ريال». كما ترك تنويهاً عن الغوص عن اللؤلؤ بقوله: «يحصل الشيخ تقريباً على جميع الموارد المالية لمدينته من عوائد الغوص على اللؤلؤ».

أبنية المدينة (أبوظبي) القديمة

كتب بورخارت في مذكراته اليومية في 4 فبراير ما يصلح أن يكون وصفاً لأبنية المدينة بقوله: «فقط السوق وحده ونصف درزن من الدور مشيدة بالحجر، وأما الباقي جميعه فهو لا أكثر من أكواخ من الجريد، والجريدة تعني سعفة النخيل التي تُشذب عنها أوراقها، فتبقى على شكل عود طويل ورفيع. فهذه العيدان هي المادة الرئيسية لأكواخ الجريد هناك.

إنّ صور بورخارت تظهر بلدة في بدايات تمدنها وكانت أبو ظبي تقوم على جزيرة، كانت التربة رملية ولم يكن سوى بضعة أشجار نخيل، وقيل له إنّه ما قبل حوالي عشرين سنة مضت لم يكن هناك أي نخيل على الإطلاق، وبأنه منذ فترة قريبة بدأ السكان المحليون بزراعتها، ولم يكن يلزم الحفر إلا أقل من متر واحد لبلوغ الماء. والنخيل لا يوفّر التمر فحسب، بل ومواد البناء أيضاً لغالبية المساكن. كانت الأكواخ السكنية تتوزّع متقاربة بعضها من بعض، بحيث تشكل باحة محمية من الخارج بسور. والبناء الكبير البادي في الصورة مبني على غرار الأكواخ بعيدان جريد النخيل، وبالسعف وجذوع النخيل. ويستخدم الشيخ زايد بن خليفة هذا البناء بمثابة دار ضيافة. ومساحته تقارن بالدور التي يبنيها أهالي السباخ العراقيون من القصب. وهذه الدور يصل طولها إلى 20 متراً، ولها جدران عالية تنفذ منها الريح، وهي ظليلة ومعتدلة الحرارة حتى في مواسم الحرّ.

قدم بورخارت مقارنة لقصر الحصن يقول: وفي صورتنا هذه التي يبدو فيها «الحصن الكبير» لما كان ما يزال مكان اجتماع ينبض بالحياة، تُرى عدة مدافع ترتكز إلى مداميك، بمثابة مدخل للحصن. كان المجلس العام لشيخ أبو ظبي لا يُعقد في مسكنه الذي يشبه الحصن في كلّ يوم، وجرى تبيان ذلك لبورخارت على هذا النحو كما دوّن في مذكراته اليومية. كما دون أن للشيخ أربع زوجات وهو يقيم في كل يوم مع إحداهن، فلذلك تُعقد المجالس في أمكنة مختلفة كل يوم، وعندما كان الشيخ يعقد مجلسه في أحد هذه الأمكنة، انتهز بورخارت الفرصة لالتقاط صورة بانورامية للحصن، وثمّة عدّة جِمال مربوطة إلى أوتاد في

الشمس، وصادف مرور ولد فنظر إلى الكاميرا في أحد الصور في مشاهد ناطق بالجَمال. أليس كل قديم جميلاً؟

خصص الشيخ زايد بن خليفة - رحمه الله - للرحالة مبنى فخم طوال مدة زيارته، وأمر بتزويده بالأرز ولحم الضأن والزبيب والتمر، تُجلب إليه الأطعمة الشهيّة عدّة مرّات في اليوم وكتب في مذكراته اليومية كان يُقدّم الطعام إليه وإلى مرافقيه بشكل منفصل كلاً على حدة. شرع بورخارت يلتقط الصور في خليج أبو ظبي في الصباح الباكر مصوراً كلاً من المراكب والجمال سفينة البحروسفينة البر، تظهر الصور القوائم الأمامية لبعض الأباعر مقيّدة معاً لمنعها من الشّرود، أمّا المراكب فهي غير منشورة الأشرعة وثمة دقل (سارية) ملقى على الشط. وبالقرب من مركب صغير من نوع «البلم توجد زوارق من نوع «الزاروك». والزاروك أكثر نحولاً وسرعة من مركب البوم، كما صور مركب «البتيل» والذي ينسبه البعض لاسم أسرة Patel من كلكوتا، كما يظهر بشكل جانبي في بعض صوره قارب من نوع الكوثل. وكان بورخارت يمضي إلى خليج أبو ظبي عدّة مرّات لكي يستعلم إن كان مركبه جاهزاً للإبحار، وتعين عليه أن يمكث في أبو ظبي خمسة أيام لأنّ (النُّوخَذة) كان ينتظر بيع حمل من التمر قبل التحرك.

فرس الشيخ زايد

الأفراس الإناث لها أفضلية عند العرب والبدو، لأنها ألين قياداً من الجياد الذكور، التي تنكشف عن نفسها بصهيلها فيأخذ الخصوم حذرهم، سجل بورخارت في مذكراته اليومية بتاريخ 7 فبراير أنه حظي بتصوير أجمل فرس لدى الشيخ، ووصفها بـ «أجمل فرس» لدى شيخ أبو ظبي تشي باتساع علاقاته وقوة صلته بشريف مكة الذي هو شخصية ذات اعتبار خاص وقتذاك، وقد كان شريف مكة أهداها لحاكم أبو ظبي الشيخ زايد بن خليفة، ويرى في الصور السرج الرائع الزخرفة والرَّشمة المفضّضة التي على رأسها، ولعل لهذه الفرس عقباً في أحواج الخيل المولّدة في أبو ظبي.

في دبي وصورة واحدة!

كانت الرياح العاتية، وتيارات الماء غير الثابتة والصخور الناتئة، كلها تجعل المسار البحري صعباً، لأنّ الريح الشمالية الآخذة في الهبوب منعت قاربه من نوع «البتيل» من الإبحار، فيما كانت الرّحلة الساحلية ما بين قطر ورأس مسندم الناتئ بعيداً إلى الشمال غير آمنة، ولهذا فقد تعين على بورخارت أن يمضي عدّة أيام في دبي، وعندما تمكن القارب أخيراً من الإبحار، كان تقدّمه بطيئاً، حتى أنه وبين الجرفين المعروفين باسم «الصخر المخدوق» تعين على طاقم المركب النزول بشكل متقطع إلى الزورق الصغير والتجذيف لسحب المركب وراءهم، وعندما وصل بورخارت إلى دبي في 11 فبراير، كان المجلس العام اليومي معقوداً بحضور ابن فتي للشيخ (حسب تعبري بورخارت) وأحد وزرائه، أما الشيخ مكتوم بن حشر آل مكتوم (توفي 1906م)، فقد كان غائباً عن المكان، فقدم بورخارت رسالة تعريف لكي يؤمن حقوقه كضيف، ولقد نال جميع احتياجات إقامته ولكن لم يُسمح له بالتصوير، وقام بكتابة رسالة التعريف هذه شيخ أبوظبي الشيخ زايد بن خليفة آل نهيان، وبما أن بورخارت لم

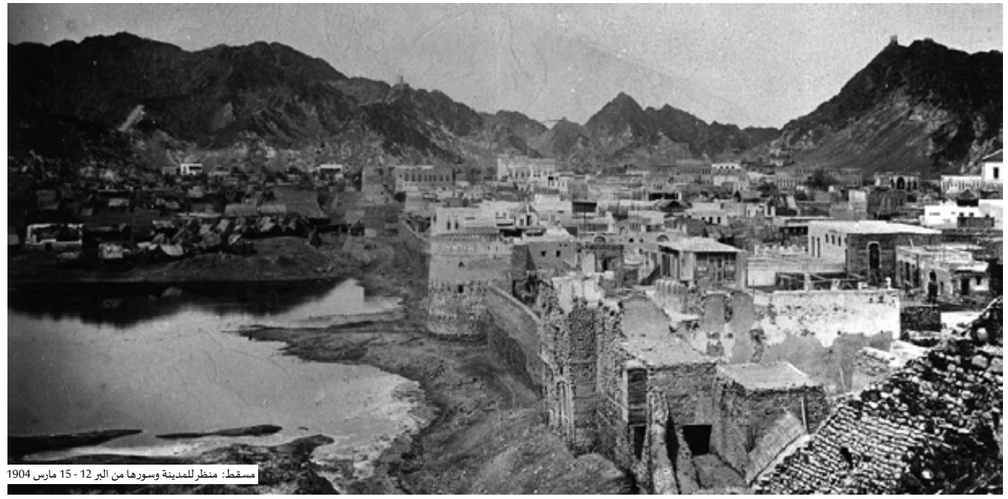

مسقط: منظر للمدينة وسورها من البر 12 - 15 مارس 1904

أبوظبي: قصر الحصن 7 فبراير 1904

يُسمح له بالتصوير، فقد استفاد من يومه بكتابة أوصاف لملاحظاته ومجريات يومه التي كانت أكثر مما هو معتاد، والصورة الفوتوغرافية الوحيدة التي أمكنه التقاطها في دبي جاءت من خلال المصادفة، فأثناء ما كان يشرح طريقة عمل آلته الفوتوغرافية، بناء على طلبات متكرّرة، لاحظ أن أحد الضيوف من بين جمع الفضوليين حوله قد استعمل ملعقة من ملاعقه بغير إذنه، ثم وقف أمام الكاميرا بطريقة عفوية، فما كان من بورخارت إلّا أن قام باسترداد حقه بالملعقة من الشاب بالتقاط صورة له أصبحت هي يتيمة صوره في دبي.

إلى مطرح

ومن الإمارات إلى عمان صور بورخارت الكثير من الصور لمسقط من الداخل والخارج، منظر عام لقصر الإمام من الخور وعائلة من صيادي السمك في خور سيفة الحجاج، ومنظر عام لخور سيفة الحجاج (خور مالكوم) ثم منظر عام لمسقط من البحر ثم منظر عام لها من ظاهر سورها وآخر للمدينة وسورها من البر، ومنظر لقصر الإمام، سلطان مسقط وزنجبار، من جهة البر. وصل هيرمان بورخارت إلى مطرح يوم 12 مارس1904م، ثم انتقل بعدها عبر مركب إلى مسقط المحاطة بالجبال في جون محمي. يروي بورخارت أنه استمتع بفترة إقامته، فقال: «إن الحمّام الذي كنت بحاجة إليه بصورة ملحّة، ومُتع الرفاهية الإنكليزية الهندية، سرعان ما جعلتني أنسى وعثاء السفر الطويل في البحر». غادر المركب كمزار، وعَبر ما بين رأس مسندم والجزيرة المسماة به، إلا أن عاصفة هبت أجبرتهم على الالتجاء إلى خور سيفه الحجاج (خور مالكوم).

لاحقًا رافق بورخارت البحارة إلى البر لإحضار المياه، وهناك في أحد البيوت تناولوا القهوة والتمر وجرى تعريفه على أنه رَجُلٌ مسلم من إسطنبول. وإلى اللقاء في رحلات جديدة ■

*باحث بالمركز العربي للأدب الجغرافي

الهوامش والمراجع:

1. رحلة عبر الخليج العربي من البصرة إلى مسقط، هرمان بورخارت ترجمة د. احمد ايبش من إصدارات كلمة - دائرة الثقافة والسياحة أبوظبي.
2. الشيخ زايد بن خليفة بن شخبوط بن ذياب بن عيسى آل نهيان (1837 - 1909)، ويعرف أيضا بزايد الأول أو زايد الكبير، هو الحاكم السابع لإمارة أبوظبي بين 1855 وحتى وفاته سنة 1909. أصبح حاكما للإمارة خلفا لابن عمه سعيد بن طحنون.
3. المخا: مدينة وميناء على ساحل البحر الأحمر، بمحافظة تعز اليمن، وهي مركز مديرية المخاء، اشتهرت لكونها السوق الرئيسية لتصدير القهوة بين القرنين الخامس عشر والسابع عشر، وقد اشتهرت قهوة المخاء التي تأخذ اسمها من هذا الميناء وتعرف باسم قهوة موكا.
4. أوبنهايم: هو ماكس فون أوبنهايم Oppenheim رحالة وعالم آثار ودبلوماسي ألماني ولد في كولونيا في 15 يوليو 1860 وتوفي في 17 نوفمبر 1946. وهو ابن أحد أهم مكتشفي الآثار الهواة في الشرق الأوسط.
5. ميتفوخ: البروفيسور أويغن ميتفوخ مؤسس الدراسات الإسلامية الحديثة في ألمانيا، وباحث يهودي بارز، ولد في بولندا في 4 كانون الأول 1876م. توفي في 8 تشرين الثاني 1942م، في لندن. وله عدة مؤلفات في مقارنة الأديان.
6. الكينين: الكينين أو الكوينين هو مركب شبه قلوي أبيض بلوري ذو خصائص عديدة منها: خافض للحرارة، علاج للملاريا، مسكن، مضاد للالتهاب، وذو طعم مر.
7. ندوة اللغات الشرقية (Seminar für Orientalische Sprache (SOS تأسست بمدرسة اللغة الألمانية الاستعمارية واللغات في جامعة فريدريش فيلهلم في برلين عام 1887. كان هذا مرتبطًا بالوضع الخاص للجامعة التي يديرها الرايخ الألماني وبروسيا بشكل مشترك.
8. إب هي مدينة يمنية وهي عاصمة اليمن السياحية، في الطريق الذي يصل عدن وصنعاء. وتبعد عن صنعاء العاصمة نحو 180 كم جنوباً.

أدب الرحلات بين الإمارات والعالم

فاطمة عطفة

تشكل الإمارات جسراً جميلاً آمناً بين الهند ومصر وبلاد الشام، وكانت محط أنظار الرحالة منذ القديم، وموقعها الجغرافي على الخليج العربي، إضافة إلى أن طبيعتها المتنوعة بين البحر والجبل والصحراء زاد من اجتذاب الرحالة والمستكشفين والسياح إليها من الغرب والشرق، وبعضهم كتب عنها وترك آثاراً أدبية وصوراً جميلة في تنوعها عن المنطقة وأهلها وغنى تراثها.

وفي لقاء الروائي علي أبوالريش يؤكد على أهمية أدب الرحلة والأدب التراثي قائلاً: إن تكلمنا عن أدب الرحلة في الإمارات، للأسف حتى الآن، لم نجد أو نقرأ إلا القليل عن أدب الرحلات، مع أن الإمارات زاخرة وثرية جداً بمعالمها الثقافية، ولكون الدولة تحتضن 7 إمارات ولها تضاريس متنوعة ومختلفة وغنية لكن وللأسف لم تجد هذه الثروة الهائلة من يتطرق لها أو يتلامس معها بالشكل العميق وبالصورة التي تستحقها أساساً. ويتابع الروائي أبو الريش موضحاً أن تراث الإمارات هو ضمن التراث العربي أساساً، وهذا التراث غني جداً بمعطياته وإنجازاته ومشاريعه الضخمة على مدى التاريخ، لكن وللأسف نحن ما زلنا نختزل التراث في وجوه سطحية وبسيطة، والتراث الحقيقي هو الإنسان، التراث هو الصحراء ونحن لم نتلامس كما ينبغي مع الصحراء حتى الآن، والصحراء هي بيئتنا الحقيقية وكل ما هو موجود الآن هو شيء طارئ أساساً، ونرى عندنا رافدين: الأول هو الصحراء، والثاني هو البحر. ونحن حتى الآن في الأدب لم نجد من يستطيع أن يتواصل مع هذا البُعد الصحراوي أو ذاك البُعد البحري، المشكلة نحن الأدباء الذين اختزلنا الثقافة بما هو موجود بالحاضر مع أننا بحاجة إذا أردنا أن نكون مواكبين للتطور الحاصل في بيئتنا، فلا بد من أن ننطلق من الماضي أساساً، لكن الكثير يخطئون أن اللجوء إلى الماضي لجوء إلى الثبات في الشيء القديم وهذا مغالط أساساً، وإذا لم نحترم ماضينا لن نستطيع أن نعيش حاضرنا الحالي كما هو أو المستقبل كما يأتينا، إذا أردنا أن نحترم حياتنا يجب أن نحترم الماضي وهو تراثنا.

في لقاء الروائية آن الصافي تقول: يوجد تنوع في التضاريس الجغرافية بدولة الإمارات العربية المتحدة من ساحل وجزر وصحراوات وواحات وجبال وأودية ومدن وقرى، ولكل موقع جماليات وتفاصيل بكل تأكيد تحفز على السياحة طوال العام مع خطط واستراتيجيات داعمة من الدولة. ربما هناك من كتب في أدب الرحلات، ولكنهم في الغالب مستشرقون، إن جاز التعبير ولا ينتمون إلى ثقافة المكان، أي إنهم ليسوا من الشعب الإماراتي أو من سكان الدولة اللصيقين بثقافتها.

وتضيف الصافي مشيرة إلى ما يرد في الكتابات السردية والشعر لكتّاب الدولة والوافدين والزوار من أماكن وتفاصيل تحتفي ببعض تفاصيل الأمكنة هنا، ولكن للأسف هناك قصور في أن يكون هناك تصنيف واضح لأدب الرحلات. وتقول: هذه المساحة في الكتابة مغرية جداً، كما نعلم هناك الكثير من الجوائز بالدولة ترصد لمكافأة أفضل الأعمال التي تتناول أدب الرحلات مجملاً. وربما وُجد من كتب في هذا الجنس الأدبي من كتّاب الدولة، ولكن عن أماكن في خارج الدولة.

وتتمنى الصافي أن يتم التشجيع في الكتابة في هذا الجنس الأدبي وتحديداً عن دولة الإمارات، وذلك بتقديم مبادرات ومشاريع على مستوى المدارس والجامعات، وكذلك لمن يشاء من المواطنين والوافدين وزوار الدولة. وتؤكد أن الكتابة في مجال أدب الرحلات عن دولة الإمارات العربية المتحدة سيحقق نتائج عدة إيجابية، أولها التوثيق واكتشاف جمالياتٍ عن طبيعة المكان وتفاصيله، إضافة إلى ثقافة سكان المكان وأهله. وهذا الأمر سيحقق نقلة

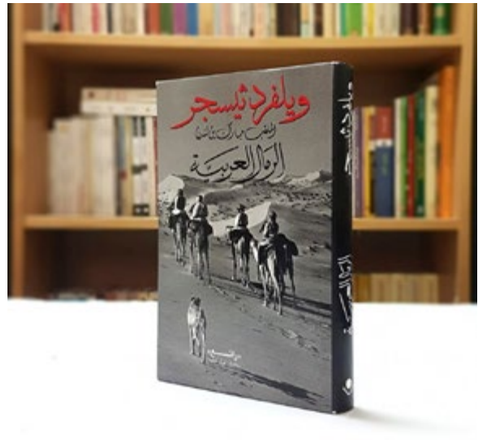

شيخة الجابري

علي أبو الريش

آن الصافي

عائشة بالخير

محمد أحمد السويدي

تلقائية مهمة تشهد لمسار الدولة في حقول عدة وبشكل تلقائي وأمين. ونبقى مع أدب الرحلات وكُتب التراث، وإن كانت قد أضاءت على تراث الإمارات بشكل خاص بهذا الأمر، ونستمع إلى رأي الشاعرة شيخة الجابري تقول: بالنسبة إلى المدونات أو كتب التراث التي قرأناها، لا تستطيع أن تجيب لكل مفردات التراث، أما الرحالة المستشرقون فإن ما ذكروه من زاويتهم هم وليس من زاوية إماراتية، ومعروف عنهم، إن كان لهم أهدافهم وأجندتهم، كيف يتناولون هذا الموروث وكيف ينظرون إليه، حتى العرب الذين كتبوا عن هذا التراث فإن بعض المفردات تأتي مشوهة، لأنهم لم يصلوا إلى المعنى الحقيقي لهذه المفردات. وأشارت الجابري إلى أهمية الكتابة عن تراث الإمارات، وهو شاسع ولا يمكن استيعابه بنظرة عابرة، وأكدت أن المشكلة في الكتابة عن التراث أننا نجد تكراراً، لأن الكل يكتب عن النخلة.. فلماذا هذا التكرار؟ ولو أن بعض كتب التراث ألقت الضوء بعمقٍ على بعضٍ من هذا التراث، ولكن لم تشمل كل كنوز التراث لأن التراث الإماراتي واسع، وكل قبيلة عندها تراثها، وكل مجتمع عنده تراثه. البدو عندهم تراثهم وأهل الساحل لديهم تراثهم، والريف أيضاً. لذلك نجد أن كل واحد عنده تراثه، ويجب أن تكون لديه صيغ معينة للتعامل مع هذا التراث، وما زلنا في حاجة كبيرة للمزيد من الدراسات وبعمقٍ لتراث الإمارات، ومن اللازم أن نعمل مقاربات مع تراث الإمارات والتراث العالمي، وفيه مشتركات كثيرة خاصة في الحكايات الشعبية فيما بيننا وبين الشعوب الأخرى خاصة في عادات الطعام والمعتقدات الشعبية، وهناك أشياء كثيرة مشتركة. لذلك نحتاج إلى دراسات تعمل مقارنة ما بين تراث الشعوب حتى نعرف أين نقف نحن؟ وكيف يمكن أن نتفاعل مع تراثنا بعض الشيء؟ وحول أدب الرحلة، أكدت شيخة الجابري أن الأدب الإماراتي متأخر بعض الشيء في الكتابة عن الرحلات وتأتي المبادرة الوحيدة والمهمة من الرحلات العربية فقط، وهي الأهم في أدب الرحلات لكنها مبادرة عربية نحتاج فيها للكشف عن رحلات جديدة خاصة للإمارات. وفي لقاء الدكتورة عائشة بالخير الباحثة في الأرشيف والمكتبة الوطنية، وحول أدب الرحلة والكتب الراثية والإضاءات التي شملت الثقافة في الإمارات تقول: الرحلة وارتحال الناس وسفرهم ونظرتهم لأشياء جديدة أكسبتهم الكثير من المعرفة واحترام الفن الذي رأوه في الخارج، وإن كثيرين ما قبل النفط زاروا لندن والهند والكويت وبعض الدول الأخرى وشاهدوا ما فيها من حضارة وبنيان كانوا يأتون بأفكار تلك التجارب التي بدورها أثّرت في البنيان أو الممارسات اليومية، وحتى لا يكون الأمر تقليداً للآخر بدؤوا يحافظون على هويتهم من أجل إقامة مقارنة بين الثقافات.

وأضافت الدكتورة بالخير قائلة: لكي تحافظ على الخصوصية في وطنك، وتعزز قيمته وتثبته ويكون هذا مثل كلمة "فديتك" من يسمعها يعرف أنك إماراتي. وهكذا في البنيان والذوق العام وطريقة تركيب الجمل، كلها تركت تأثيراتها بالرحلة. أما حول أدب الرحلة في الإمارات فتقول: أكيد أدب الرحلة بالنسبة للشعر وللرواية والقصة والبحث ما زال في بدايته وقليل من كتاب الإمارات الذين تناولوا أدب الرحلة بالشكل الكافي، غير أن الشاعر محمد أحمد السويدي أعطى هذا الأدب جل اهتمامه، ولكن بشكل عربي وعالمي وقد نشر بعض الرحلات لأدباء إماراتيين ومنهم سلطان العميمي، لذلك نحتاج من كتّاب الإمارات أن يتوجهوا لأدب الرحلة سواء رحلات داخل الإمارات أو إلى الخارج، وننقل ما يشبهنا في مدن العالم لأن اليوم أصبح الاهتمام في الاقتصاد المعرفي. وتلفت الدكتورة بالخير النظر إلى الرحالة بن لندن الذي تحدث عن الإمارات في كتابة "الرمال العربية"، لكن من وجهة نظره هو، كما أن بعض الرحالة الأجانب كتبوا عن الإمارات، لكن من نظرتهم هم وعلى الأدب عندنا أن يهتم بأدب الرحلة لأنه لا ينفصل عن بقية الأصناف الأدبية ■

* إعلامية وصحفية من سوريا

الذات الشعرية في قصائد الشاعر الإماراتي

عبد الله محمد السبب

أحمد حسين حميدان

يعتمد الخطاب الشعري على ضمير المتكلم في غالب الأحيان لأن الخطاب الشعري ينزع إلى الذاتية وأحادية الصوت كما يعبر يوري لوتمان[1] لكن ذاتية النزعة والصوت تستطيعان حمل الهم العام أيضاً وليس الخاص وحده. وما قدمه الشاعر الإماراتي عبد الله محمد السبب في قصائد مجموعته (كما لو أنني للتو)[2] استأثر بالهم الخاص وحده، وجاء مندرجاً ضمن الأعمال الشعرية المشبعة بالأنا الشاعرة المأزومة والمتأزمة من واقع تستيقظ أزماته الماضية لتحضر وتتواصل مع مكابداته الراهنة المتعاظمة ومن أجل هذا التواصل يأخذ بالجملة الشعرية (كما لو أنني للتو) التي اختارها عنواناً رئيسياً لعمله الشعري ليضعها في السطر الأخير فتصبح مدخلاً مركزياً لسائر القصائد وتصبح مرتكز الختام أيضاً.

الشاعر الإماراتي عبد الله محمد السبب

وهو بذلك يلجأ الى التدوير في حدثه الشعري الذي مضت فيه الذات الشاعرة إلى تعزيز مواقع تموضعها بعد أن جعلت فحوى معاناتها موضوعاً في المبتدى من خلال العنوان وصولاً إلى المنتهى المتمثل بآخر القصائد واستخدم الشاعر عبد الله السبب أداة التشبيه (كما) لمخاتلة الزمن وإلغاء الانقطاع في سيرورته باستمرارية الحدث فبعد انقضاء عقود من سنوات العمر يعلن الشاعر أن كل ما عاشه رغم كل ما مر من الوقت على ما يعكر صفو الحياة بقي حدوثه (كما لو أنه للتو) أي كما لو أنه حدث منذ قليل فلا شيء يقوى الغياب على أخذه من قوة الاسترجاع التي بفضل تقنياتها تستعيد القصيدة أهم الأحداث وتمسك بها من خلال الذاكرة لتحتفظ بها رغم سنواتها الغاربة من العمر وذلك بعدما حفرت عميقاً داخل الذات الفردية الشاعرة والتي جعلها عبد الله محمد السبب المحور في قصائده الشعرية. ومن الأهمية التنويه والإشارة قبل الخوض بعوالم الفضاء الشعري لهذه القصائد إلى أن (أنا) هذه الذات التي باتت موضوعاً مركزياً ووحيداً تجلت في السياق النصي وفق مظاهر ومستويات متعددة فمرة تأتي هذه (الأنا) بملامح حاضرة ومرة بملامح متلاشية كما تتجلّى على نحوٍ متعدد بصيغة الجمع وعلى نحو متضخم يشغل حيز المكان بكليته إلا أن الصورة التي تبدأ بالظهور عبرها إلى المتلقي، هي (الأنا) الماثلة بصيغة المفرد التي تبقى في إطار ملامحها الإنسانية المتعارف عليها وفي حيز قدراتها

البشرية المعتادة رغم ما يقع عليها وعلى صفاتها وحركتها من تصويريقوم على التخييل والانزياح الدلالي الذي اعتمد عليه عبد الله السبب وقدمها من خلاله في أولى قصائده قائلاً :

(قطرة ماء ملثمة
تشعّ ملحاً
ودمعاً
وظمأ
دمعة ماء نافقة
أنا ...)[3]

عبر هذا الفحوى يقيم الخطاب الشعري تناصاً مع الخطاب الديني ويتفق معه ويتقاطعان سوية في مسألة الخلق والتكوين حيث القول الإلهي (وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون[4]، وحيث القول الشعري الذي يجاريه في مائية هذا الخلق. لكن هذه المائية لا تكون في تراكيب قصيدته فراتية عذبة المذاق بل مالحة للدلالة بها على أزمات الواقع لذلك جاء استقدامها من بحر المعاناة والمكابدة ومن دموع العطش لحياة لائقة تتقلص فيها الخيبات والانكسارات التي أرهقت (أنا) الشاعر ومضت به إلى عزلة بدا فيها مسيّجاً بوحدته الخالية حتى من أحد يشكو إليه سوء طالعه من عيش لم تستقم في مرابعه الحياة. فيمضي قافلاً إلى مناجاة البحر بعد أن حدد في قصيدته انتسابه إليه وهو بذلك يشاطر القصة الإماراتية القصيرة الحنين والمودة لهذا البحر فاختاره ليفضي له دون سواه بوجعه المزمن مردداً على مسامع أمواجه دون تحفّظ :

(متعب
وأتاني الفراق
متعب
وافاني الصقيع
حالفني الغرق
متعب

يعتمد الخطاب الشعري على ضمير المتكلم في غالب الأحيان لأن الخطاب الشعري ينزع إلى الذاتية وأحادية الصوت كما يعبر يوري لوتمان، لكن ذاتية النزعة والصوت تستطيعان حمل الهم العام أيضاً وليس الخاص وحده. وما قدمه الشاعر الإماراتي عبد الله محمد السبب في قصائد مجموعته (كما لو أنني للتو) استأثر بالهم الخاص وحده

أضنتني المسافة
متعب
أيها البحر .. آآآه ...)[5]

إن هذا البوح الإنساني الوارد من الأنا الحاضرة من فردانيتها والمتجهة بنجواها الشاكية إلى الأمكنة وإلى عناصرها بدل التوجه بها إلى الآخر الإنساني تجعل آلامها متسمة بالذاتية وبعيدة عن الصفة العامة مادامت بقيت بمنأى عن الوجدان المشترك مع أي آخر إنساني وظلت منحصرة بصاحبها وبأناه الفردية التي على الغالب تعاني أزمة انتماء إلى الأنا الاجتماعية وبصيغتها الجمعية حسب تعبيركارل يونغ وما حملته الجملة الشعرية في قصائد عبد الله محمد السبب وما وشت به المعاني في تراكيبها يؤكد صحة ما توصلنا إليه ففي قصيدته (شهقتان والثالثة على أهبة الصهيل) لا يجد أحداً بعد البحر يشكو له حالته المتأزمة غير أناه فيصرخ: (يا أنا، ها أنا أختنق ...) وفي قصيدته (وميض الصاعقة عشر) لا يجد أحداً يقف معه سوى ذاته فيعلن: (ورائي أقف أنا ...)[6] وهو بما مضى إليه أبقى الأنا في هذه السياقات مطروحة بصيغة المفرد. وإذا كانت مدرسة كولريدج فصلت بين فعل الوهم في الصورة وفعل التخييل[7]، فإن الفعلين تداخلا معاً في تكوين الصورة الشعرية عند عبد الله محمد السبب وكان من مؤدى هذا التداخل تبدل صيغة المفرد لهذه الأنا وانتقالها على نحو متضخم لتظهر بصيغة الجمع وذلك من خلال اللعبة الموفقة

التي ألغى فيها الشاعر الحدود بين ضمائر الرفع المنفصلة مخاطباً أناه بضمير أنا، أنت، نحن... ويكون بذلك المفرد / الجمع وهو يردد:

(يا أنا
ها أنا أختنق
ها أنت تحترق
ها نحن نحتضر..)[8]

وينتقل عبد الله السبب بعدئذٍ من لعبة الأسماء والضمائر إلى لعبة الملامح في المرآة النفسية ليجد على صفحتها الكثير من الوجوه وحين يتفحصها تستولي الأنا على كل هذه الوجوه ويجد أمامها لا مناص من القول والاعتراف وهو يبصرها:

(في المرآة وجوه
وجهي إحداها
والبقية .. وجوهي الأخرى..)[9]

من خلال هذا التعبير الشعري الذي يغلب عليه السياق الذهني تتضخم عند عبد الله السبب الذات الفردية عبر أناه الشاعرة متكئاً في ذلك على عدسة التخييل التي أعطت هذه الذات مداً فبدت بملامح مضاعفة وحين داخلها الوهم بدأت تظهر ضمن السياق بملامح أخرى تميل فيها نحو التضاؤل البالغ حد الريبة والغياب ففي الوقت الذي كانت فيه هذه الذات تدفع أناها المشبعة بالتضخم للسؤال في قصيدة أصابع :

(أي المدائن تسع وجهاً يشبه وجهي.. وجهي مدينة موبوءة بأمنيات..) تتراجع في قصيدة صافرة لتقول: (شبح أنا...) وتقول في قصيدة أصابع: (أمشي خلف ظهري أبحث عن وجهي...)، وفي قصيدة شهقتان والثالثة على أهبة الصهيل تقول: (المرأة ترجمني، لست أدري مَنْ أنا .. ها هو أنا، مازلت أبحث عني !..)[10].

عبر هذا التلوين لمظاهر ملامح (الأنا) يقدم عبد الله السبب انعكاس أزمات الواقع المزمنة على الذات الإنسانية معتمداً على الذاكرة كمصدر رئيسي لحدثه الشعري وهو بذلك يقيم جسراً يوصل من خلاله . وعبر تقنية التذكر. الأزمنة الماضية والحاضرة في راهن المستقبل مؤكداً على ذلك من المدخل الرئيسي لقصائده المتمثل بالعنوان المركزي (كما لو أنني للتو) فما عكر عليه صفوه الحياتي منذ زمن بعيد يعود للحدوث كما لو أنه حدث منذ قليل وكأن ما يجرح واقع الحياة ويؤزّمها هو دائم الحدوث وبهذه الديمومة يمحو عبد الله السبب التاريخ الفاصل بين ما قبل ميلاد أناه وما بعده فيقول في قصيدة اشتهاء: (الساعة الآن، الثانية عشرة قبل الميلاد، أيقظيني حين أولد !..)[11].

إنه بهذا التعبير المجتهد في دلالاته يساوي بين الأنا الإنسانية

المغيبة بمعاناتها الدائمة وبين وجودها العدمي قبل الولادة ففي الحالتين هي غائبة عن الحياة!. وإذا كان أرسطو قد رأى بأن الشاعر عليه أن يقول ما لم يقله أحد، فإن الشاعر الإماراتي عبد الله محمد السبب إضافة إلى المعاني المجتهدة التي أيقظها في تراكيبه السابقة التي ذكرناها، فإنه سلك مسالك متعددة عليها تصل به إلى قول هذا المختلف ليتميّز به عمن سواه. فاستخدم تقنية التضاد ليستولد منها صوراً وتراكيب مستحدثة كقوله في قصيدته التي استأثرت بعنوان مجموعته الشعرية: (في ليلة زاهية الغبار..) وكقوله في قصيدة الطواف حول الذاكرة: (سأفقدني هذه الليلة .. ضباب يقضم أشرعتي..)[12]. فاستخدم البهجة في الشطرة الأولى ليجعلها زينة من نصيب ليلة يعتريها الهم والضيق المرموز له بالغبار. بينما في الشطرين الآخرين يستعير الأنياب القاضمة للضباب المعروف بنعومة رذاذه عند أي ملامسة له باعتباره بخار ماء.. ويوغل الشاعر عبد الله السبب أكثر للخروج عن المألوف كقوله بصور وتراكيب أخرى:

(في فمي ملعقة ضوء، الأسود يغمض يديه، ربثما أظفر بملائكة النعاس أقلم أظافر رغباتي وأنام، أحمل ذاكراتي المبللة بالصمت والغبار....)[13]. ونستطيع القول من خلال الأمثلة السابقة إن هذه الصور ليست على درجة واحدة من الجودة وبقيت في مجملها رهن التباين. ففي الوقت الذي تبدو فيه الصورة متسمة بالجودة والابتكار في: أقلم أظافر رغباتي وأنام، وفي فمي ملعقة ضوء، يتراجع وهج الصورة بـ : وفي ليلة زاهية الغبار التي أشرنا إليها من قبل وجاء استخدام الغبار لبلل الذاكرة في صورة أخرى أكثر

تألقاً من استخدامه السابق للزهوّ في ليلة الضيق والمعاناة. وفي موضع آخر تأتي مفارقة الشاعر السبب للمعنى الذي يمضي إليه في قصيدته (هو البوح بمحاذاة السؤال) بما لا يناسب مقاصده، وخصوصاً في قوله:

(بين دفتي هذا العراء
ضبابي أنا
بحجم البؤس
حتى حدود الظن..)[14]

فرغم يقينية حجم البؤس الكبيرة التي تفيض بدواخل (الأنا) يعقبه الشاعر بحدود الظن التي لا تتماثل مع درجة اليقين بحجم البؤس. ولعل أخطر مغامرة يُقدم عليها عبد الله السبب تكمن في القصائد التي قام بها عبر الكلمات المتشابهة الحروف، ومن خلال العبارات المتشابهة في تراكيبها فيقوم بتجزئتها وإيراد بعض منها في شطر ثم يوردها كاملة في الشطر التالي كقوله في قصيدة وضوء:

(ليس
ليس لدي
ليس لدي شيء
لا شيء لدي
لا شيء
سوى
مقص ومسطرة
وقصاصة
وقصة
ورقصة رقيقة ..)[15]

لو تأملنا جيداً هذا المقطع القائم على اللعب باللغة سنجد التكرار جراء التجزئة لشطرة (ليس لدي شيء) والسؤال الذي يفرض وجوده هنا ما الفائدة وما الإضافة التي حققها الشاعر من إيراد هذه الشطرة ناقصة قبل إيرادها كاملة؟. سنجد ليس ثمة إضافة تذكر. ثم ما الإضافة التي يمكن أن تتحقق في إيراد الشطرة مختصرة طالما مبنية بالكلمات نفسها وطالما أنها ترشح بذات المعنى كالقول: (لا شيء لدي) فهي لا تضيف أي جديد على معنى الشطرة التي قبلها: (ليس لدي شيء ..) والمسألة عينها تشمل الكلمات المتشابهة الحروف فجمال إيرادها مرهون بمقدار ما تقدمه من إضافة تُغني به النص الشعري واستطاع الشاعر عبد الله السبب تحقيق بعضه بما أورده من هذه الكلمات المكررة الحروف جراء إنجازه عبرها مفارقات بالمعنى. وتبدو مغامرته القائمة على تكرار التراكيب الشعرية مقامرة خطرة غير مأمونة لأن الشعر في مبناه قائم على خلاصة اللغة واستقطارها شريطة بلاغة الصورة المؤدية إلى تكاثر المعنى الذي تحمله الجملة في تراكيبها الشعرية.

* كاتب وأديب من سوريا

الهوامش:

1. تحليل النص الشعري، بنية القصيدة، يوري لوتمان،ترجمة الدكتور محمد فتوح أحمد، دار المعارف، القاهرة 1995م.
2. كما لو أنني للتو، مختارات شعرية، عبد الله محمد السبب، وزارة الثقافة والشباب وتنمية المجتمع، الإمارات العربية المتحدة، أبوظبي 2013.
3. المرجع السابق نفسه، قصيدة (كما لو أنني للتو) ص 10.
4. القرآن الكريم، سورة الأنبياء،آية رقم 30.
5. كما لو أنني للتو، مختارات شعرية، عبد الله محمد السبب، قصيدة ضوء، ص 11.
6. المرجع السابق نفسه، قصيدة شهقتان والثالثة على أهبة الصهيل، ص23. وقصيدة وميض الصاعقة عشر، ص 33.
7. جدلية الخفاء والتجلي، دراسات بنيوية في الشعر، كمال أبو ديب، دار العلم للملاين ط2، بيروت 1984م.
8. كما لو أنني للتو، مختارات شعرية، عبد الله محمد السبب، قصيدة شهقتان والثالثة على أهبة الصهيل، ص 23.
9. المرجع السابق نفسه، قصيدة أصابع ص 40.
10. المرجع السابق نفسه، قصيدة أصابع ص 42، وقصيدة صافرة، ص 12، وقصيدة شهقتان والثالثة على أهبة الصهيل، ص 22.
11. المرجع السابق نفسه، قصيدة اشتهاء، ص 25.
12. المرجع السابق نفسه، قصيدة كما لو أنني للتو، ص 10، وقصيدة الطواف حول الذاكرة، ص 20.
13. المرجع السابق نفسه، قصيدة اشتهاء، ص25، وقصيدة انسلاخ، ص26. وقصيدة صوت النار، ص 38، وقصيدة صافرة، ص 12.
14. المرجع السابق نفسه، قصيدة هو البوح بمحاذاة السؤال، ص 17.
15. المرجع السابق نفسه، قصيدة وضوء، ص 54.

إصدارات

سرديات من التراث الشفاهي الإماراتي

«سلسلة نماذج مختارة من إصدارات مركز زايد للدراسات والبحوث»

موزة عويص علي الدرعي

يسعى قسم الدراسات والبحوث في مركز زايد للدراسات والبحوث التابع لنادي تراث الإمارات، إلى تحقيق أهداف القسم من خلال الاهتمام بالنشر في موضوعات تتعلق بتراث الدولة وتاريخها بشكل خاص ومنطقة الخليج والجزيرة العربية عموماً، وقد ترجم المركز هذا الهدف إلى واقع ملموس، ونجح عبر مسيرته الطويلة في إصدار المئات من الكتب والدراسات في حقول التاريخ عبر مراحله الزمنية المختلفة، وفي مجالات التراث الثقافي والشعر النبطي والفن والأدب، والتراث المادي والألعاب الشعبية والعمارة التراثية وغيرها، وتأتي هذه السلسلة المنشورة عبر مجلة تراث تحت عنوان «سلسلة نماذج مختارة من إصدارات مركز زايد للدراسات والبحوث»، لتستعرض نماذج من تلك الإصدارات المختلفة بهدف تعريف القارئ بمحتواها، ولإبراز دور المركز الثقافي وجهوده الكبيرة والمميزة في توثيق عناصر التراث الوطني والعربي والإسلامي، وفي الحفاظ على تاريخ الدولة وتراثها من الاندثار عبر تلك الإصدارات المهمة التي تعكس رؤية المركز ورسالته وأهدافه باعتباره مركزاً وطنياً رائداً في حفظ تراث الوطن وتاريخه.

في هذا العدد تتناول السلسلة، الكتاب المعنون بالتالي: (سرديات من التراث الشفاهي الإماراتي)، وهو من أحدث الإصدارات التي صدرت مؤخراً عن المركز في نهاية عام 2022، إذ صدرت الطبعة الأولى منه ودُشنت في معرض الشارقة الدولي للكتاب في دورته الـ (41) والمنعقدة في الفترة ما بين 2 - 13 نوفمبر/ تشرين الثاني 2022. والكتاب من تأليف الصحفي الفاضل يوسف أبو عاقلة.

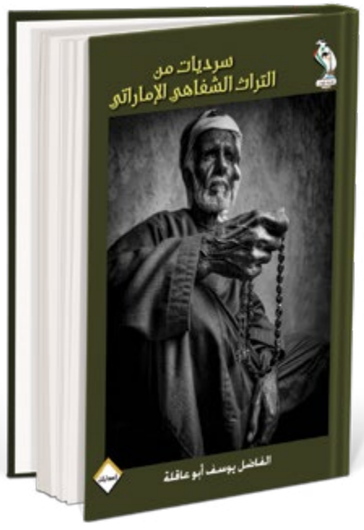

الكتاب وأهميته:

يتناول هذا الكتاب بين صفحاته، جانباً مهماً من جوانب التراث والتاريخ الشفاهي والاجتماعي والثقافي والموروث الشعبي الإماراتي،إذ خصص الباحث كتابه لمجموعة من السرديات عبر حوارات أجراها مع العديد من الشخصيات والرواة الذين عاصروا مرحلة ماقبل النفط وما بعده، وتدور موضوعاتها حول تفاصيل تراثية، واجتماعية ورياضية وتجارب إحياء التراث من خلال شهادات العديد من الرواة والشخصيات التي التقاها المؤلف، ما يعد توثيقاً مهماً للعديد من الجوانب المختلفة والقيم والعادات في المجتمع الإماراتي. كما يأتي هذا الكتاب لتأكيد أهمية جمع المواد الصحفية التراثية بين دفتي كتاب.

قراءة ونبذة مختصرة لمحتوى الكتاب:

الكتاب يقع في (181) صفحة، من القطع المتوسط، وقسّم إلى خمسة مباحث أو سرديات بالإضافة إلى مقدمة وقائمة بالمراجع التي اعتمد عليها المؤلف، وقد جاءت عناوين الكتاب كالتالي:

ملامح من تراث الإمارات

وفيه تطرق المؤلف إلى خمسة موضوعات تحمل عبق الماضي وملامحه التي مازالت تروى وهي:

الموضوع الأول: حكايات الظعن: تناول فيه مفهوم الظعن، الذي يعني الذهاب والسير، والبدو كانوا إذا ارتحلوا من موضع قالوا «شدوا» أو «ظعنوا». ففي الشتاء كان البدو يتنقلون من

مرعى إلى آخر بحثاً عن الأماكن التي اخضرت بسقوط الأمطار، لكي يتمكن حلالهم من الرعي مع المحافظة على السكن قرب موارد المياه، وفي الصيف «القيظ» تكون الرحلة إلى «المصايف» وهي المكان الذي يقضي فيه السكان فصل الصيف هرباً من الساحل. وما بين تلك الرحلات تطرق المؤلف إلى أهم الوسائل المستخدمة قديماً في تلك الرحلات، والمتمثلة في الإبل والسفن الخشبية، والدواب مثل الحمير، وكذلك القوارب الخشبية الصغيرة. وقد استشهد المؤلف بعدد من الروايات الشفهية عن تلك الرحلات التي تصف طريق الرحلة والتجهزات التي تتم لها وخط السير والمدة الزمنية للرحلة ودور العنصر النسائي في تلك الرحلات وغيرها من الأمور. كما تطرق إلى أشهر مناطق المقيظ في الإمارات والمتمثلة في واحات مدينة العين، و«البراحات» التي اشتهرت بوصفها مقايظ في بعض المدن الساحلية. ومن أكبر البراحات المعروفة في أبوظبي منطقة «البراحة»، وفي دبي «أم سقيم» و«أبوهيل» وغيرها. وفي الشارقة «المرقاب» و«النباعة». وتناول الصحفي الفاضل يوسف أبو عاقلة محاور أخرى في هذا الموضوع والمتمثلة في رحلة العودة من المقيظ والقنص وغيرها الموضوعات المرتبطة بالظعن.

الموضوع الثاني: «الدرور»..حساب فلكي ابتكره الأجداد

نظراً لما تمثله الظروف المناخية من تغيرات مرتبطة بحركة السكان وتحديد رحلات الصيد والغوص ومواسم الحصاد

وغيرها من الأمور المعيشية، كان من المهم معرفة مواقع النجوم لتحديد حركة الطقس ودخول الشتاء ومواسم العواصف أو انقضائها وتعامد الشمس، ومن ذلك ابتكر الأجداد حساباً فلكياً يسمى «حساب الدرور»، وهو حساب فلكي قديم يعتمد على تقسيم أيام السنة بشكل عشري إلى (36) قمساً، كل قسم عشرة أيام تعرف ب «الدر» ويبدأ بطلوع نجم سهيل عند منتصف شهر أغسطس من كل عام. وفي هذا الموضوع التقى المؤلف بأحد المهتمين بالدرور وحساباتها وتطرق إلى مسمياتها وتقسيمها المختلفة بل وإلى اختلافها باختلاف المناطق ومواقع أرضهم بالنسبة إلى النجوم.

الموضوع الثالث: المعتقدات الشعبية وتأثيرها في النسق الاجتماعي

تناول مُعد هذا الكتاب، جانباً مهماً في الحياة الفكرية للمجتمع وذلك من خلال التطرق إلى المعتقدات الشعبية، ومدى تأثير تلك المعتقدات والمأثورات المتوارثة والمترسخة في الأذهان في تكوين شخصية أفراد المجتمع وحياتهم وتوجهاتهم سواء أكانت دينية أم اجتماعية أم تربوية أم غيرها. كما تناول من خلال العديد من المقابلات مع أهل الخبرة والاختصاص جملة من المعتقدات الشعبية التي مازالت راسخة في الأذهان والتي تحمل في طياتها الكثير من القيم والأهداف التربوية والاجتماعية مثل الالتزام بالأوامر والقوانين وتطبيق النظافة والبُعد عمّا يضر الإنسان وغيرها.

الموضوع الرابع: الألعاب الشعبية ودورها في إعداد النشء:

إذ إن الألعاب الشعبية تلعب دوراً مهماً في إعداد النشء وتعلم معاني الاعتماد على النفس وحب المعرفة والصبر والمثابرة، وتنمية القدرات البدنية والذهنية، متطرقاً إلى بعض تلك الألعاب والرياضات ومُعرفاً ببعض الألعاب الخاصة بكل من الذكور

والإناث، وأنواع الألعاب بكل بيئة من البيئات في الإمارات، فكل الألعاب تستمد خصوصيتها من طبيعة الحياة والجذور التاريخية لها وتعبر عن وجدان الشعوب.أما في الموضوع الخامس، فقد خصصه المؤلف للحديث عن اللؤلؤ تحت عنوان : «اللؤلؤ».. حكايات البحر ولهفة العائدين.

أماكن

واشتمل هذا المحور على ثلاثة من السرديات ذات أهمية ومكان في التاريخ الإماراتي والمتمثلة في «إسطبلات ورسان.. قصة بدأت بثلاثة خيول»، والتي نقل فيها الصحفي الفاضل أبو عاقلة ما شاهده في تلك الإسطبلات واللقاءات التي جمعته بموظفيها وما أدلوا به من استراجاع لبداية تأسيس «ورسان»، والرؤية العميقة والفكر الثاقب للمغفور له الشيخ سلطان بن زايد آل نهيان، والطراز المعماري التراثي القائم في الإسطبلات، والمستشفى البطري المتطور الذي تضمه والذي يُوفر العناية الكاملة بالخيول، وكانت إسطبلات ورسان قد حصدت على مدى سنوات نتائج مبهرة ومميزة في سباقات الخيول، ولا غرو في ذلك إذ إنها تعد موطناً فريداً لأفضل سلالات الخيول العربية الأصيلة.

أما المكان الثاني الذي تطرق إليه ضمن هذا المحور فكان بعنوان «القرية التراثية... كوّة ننظر منها إلى تلك الأيام»، والتي تعتبر اليوم من أبرز المعالم التراثية والسياحية في أبوظبي، والجدير بالذكر أن القرية التراثية افتتحت رسمياً في العشرين من إبريل/ نيسان 2001 في منطقة كاسر الأمواج، وقد أنشئت لتحقيق أهداف «نادي تراث الإمارات» الاستراتيجية، في تعزيز الهوية الوطنية بين النشء، وتعريف ضيوف الدولة من المقيمين والسيّاح بتراثها الثري، إذ تزيد مساحتها على 16 ألفاً و80 متراً مربعاً، وقد صُممت وفق الطراز المعماري التقليدي المميز والفريد، وتضم العديد من المرافق والأنشطة وجملة من الأركان والبيات التي تعكس حياة مجتمع المدينة قديماً، فضلاً عن «المنطقة الأثرية» و«البارجيل» والسوق الشعبي والمشغل النسائي. هذا إلى جانب وجود ذلك البُعد الروحي الإنساني المتمثل في «مسجد القرية»، المشيد على طراز العمارة الإسلامية التقليدية.

والقرية اليوم أصبحت مؤسسة متكاملة فاعلة، ضمن منظومة من النشاطات، تقوم إداراتها على تنفيذها، تحت مظلة العمل على تحقيق تطور دائم، ينسجم مع التقدم المتسارع للمجالات كافة في الدولة والعالم، لمواجهة التحديات التي يتعرض لها التراث والهوية.

أما «واحة العين رحلة بين أفلاج المياه والتاريخ» فقد خُصص لها هذا الجزء الثالث والأخير من موضوع الأماكن، إذ تُعد واحة العين أول موقع إماراتي مُدرج على قائمة اليونسكو للتراث العالمي، كما صُنفت بوصفها أحد النظم التراثية الزراعية المهمة على الصعيد

العالمي. وفي هذا الجزء تطرق المؤلف إلى عدد من الموضوعات التي وثقها من خلال مقابلته للمتخصصين وأصحاب الخبرة والمتمثلة في نظام مزارع النخيل والتلقيح ونظام الري، إلى جانب نظام العمل في الواحة قديماً، وطبيعة الأرض وطيور الواحة، ونظام الزراعة وعادات مجتمع الواحة، هذا إلى جانب تسليط الضوء على نظام البناء التقليدي والتبادل التجاري.

حديث الذاكرة

في هذا المحور، تم تسليط الضوء على عدد من الشخصيات التي أجرى المؤلف معها لقاءات صحفية وحاورها، ومن تلك الشخصيات: سعيد بالحطم العامري، ومسلم بن حم العامري، وخالد بن طناف المنهالي. متناولاً موضوعات متعددة اشتملت على أمور القنص والصيد ورحلات المقناص، واهتمام الشيخ زايد - طيّب الله ثراه - بالتراث وتشجيعه له، والمبادرات المجتمعية المقدمة وغيرها من الموضوعات.

الإبل

تشكل الإبل خصوصية فريدة لدى أهل شبه الجزيرة العربية، وكانت الإبل نعم العون والرفيق للإنسان في الخليج العربي كافة، والإماراتي خاصة، عبر أزمنة متلاحقة وباتت جزءاً لا يتجزأ من الموروث الثقافي للدولة على مرّ العصور.

وفي هذا المحور تم رصد شهادات موثقة لعدد من الشخصيات البارزة في مسيرة الإبل في الدولة، منذ ما قبل قيام الاتحاد، وما يخصها من أنشطة ومهرجانات وصولاً إلى المحافل الدولية، وأبرز محطات التحول في مسيرة الإبل في تاريخ الإمارات المعاصر.

التراث وثراء الإبداع

في هذا الجانب تناول المؤلف من خلال محاوراته واستطلاعاته ولقاءاته المتعددة، موضوعات عدة تتصل بالتراث والإبداع فيه ومنها: «التراث والسرد: حضور متعدد المستويات»، وذلك من خلال تساؤل تم طرحه على مجموعة من الكاتبات الإماراتيات، وكان التساؤل كالتالي: أين هو موقع التراث في خريطة الأدب الإماراتي؟ وهل هو التربة التي ينبت منها خيال الكاتب، فيصير محيطاً بطقس الفعل الأدبي؟ أم يكمن - التراث - في التفاصيل التي يقيم بها الكاتب معمار أدبه؟ كما تم التطرق إلى موضوع الهوية والتراث والانفتاح والأدب الإماراتي.

واشتمل هذا المحور أيضاً على موضوع «التصميم روح التراث عند شيخة العلي»، وكذلك «عامر آل علي ..مصور إماراتي شغفه التراث» و«حوار مع يعقوب السعدي: قناة ياس تمثل هوية الإمارات».

وجاء هذا الكتاب مدعماً بالكثير من الصور الفوتوغرافية التي وثقت للعديد من الموضوعات المطروحة، فكما يقول المصور الأمريكي سيف ماكوري: «الصورة إيقاف الزمن وحفظ اللحظة، ورميها في سلة الذكريات السعيدة». ويمكن القول إن تلك السرديات التي تناولها الكتاب بين دفتيه تشكل إضافةً مهمةً للمكتبة الإمارايتة ورافداً مهماً لها، وخاصة فيما يتعلق بالتراث وجوانبه المختلفة ■

* مركز زايد للدراسات والبحوث

خليل عيلبوني

ذكريات زمن البدايات (11) «جبل الظنة»

خليل عيلبوني

تردد في سمعي منذ الأيام الأولى لوصولي إلى أبوظبي عام 1971 اسم «جبل الظنة»، خاصة أنه موقع لتخزين البترول الخام المنتج من المناطق البرية وتصديره عبر ميناء يحمل اسم الجبل نفسه «جبل الظنة». تشوّقت لزيارة الموقع، وتسجيل حلقة خاصة لبرنامج «الذهب الأسود» الذي بدأت أعده وأقدمه منذ بداية فبراير 1971 في الإذاعة والتلفزيون.

لقد حانت الفرصة عندما قامت «شركة نفط أبوظبي المحدودة» بدعوة معالي الدكتور مانع سعيد العتيبة، وزير البترول والصناعة لإمارة أبوظبي في عام 1971 لحضور الاحتفال بتصدير الطن رقم مئة مليون من بترول المناطق البرية. كانت الطريق إلى جبل الظنة تبدأ من «المفرق» بعد جسر «المقطع»، وقد سمي «المفرق» لأنه من ذلك الدوار تمتد طريق إلى طريف وجبل الظنة والسعودية وقطر، والطريق إلى العين والطريق إلى دبي. ولم تكن الطريق المعبدة من المفرق إلى طريف وجبل الظنة قد اكتملت، بل مازالت في بدايتها وكان لابد من مرافقة معاليه في إحدى سيارات الدفع الرباعي للتمكن من تجاوز الطرق الرملية التي لا تستطيع سيارات الصالون العادية تجاوزها. ولم يكن يمكن أن نحضر الاحتفال ونعود في اليوم نفسه بل كان لابدّ من المبيت في بيت الضيافة التابع للشركة في جبل الظنة. تهيأت نفسياً لرحلة لا تخلو من المغامرة ومملوءة بالإثارة. وبرغم الانطلاق المبكر في الصباح فإننا لم نتمكن من قطع الثلاثمئة كيلومتر التي تفصل ما بين أبوظبي وجبل الظنة إلا في حدود الثانية بعد الظهر. وعندما لاحت خزانات البترول الضخمة من بعيد سألت معاليه: أين الجبل؟ قال: ذاك هو، حيث الخزانات.. هذا جبل الظنة؟ ضحك معاليه قائلاً: هذا المرتفع نسميه جبلاً مجازاً، واخترناه لوضع الخزانات فوقه للتمكن من تفريغ الخام منها إلى الناقلات الرأسية في الميناء بفعل الجاذبية الأرضية، وبرغم أن ارتفاعه بسيط فإنه يقوم بالمهمة على أكمل وجه. وتذكرت اللحن المميز لبرنامجي «الذهب الأسود» في الإذاعة حيث كان صوت المرحوم جابر جاسم يتغنى بالذهب الأسود وجبل الظنة.

الذهب الأسود ثروتنا للخير لعز إمارتنا زايد سهران لنهضتنا يعلي أركان البنيان وسلاماً ياجبل الظنة يأتينا الخير بلا منّة، فضلاً من عند الرحمن، كان الموقع مهماً، بل من أهم المواقع التي يشرف على حراستها رجال خبراء أشداء تابعون لوحدة حماية منشآت النفط. خزانات تختزن الخير والثروة، يصب فيها النفط الخام المستخرج من الحقول البرية في «باب» و«بو حصا» و«حبشان»، من خلال خطوط أنابيب تمتد عبر الرمال من مجمعات آبار تلك الحقول إلى موقع الخزانات في جبل الظنة. كانت البيوت التي يقيم فيها العاملون والمهندسون في جبل الظنة مزودة بكل وسائل الراحة وخاصة أجهزة التبريد التي تجعل منها في أشهر الصيف ملاذاً ممتعاً للساكنين فيها بعد انتهاء ساعات عملهم. رافقنا معاليه ومديري الشركة والمهندسين في مركب (دوبة) أقلتنا إلى أضخم ناقلة نفط شاهدتها، بل أعترف أنها كانت الناقلة الوحيدة التي رأيتها في حياتي في ذلك التاريخ الذي كنت ألامس فيه سن الثلاثين. أذهلتني ضخامة الناقلة، ولم أكن أتصور أو أتخيل أن هناك سفناً بهذا الحجم يمكن أن تصل إلى ذلك الموقع. أدركت وأنا أتجول مع معاليه أن مدينة عائمة بكاملها قد بنيت فوق تلك الناقلة التي كانت صاحبة الحظ في حمل الطن رقم مئة مليون. مازلت أحتفظ بتسجيل نادر لكلمات معالي الدكتور مانع سعيد العتيبة فوق ظهر تلك الناقلة بصوته ومازالت تلك الكلمات صالحة لأن تقال في هذا الزمن برغم مرور أكثر من تسعة وثلاثين عاماً عليها. «ثروة النفط التي حبانا بها الله سبحانه وتعالى، وكما يقول القائد صاحب العظمة الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، هي ثروة مسخرة لخدمة الشعب وبناء النهضة للأجيال القادمة». في تلك الرحلة الجميلة كنا برفقة عدد من المسؤولين من وزارة البترول والصناعة أذكر منهم: الشيبة سعيد الهاملي، وعبد الله إسماعيل، وصالح عكاشة، وحارب المهيري، ومحمد الراشد، ومحمد السطري. وكان للبحر أمام جبل الظنة منظر يغري من يراه على السباحة أو صيد السمك، وبرغم أن المنطقة كانت ملموءة بالخزانات والأنابيب الطافحة بالنفط فإن الشواطئ كانت نظيفة والمياه صافية إلى الدرجة التي تستطيع أن ترى فيها بوضوح قاع البحر لمسافة بعيدة. وكانت الرحلة من الإمتاع إلى درجة جعلتني أرى منطقة جبل الظنة وميناءها كأنها نسخة جميلة للجنة. وقد شجعتني هذه الرحلة فيما بعد على تكرارها مرات عدة، بل قمتُ بترتيب رحلات لطلاب وطالبات أبوظبي للتعرف على واقع الصناعة النفطية في البلاد من خلال هذا الموقع «جبل الظنة» وقمت بتسجيل هذه الرحلات بالصوت والصورة وإذاعة ما سجلت من خلال إذاعة أبوظبي وتلفزيونه، طبعاً بعد اكتمال تعبيد الطريق بين المفرق وجبل الظنة، وهو ما مكننا من القيام بالرحلة والعودة في اليوم نفسه. وكان المهندسون المشرفون على الخزانات والميناء يتفضلون بتقديم الشروح عن سعة كل خزان وعن خطوط الإنتاج التي تصل إليها، ويقومون بالإجابة عن أسئلة الطلبة المتشوقين للتزود بالثقافة البترولية ومعرفة واقع ثروة أبوظبي النفطية. في ذلك الزمان الجميل، كان موقع جبل الظنة متفرداً لا تحيط به إلا رمال لا حدود لامتدادها وصحراء لا نهاية لها. اليوم امتلأت المنطقة

بالقرى والمدن، وشمخت الأبنية وامتد اللون الأخضر ليغمر الرمال الصفراء ويلون الحياة التي ازدهرت ونمت بفضل ذلك الخير العميم المنبثق من أعماق أرضنا الطيبة خير الذهب الأسود: النفط. عندما قمت بتلك الرحلة في عام 1971 لم أشاهد طوال الطريق من المفرق إلى جبل الظنة أي علامة من علامات وجود الإنسان على الرمال حتى بانت خزانات جبل الظنة ومنشآت الإنتاج وسكن العاملين. حتى الذين كانوا يسافرون براً من أبوظبي إلى السعودية أو قطر كانوا مضطرين إلى حمل جالونات إضافية من الوقود لعدم وجود محطات التعبئة التي انتشرت الآن بشكل لافت للانتباه ومريح للجميع، بل إنها أصبحت بمنزلة محطات استراحة يستطيع فيها المسافرون الحصول على قسط من الراحة والتمتع بوجبات الغذاء الجيدة والساخنة والمشروبات المتنوعة. كثير من الروايات رُويت لنا في ذلك الزمن عن الذين تاهوا في الصحراء بعد أن تعطلت سياراتهم وتعرضوا للموت عطشاً أو كانوا محظوظين بوصول نجدات الإنقاذ إليهم في اللحظة الأخيرة. ولعل هذا ما جعل شركة نفط أبوظبي المحدودة تستعين بسائقين من أهل المنطقة الذين لا يمكن أن يضيعوا أو يتوهوا في الصحراء لأنهم موهوبون في معرفة الاتجاهات والأماكن. وقد تمكنت من معايشة خبرة هؤلاء من خلال الرحلات التي كنت أغوص فيها في الرمال وفي الاتجاهات جميعها لأتمكن من الوصول إلى آبار البترول في الحقول البرية وتصويرها. كان السائق يسير فوق الرمال، لا أثر يدل على وجود طريق ولا إشارة تشير إلى موقع، ولكنهم كانوا يسبحون بسيارات اللاندروفر فوق كثبان الرمال ويصلون إلى المواقع المحددة دون أي خطأ أو حتى تطويل للطريق. وقد ظهرت خبرة هؤلاء فيما بعد في رحلات القنص التي رافقت فيها معالي الدكتور العتيبة في باكستان والمغرب، فقد كان لديهم في عيونهم وعقولهم ما يشبه الرادار أو البوصلة فيصلون إلى أي موقع ينطلقون منه حتى لو كانت العودة إلى الموقع في ظلام الليل. في هذا الزمن، جميع المواقع البترولية أصبحت نقاطاً مضيئة على شبكة من الطرق المعبدة تجعل الوصول إليها أمراً سهلاً وميسوراً. ولكن رغم ذلك، ظل للرحلة الأولى التي قمت بها إلى جبل الظنة في عام 1971 ذكرى لا تنسى وطعم لا مثيل لمذاقه ■

* إعلامي وشاعر

كتاب: الألعاب والألغاز الشعبية في الإمارات العربية المتحدة لنجيب عبد الله الشامسي

جذور تراثية عميقة وهدهدات رائعة

هيثم يحيى الخواجة

صدر كتاب الألعاب والألغاز الشعبية في الإمارات العربية المتحدة عام 1991، وهي الطبعة الأولى، حيث أصدر المؤلف بعد هذه الطبعة طبعتين الأولى عن مؤسسة المسار للدراسات والنشر في الشارقة، والثانية عن نادي تراث الإمارات في العين ويتضمن الكتاب مقدمة وأربعة فصول احتوى الفصل الأول سمات وخصائص الألعاب الشعبية، وفي الفصل الثاني تحدث المؤلف عن الأبعاد التعليمية والتربوية والنفسية للألعاب الشعبية، أما الفصل الثالث فتمحور حول تصنيف الألعاب الشعبية، وخصص الفصل الرابع للحديث عن الألعاب الشعبية والتفصيل في كيفية ممارستها. ومن البديهي القول: إن الكتاب يعد مرجعاً مهماً بموضوعه، فقد قدم فيه المؤلف جهداً واضحاً لكي يلم بغالب الألعاب الشعبية التي يمارسها الشباب والأطفال في دولة الإمارات العربية المتحدة.

ولا ريب في أن الألعاب الشعبية تمثل جزءاً من تراث الأوطان، هذا التراث الذي يعكس أموراً كثيرة تنبي عن مستوى الوعي وتعرف إلى مستوى التفكير كما تعكس الوضع الاقتصادي والعلاقات الاجتماعية والإنسانية. ففي الألعاب سلوكيات تربوية وأشعار شعبية هادفة، ودلالات لما يعانيه الإنسان ولما يطمح إليه.

«ولا بد من الإشارة إلى أهمية دراسة الألعاب الشعبية في الإمارات كونها جزءاً يجب أن يكون متصلاً بحياة الطفل وشؤونه في الوقت الحاضر، من حيث ثقافته ومنهج حياته وأسلوب تعليمه وتربيته، فهذه الألعاب تعكس خصائص الطفل وصفاته في الماضي، وتؤدي بالتالي إلى معرفة الأخلاق الشعبية والعادات والسمات الاجتماعية السائدة في المجتمع»[1] إن البوح الذي كان يتخلل هذه الألعاب بين اللاعبين والحوارات التي كانت تدور والمنافسات التي كانت تظهر، كل ذلك وغيره يعبر عن جيل يحمل في نفسه مشاعر صادقة، ويتطلع إلى أن يثبت أقدامه على أرض صلبة قوية. وفي حديث المؤلف عن سمات وخصائص الألعاب الشعبية يؤكد أن هذه الألعاب تمثل مظهراً اجتماعياً وثقافياً تظلله علاقات الود والمحبة، وقد ذكر من هذه السمات:

1. حرية ممارسة الألعاب
2. غياب الحوافز المادية

ثم تحدث عن قوانين الألعاب، وعن تأثير البيئة عليها مثل الصحراء، والبحر ومزارع أشجار النخيل، وتوقف عند الإبداع والابتكار من خلال هذه الألعاب فقال:

«ومن ناحية أخرى كانت هناك الألعاب التي تعتمد على القدرات التمثيلية والفنية (أنا الذيب باكلكم) والعرائس (الحيا) ولعبة (الثعلب فات ..فات) وكل هذا يعكس المستوى الذي وصلت إليه عقلية أطفال الإمارات ودرجة التفكير والإبداع لديهم»[2]

وفي حديثه عن الأغاني والأهازيج والألعاب الشعبية أشار إلى سمات وخصائص الأغنيات الموقعة التي تعكس الوعي والتفكير والبيئة من خلال السجع والرنين، والموسيقى المحفزة والأناشيد الممتعة والمفرحة:

خوص بوص ... يا لنبوصة
كلاج الدود ... من صندود
مرينا على عقارب ... السود
ياكلون سحتين ... وتمرتين
قال يا عبد الحسن ... عطونا سحة بنلاقي بها
عقربيه شقربيه ... دوسة خيل واللامطية[3]

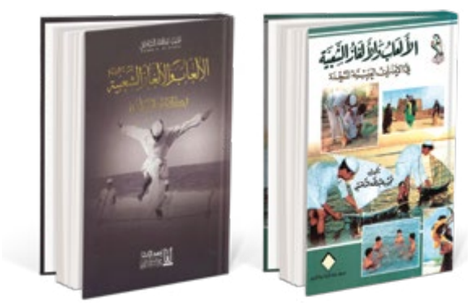

ويرى المؤلف نجيب الشامسي أنه على الرغم من قلة الاتصالات ومحدوديتها، فإن هذه الألعاب تماثل الألعاب في العالم فبعض الألعاب تمارس في كثير من بلدان العالم، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على تعانق العالم في بعض الفنون والممارسات الشعبية والتراثية، ثم يضرب أمثلة على ذلك:

«من هذا يتبين لنا أن ثقافة الطفل في الإمارات بالماضي، وعلى الرغم من محدودية الاتصال الحضاري بالعالم لا تبتعد كثيراً عن الثقافة العالمية والتحضر الفكري والتطور الذهني على الرغم من الظروف الصعبة المحيطة بثقافة هذا الطفل»[4].

ويشير في الفصل الثاني إلى الأبعاد التعليمية والتربوية والنفسية للألعاب الشعبية فيتوقف عند البعد التربوي والسلوكي للألعاب الشعبية، وعند البعد التعليمي للألعاب الشعبية.

ففي مجال البعد التربوي والسلوكي يرى الباحث الشامسي أن هذه الألعاب تعكس واقع السلوك الاجتماعي والأخلاق لمجتمع الإمارات. وفي البعد التعليمي تسهم هذه الألعاب في تفتح الأذهان والقدرة على الاستيعاب فضلاً عن النظام والعمل الجماعي والعمل بروح الفريق الواحد: «ومن ناحية اجتماعية فإن الألعاب

الشعبية قد أسهمت وبشكل كبير في صياغة أسس مجتمع الإمارات، وعكست مدى المستوى الاجتماعي للمجتمع في الوقت نفسه»[5].

ويخصص المؤلف الفصل الثالث ليتحدث عن تصنيف الألعاب الشعبية من حيث مكان ممارستها ومن حيث زمان اللعب بها في الصيف أو الشتاء أو طوال العام كله، ويضيف الشامسي إلى ذلك تصنيف الألعاب من حيث الجنس فيشير إلى الألعاب التي تخص الذكور والألعاب التي تخص الإناث والألعاب التي تخص الجنسين معاً، ثم يتوقف عند الألعاب الفردية والألعاب الجماعية ويصنف بعد ذلك الألعاب من حيث طبيعتها، فهناك ألعاب جسدية عضلية وألعاب ذهنية وعقلية، وألعاب للتسلية والترفيه.

«ومن الألعاب الشعبية التي لا تتطلب جهداً ذهنياً ولا جسمانياً نذكر المراكب الشراعية (اللنشات) و(المواتر) و(التفق) ولعبة (الخال) و(أم الأربع) وغيرها.

وهناك ألعاب التسلية الخاصة بصغار السن الذين لا تتجاوز أعمارهم العشر سنوات مثل بيوت الرحل، الطيارة، العربانة

(الخيل)، أكوام الرمال - الكركعان وغيرها»[6]. وفي الفصل الرابع يقسم الألعاب الشعبية إلى ألعاب الذكور وألعاب الإناث فيتحدث عن كل منها، ثم ينتقل إلى الألعاب المشتركة وفيما يلي أذكر لعبتين كما شرحهما المؤلف

الأولى لعبة: الشبر

والثانية لعبة: المريحان (الدرفانة)

الشبر

الشبر كلمة تشير إلى المسافة ما بين طرف الخنصر وطرف الإبهام حينما تكون اليد مفتوحة، وسميت هذه اللعبة بهذا الاسم نسبة لذلك. والشبر لعبة شعبية يمارسها الصبية دون الفتيات، وهي لعبة صيفية تمارس في المساء.

طريقة اللعب:

بعد أن يتفق الصبية على اللعب تُعمل قرعة وعلى أثرها يتبين الصبيان اللذان يدور عليهما الدور، حيث يجلس هذان الصبيان على الأرض ويكونان متقابلين الأربع متلاصقة من حيث راحة الأرجل، ثم يقومان بنفس العملية بالنسبة لأيديهما حيث يفتح كل واحد يديه ويضعهما على بعض ثم يضعانهما على أرجلهما، بحيث بواسطة أرجلهم وأيديهم يشكلون حاجزاً يقوم الآخرون بالقفز عليه، فإذا لمست إحدى رجلي أحد الصبية وهو يقفز عن هذا الحاجز، إصبع أحد الصبيين الجالسين على الأرض فإن عليه أن يحل محل هذا الصبي، بينما يقوم الآخر ليمارس القفز على الحاجز. وكل صبي أو كل لاعب من اللاعبين يحرص بألا تلمس رجله إصبع أحد الصبيين الجالسين، وهكذا يستمر اللعب حتى يتفق الجميع على فض اللعب ليذهب كل واحد في حال سبيله[7].

المريحان (الدرفانة)

المريحان جمع كلمة «مريحانة» وهي تعني الأرجوحة حيث تسمى لدى العرب بهذا الاسم وجمعها أراجيح «والمريحان» ليست معروفة في الإمارات فحسب، وإنما في معظم الدولة العربية، بل والعالم، وهي على أشكال مختلفة وهي من وسائل الترفيه والتسلية عند فتيات الإمارات التي تحظى بإقبال شديد من قبلهن خاصة في الأعياد والعطلات حيث تنصب المراجيح في مختلف المناطق والحواري وأحياناً كثيرة في المنازل وأكثر ما يشد على «المريحان» هي الأناشيد والأهازيج التي تردد أثناء الحركة حيث تتميز هذه الأناشيد بوقع موسيقي جميل وبكلمات بسيطة وجذابة .

والمريحانة أو الأرجوحة كما هي معروفة تتكون من عمودين ينصبان في الأرض بشكل محكم وثابت، ثم يربط في العمودين من أعلى حبل سميك وقوي يتدلى نحو الأسفل ويكون العمود على شكل شقين، لتجلس فتاتان متقابلتان ومتشابكتان من حيث أرجلهن الممتدة نحو بعضهما، بعد أن يضعن أسفلهن قطعة من القماش السميك (بطانية، أو جونية) (الشوال)، ثم تمسك كل واحدة منهن بطرفي الحبلين، بينما تقف واحدة أخرى أو فتاتان تقفان لتدفعا الفتاتين الجالستين تدفعانهما إلى أعلى (تشطان) بهما لترتفعا إلى أعلى تارة يميناً وتارة شمالاً، ثم تتركانهما تشطان بأنفسهما، وأثناء ذلك تنشد الفتاتان أناشيد وأهازيج لترد عليهما الأخريات، لينتهي دور الفتاتين الجالستين مع انتهاء النشيد الذي

ينشدانه أو عدة أناشيد كما يتم الاتفاق، والفتاتان اللتان دفعتا تجلسان لتأخذا دورهما وهكذا يستمر اللعب مع الغناء. ومن الجدير بالذكر أن لكل بيئة أناشيدها الخاصة والمعروفة، وفي المناطق الريفية حيث توجد الأشجار بكثرة تقوم الفتيات بربط الحبال على شجرتين متقاربتين ليتمرجحن. ومن الأناشيد أو الأهازيج التي يتم ترديدها أو إنشادها التالية:

أمـــي يامـــي يا مايـــه ... راعـــي البحـــرا يـــاه

أبـــا وليـــد عمـــي ... بخنجـــــره وإراداه [8]

قـــابض خطام الصفـــرا[9] ... وملـــــوح بعصـــــاه

عمتـــــي مرت أبويـــــه ... اللـــه يسلـــط عليهـــا

وموجز القول:

إن كتاب الألعاب والألغاز الشعبية في الإمارات العربية المتحدة له أهميته لما يتضمنه من شروحات وتفصيلات ورؤية سديدة، وهو يعكس فصلاً من تراث دولة الإمارات العربية المتحدة بحوار علمي ونقاش منطقي، كما يؤرخ لهذه الألعاب التي نسيت أو تناساها الأطفال بسبب المخترعات الحديثة التي سيطرت على عقولهم وحياتهم. لقد أغنى الشامسي في كتابه هذا المكتبة العربية وأرخ لفترة مهمة في حياة الإمارات، فقد ظل ابن الإمارات يتغنى بهذه الألعاب على الرغم من كبر سنه وتجاوزه مرحلة الطفولة منذ زمن بعيد ■

* كانت وناقد مسرحي

الهوامش:

1. نجيب عبد الله الشامسي، الألعاب والألغاز الشعبية في الإمارات العربية المتحدة، المسار للدراسات والنشر، ص8، ط2، 1998م.
2. المرجع السابق نفسه، ص 14.
3. المرجع السابق نفسه، ص 132.
4. المرجع السابق نفسه، ص 15.
5. المرجع السابق نفسه، ص 20.
6. المرجع السابق نفسه، ص 25.
7. المرجع السابق نفسه، ص 86.
8. إراداه: الرداء.
9. الصفرا: كناية عن الجمل (البعير)

تاريخ «مدينة دبا» في أمهات الكتب العربية

أسماء يوسف ذياب الكندي

«دبا الحصن» مدينة هادئة تقع على الساحل، وقد عُرفت في التاريخ وكانت موطناً رئيسياً للهجرات التي وفدت على الخليج العربي من اليمن، ويرتبط اسم «دبا» بسوق من أسواق العرب في الجاهلية، حيث كان يُسمى «سوق دبا» ويجمع بين تجار جزيرة العرب والهند وبلاد فارس والصين، وقد ذكر الجغرافيون والمؤرخون العرب مدينة (دبا) في كتبهم، حيث ذُكرت مدينة دبا في كتاب (الطبقات الكبرى) لابن سعد (ت: 230هـ)، حينما عيّن النبي - صلى الله عليه وسلم - عامله على (دبا) وهو حذيفة بن اليمامة - رضي الله عنه - [1] وذُكرت مدينة دبا أيضاً في كتاب (فتوح البلدان) للبلاذري (ت: 279هـ) حينما أرسل الخليفة أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - جيشه في حروب الردة عمن امتنع عن الزكاة ليقاتلهم (...ولما قبض رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ارتدت الأزد وعليها لقيط بن مالك ذو التاج وانحازت إلى دبا وبعضهم يقول دما في دبا فوجه أبو بكر الصديق إليهم حذيفة بن محصن البارقي من الأزد وعكرمة ابن أبي جهل ابن هشام المخزومي فواقعا لقيطاً ومن معه فقتلاه وسبيا من أهل دبا سبياً...)، وقد فتحها الصديق - رضي الله عنه - سنة 11 للهجرة[2].

وورد ذكر مدينة دبا في كتاب (أنساب الأشراف) للبلاذري أيضاً[3]، وقد ورد ذكرها في كتاب (تاريخ الطبري) للطبري (ت: 309هـ)، حينما اقتتل المسلمون مع مانعي الزكاة والمرتدين في دبا[4]، وذكرت دبا في كتاب (الإمتاع والمؤانسة) للتوحيدي أيضاً، حيث أشار إلى أن في دبا سوقاً يسمى سوق (دبا) تجتمع فيه العرب كل عام (...فتقوم سوقهم بديار دبا..)[5]، وقد ذكرت (دبا) في المعاجم عند العرب فذكر أبو عبيد الأندلسي (ت: 487هـ) في كتابه (معجم ما استُعجم من أسماء البلاد والمواضع) أن دبا سوق عُرف عند العرب أيام الجاهلية (بسوق دبا) يتوافدون إليه من كل حدب وصوب (...دَبَا بفتح أوله وثانيه مقصور على وزن فعل سوق من أسواق العرب...)[6]. وذُكرت (دبا) في كتاب (الأماكن أو ما اتفق لفظه وافترق مسماه من الأمكنة) للهمداني (ت: 584هـ) على أنها موضع يوجد في عُمان ذكر في أيام العرب (...بِفَتْحِ الدال وتخفيف الباء المُوَحَّدَة- : مدينة قديمة من مدن عُمان، لها ذكر كثير في أيام العرب، وأشعارهم، وكانت القصبة قبل صُحارٍ...)[7]، وكذلك ذكرت (دبا) في (معجم البلدان) لياقوت الحموي (ت: 626هـ)، حيث ذكر الحروب التي جرت بين المسلمين وأهل دبا بسبب امتناعهم عن دفع الزكاة والتي ذكرتها المصادر العربية التي وردت في هذه المقالة[8]. هذا غيض من فيض عن أهمية تاريخ مدينة (دبا) التي ذُكرت في أمهات الكتب واشتهرت بسوقها العظيم أيام العرب في الجاهلية، والأحداث التي جرت فيها في زمن النبي - صلى الله عليه وسلم - وعهد الخلفاء الراشدين والخلفاء في العصرين الأموي والعباسي وغيرهما من العصور الإسلامية الزاهية، وعلى أمل أن نجد معلوماتٍ وتاريخاً أكثر في مؤلفات تتحدث عن أهمية وعراقة بعض المناطق والمدن في دولة الإمارات العربية المتحدة وجاء ذكرها في أمهات الكتب عند الجغرافيين والمؤرخين العرب والمسلمين وكان لها دور كبير في الحضارة العربية الإسلامية ■

* كاتبة وباحثة من الإمارات

المصادر:

1. ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن منيع الهاشمي البصري البغدادي(ت:230هـ). الطبقات الكبرى. تحقيق: محمد عبد القادر عطا، بيروت. لبنان، دار الكتب العلمية، ط1، 1410هـ/1990م.
2. البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر داود (ت:279هـ). فتوح البلدان. بيروت. لبنان، دار ومكتبة الهلال، د.ط، 1408هـ/1988م.
3. أنساب الأشراف. تحقيق: سهيل زكار ورياض زركلي. بيروت. لبنان، دار الفكر، ط1، 1417هـ/1997م.
4. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت:310هـ). تاريخ الطبري: تاريخ الرسل والملوك. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (ت:1980م). مصر، دار المعارف، ط2، 1387هـ/1967م.
5. البكري الأندلسي، عبد الله بن عبد العزيز البكري (ت:487هـ). معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع. تحقيق: مصطفى السقا. بيروت ـ لبنان، مطبعة الخانجي، د.ط، د.ت.
6. الهمداني، أبو بكر محمد بن موسى بن عثمان الحازمي (ت:584هـ). الأماكن أو ما اتفق لفظه وافترق مسماه من الأمكنة. تحقيق: حمد بن محمد الجاسر. السعودية، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، د.ط، 1415هـ/1995م.
7. ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله بن عبدالله الرومي (ت:626هـ). معجم البلدان. بيروت. لبنان، دار صادر، ط2، 1415هـ/1995م.
8. الكندي، أسماء يوسف ذياب. لمحات عن تاريخ الرعاية الصحية والطبية في إمارة الشارقة (1900 - 1971م). الشارقة ـ الإمارات، هيئة الشارقة للوثائق والأرشيف، ط1، 1440هـ/2019م.

الحضارات لا تقوم على الخرافات

محمد حسن الحربي
إعلامي وكاتب صحفي

كما العديد من الناس، أسمع كثيراً وعلى مدى عشرات السنين، بعضهم وهو يردد جملة تشير للوهلة الأولى إلى وضع سلبي أكثر منه إيجابي.. إلى إدانة منها إلى تعبير اعتيادي بريء.

والجملة هي (إننا لا نستخدم من أدمغتنا سوى نسبة 10 في المئة، لتبقى نسبة الـ 90 في المئة مهملة وخارج الاستعمال). وبمجرد ترديد جملة كهذه كفيل بأن يعزز وجود النقائص والعيوب لدى الإنسان - القائل والمستمع معاً - أكثر منه باعثاً على التحفيز والأمل والعمل. ولو افترضنا جدلاً أن هذه المقولة (سليمة) فإن ترديدها يحمل الإنسان على اليأس من محاولة إيجاد طريقة لاستعمال نسبة الـ 90 في المئة الباقية من دماغة بنجاح، ليصبح، بعد ذلك، عبقري زمانه في كل المجالات والصعد. ويزيد هؤلاء المرددين، ربما لإقناع مستمعيهم، فيضربون مثلاً بعالم الفيزياء الألماني الأصل، الأمريكي/السويسري الجنسية، صاحب (النظرية النسبية) التي نال عليها جائزة نوبل للفيزياء عام 1921. ألبرت آينشتاين (1879 - 1955)، بقولهم إنه (ما كان لينجح آينشتاين في بحثه حول النظرية النسبية غير المسبوقة، لو لم يستعمل نسبة الـ 90 في المئة من دماغه). ما يجعل هذا السؤال

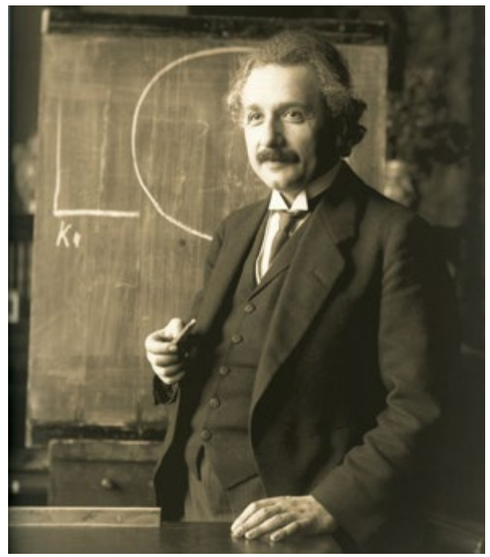

مشروعاً: هل اعتقاد كهذا هو حقيقة أم خرافة؟

لكن قبل حسم الموضوع، يجدر القول بأن دماغ ألبرت آينشتاين قد تم استخراجه بعد الوفاة، وأخذت له عدّة صور، موجود منها 14 صورة حالياً في المتحف الوطني للصحة والطب في مدينة ماريلاند، فيما حُفظت أجزاء من الدماغ في المركز الطبي الجامعي بمدينة برينستون في أمريكا.

ولكي يبسّط فكرة نظريته النسبية للأشخاص المهتمين والصحفيين، لجأ آينشتاين إلى أن يخترع لهم قطاراً أطلق عليه (قطار آينشتاين)، هو أشبه ما يكون بآلة الزمن، افترض له سرعة أكبر من سرعة الضوء المقدّرة بمليار كيلومتر في الساعة. لكن رغم شروحاته تلك كلها فإن أغلب الذين استمعوا لها ولأكثر من مرة لم يفهموها لتظل بالنسبة لهم عصيّة. حتى نقل عن زوجته (ألسا آينشتاين) التي زارت واشنطن - بعيد وفاة زوجها - وحال نزولها من الطائرة تحلّق حولها الصحفيون وطرحوا عليها سؤالهم القديم المتجدد: ما الذي تَعلمهُ ولا يعلمونهُ هم عن النظرية النسبية وقطار آينشتاين؟ فكان ردها فورياً (لقد شرحها لي 20 مرة لكن في كل مرة، كنتُ مثلكم، أنساها، فاعذروني).

والحقيقة أن ما يردده الناس، على التفاوت فيما بينهم من حيث التعليم وشغف الاهتمام بعلوم الفلك، من أن الإنسان يستخدم نسبة 10 في المئة من دماغه بينما الـ 90 في المئة الأخرى مهملة وخارج الاستعمال، هو قول محض خرافة وليس له أساس علمي ألبتة؛ فدماغ الإنسان معجزة معقدة ولم يحط العلم سوى بالقليل حول مكوناته الدقيقة وآليات عمله، ورغم ذلك فقد توصل بعض المتخصصين العلميين إلى معرفة جزء من مهامه الضرورية وطريقة القيام بها؛ فدماغ الإنسان، إلى جانب قيامه بملايين الأعمال اليومية، فإنه يقوم أيضاً بتأليف المقطوعات الموسيقية، وكتابة الشعر والروايات، وإصدار البيانات والتصريحات، ويتوصل إلى حلول عبقرية للمعادلات الرياضية، وهو منبع المشاعر الإنسانية والسلوكيات والخبرات كلها، ومخزن الذاكرة والوعي بالذات، ما يجعله لغزاً محيراً للعلماء المتخصصين في مسيراتهم الطويلة والمستمرة بغية اكتشافه والوقوف على أسراره التي لا تزال مجهولة.

لكن مقولة الـ 10 بالمئة من الدماغ، فعلى ذمة عالم الأعصاب بكلية الطب بجامعة جونز هوبكنز الأمريكية، الدكتور باري جوردون، هي خرافة مغرية لكنها خطأ تماماً بل مثيرة للضحك، ورغم عدم وجود متهم مؤكد بإطلاق هذه الخارفة لإلقاء اللوم عليه، فقد نسبت إلى عالم النفس الأمريكي ويليام جيمس، حيث وردت في كتابه (طاقة الرجال) لكن بشكل مختلف فقد جاءت كالتالي:

(إننا لا نستخدم سوى جزء ضئيل من مواردنا العقلية والجسدية). وبعد أن انتشرت هذه الجملة عند بعضهم وفي المجلات المتخصصة، جرى ربطها خطأ بالعالم ألبرت آينشتاين الذي يُعتقد أنه استخدمها في شرح ذكائه الكوني المتزايد. ويذهب جوردون إلى أن صمود هذه الخرافة ينبع في الأصل من فكرة البشر عن أدمغتهم؛ فهم ينظرون إلى عيوبهم ونقائصهم على أنها دليل على وجود مادة رمادية في الدماغ غير مستغلة عليهم البحث عنها ومعرفة تفعيلها، وهو اعتقاد خاطئ. الصحيح أن في أوقات معينة من الحياة كأوقات الاسترخاء والتأمل، نعم، لا يستخدم الإنسان سوى 10 في المئة من دماغه فقط، لكن المؤكد أننا في غير تلك الأوقات نستخدم فعلياً كل جزء من أجزاء الدماغ، وأن معظم الدماغ يكون نشطاً في الأوقات كلها؛ فهو رغم أنه يشكل 3 في المئة من وزن الجسم، فإنه يستخدم 20 في المئة من طاقة الجسم. وهو الذي يزن في المتوسط 1.4 كيلو غرام تقريباً، ويتكّون من الدماغ الكبير المسؤول عن الوظائف الإدراكية العليا، والمخيخ المسؤول عن الوظائف الحركية مثل تنسيق الحركة والتوازن، وجذع الدماغ وهو المسؤول عن الوظائف غير الإرادية كعملية التنفس. ويستخدم الدماغ معظم طاقة الجسم في الإطلاق السريع لملايين الخلايا العصبية التي تتواصل فيما بينها بدقة بالغة؛ فتلك الخلايا العصبية هي التي تقف وراء كل الوظائف

العليا للدماغ، بينما تستخدم باقي الطاقة للسيطرة على الأنشطة الأخرى ومنها اللاشعورية كضبط نبضات القلب، والشعورية كقيادة السيارة وممارسة بعض الرياضات الذكية.

إن المواجهة العدائية القديمة المتجددة، لا تكاد تهدأ بين الخرافة والعلم؛ إذ كلما تم التوصل إلى أكتشاف علمي ما، لفظت خرافة من الخرافات أنفاسها وانهدم بيتها المظلم الذي تعشش فيه وتوقفت من ثم مسيرتها لدى البشر؛ فالحضارة البشرية في مفهومها القيمي والتقني والمادي والثقافي، لم تشيّد على الخرافات، ولا يمكنها أن تقوم يوماً على مثلها على الإطلاق.

يبقى أن بعضاً منا يخلط بين الخرافة والأسطورة والفرق بينهما يكاد لا يكون كبيراً. وقد يحتاج إلى بحث مطوّل. لكن بالإمكان القول باقتضاب إن الأسطورة (وأصلها من سطّر وأسطر) قد تقوم على قصة أو حادثة فيها شيء من الحقيقة، مثال ذلك قصة (حصان طروادة) التاريخية.

وقد لعب الخيال فيها دوراً كبيراً عبر الحقب الزمنية، وخلافاً للخرافة، فقد ورد ذكر الأسطورة في القرآن الكريم (وجمعها أساطير) بقوله تعالى (إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ). سورة الأنعام - الآية 25. أما الخرافة فسمّاها العرب القدماء (الحديث المُستملح من الكذب)، وعرّفوها بأنها حكايات تروى في الليل للتسلية وتزجية الوقت، وقد ورد ذكرها متواتراً في الكتب الحديثة والقديمة على السواء أنها محض كذب وكانوا يطلقون على الحديث الكذب (حديث خرافة) ■

ضوء على التراث الفني للبشتون

نوزاد جعدان جعدان

اعتبرها العلامة «محمد إقبال»: «قلب آسيا تصلح آسيا بصلاحها وتفسد بفسادها» وغالباً ما تظهر أفغانستان في المخيلة الإنسانية على أنها أرض قاحلة ومقبرة الإمبراطوريات، لكن هذا التصور القاصر لا ينصف تاريخ أفغانستان الطويل باعتبارها مفترق طرق بين جنوب آسيا وآسيا الوسطى، بالإضافة إلى تقاليدها الغنية التي تجمع بين الزرادشتية واليونانية والبوذية والإسلام. وللتراث الشعبي البشتوني مذاق خاص تمتزج فيه الأصالة بالحداثة، ويفوح منه عبق الماضي وسحر التاريخ. ويعد التراث إحدى ركائز الهوية القبلية لديهم فهو الوعاء الذي تستمد منه عقيدتها وتقاليدها وقيمها الأصيلة ولغتها وأفكارها.

لمحة تاريخية

العديد من سمات الثقافة البشتونية مستندة على الموسيقا، والرقص، والأدب والتوزّع الجغرافي للسكّان، وعلى عكس المتوقع، تعتبر أفغانستان موطناً لأكثر من 1500 موقع أثري، حيث كشفت الحفريات عن التأثيرات الشرقية والغربية في العمارة والسلع. وشهدت المدن الأفغانية تبادل الحرير الصيني والفضة الفارسية والذهب الروماني. وبمرور الوقت انتشرت الديانة البوذية في أفغانستان قبل وصولها إلى الصين، ومع استمرار التبادل التجاري والثقافي، أثرت الأنماط المعمارية الصينية في عمارة أفغانستان. ومع تطور التكنولوجيا البحرية، انخفضت أهميتها كطريق تجاري دولي، بسبب كونها بلداً مغلقاً غير ساحلي. وكانت مدينة هرات الواقعة غرب أفغانستان مركزاً تجارياً رئيسياً، واشتهرت بمفكريها وشعرائها وفنانيها ورسامها. وقد وصفها جلال الدين الرومي بأنها لؤلؤة خراسان وأجمل المدن. بعد أن دمرها جيش جنكيز خان، تعافت وعادت من جديد لتعيش عصرها الذهبي في ظل حكم الدولة التيمورية حتى القرن السادس عشر.

يصل ماضي البشتون القريب إلى سلالة هوتكي ما بين الأعوام (1709 إلى 1738) وإمبراطورية دوراني ما بين عامي (1747 إلى 1823)، حيث تقول المصادر التاريخية إن سلالة هوتكي - المنحدرة من قبيلة غلزي - هزمت الصفويين الفرس وسيطرت على معظم أراضي بلاد فارس خلال الفترة من عام 1722 إلى عام 1738 ثم تلتها غزوات أحمد شاه دوراني - أحد أبرز قادة عسكري الحاكم الفارسي نادر شاه - الذي أسس إمبراطورية دوراني التي شملت أفغانستان، وباكستان، وكشمير، وإقليم البنجاب الهندي ومحافظة خراسان في إيران.

وعقب انهيار إمبراطورية دوراني عام 1818، تولت عشيرة باركزي الحكم في أفغانستان، ثم حكمت عشيرة محمد زي أفغانستان من عام 1826 إلى نهاية حقبة الملك ظاهر شاه في عام 1973، وظلت أفغانستان دولة مستقلة وسط صراع روسيا القيصرية مع التاج البريطاني على النفوذ في آسيا الوسطى.

الموسيقى

تعد آلة الرباب الآلة الأبرز من تراث البشتو، وهي من أقدم الآلات الوترية التي عزف عليها العرب قبل الإسلام وقد انتقلت بعد ذلك مع الفتوحات الإسلامية إلى هذه المنطقة لتصبح جزءاً من التاريخ والثقافة، وأصبحت الرباب تحتل مكانة خاصة لدى أهالي المنطقة في شبه القارة الهندية وترسخت في ثقافة قومية البشتون لتصبح من بين أهم الآلات الموسيقية الفولكلورية على الإطلاق.

وبزغت أسماء عديدة في الغناء البشتوني لعل أبرزها محمد رفيق شينواري ما بين الأعوام (1920 - 1991) وكان مغنياً وملحناً، بدأ حياته المهنية مُغنياً لأسلوب القوالي في إذاعة باكستان وخاصة في أستديو بيشاور. بعد ذلك أصبح اسماً مألوفاً ومشهوراً بين السكان البشتون في كلٍّ من أفغانستان وباكستان في السبعينيات والثمانينيات من القرن الماضي. غنى بشكل أساسي الشعر الصوفي للشاعرين حمزة شنواري ورحمان بابا.

يمتاز صوته بأنه أجش ذو بحة خفيفة، ما يترك جمهوره في حالة نشوة وسلطنة. كذلك لحّن شينواري موسيقى عدد من الأفلام ووضع الموسيقى التصويرية لها من أبرزها «Topak Zama Qanoon» و «Naway Da Yawai Shpai»، لاحقاً وفي عام 2004، تم إطلاق جائزة رفيق شينواري تكريماً له.

ومن الأسماء الشعبية المعروفة التي أبدعت في نقل التراث البشتوني، كفايت شاه باجا (1965 - 2021). وأصدر 250 ألبوماً صوتياً وحظي بشهرة واسعة لأسلوبه الفريد في الغناء وعزف الرباب. كما حصل على العديد من الجوائز، بما في ذلك جوائز من إذاعة بيشاور لأفضل فنان شعبي. أحيا كفايت شاه باجا حفلات عديدة في دول الخليج وأفغانستان والمملكة المتحدة والولايات المتحدة الأمريكية.

قُتل كفايت شاه باجا برصاص منافسيه عندما كان يتوجه إلى

مسجد القرية لأداء صلاة الجمعة. وأطلق بعض القتلة النار العشوائي عليه ما أدى إلى مقتله على الفور، ضاربين عرض الحائط مقولة الفنان الذي صرح بها ذات مرة «أنه سئم من الثأر في قضايا تافهة. وحث المجتمع على نشر الوعي في المجتمع لوقف الاقتتال بشأن القضايا الصغيرة وخاصة النزاعات على قطع صغيرة من الأرض ومع ذلك، فإن أحد هذه النزاعات الصغيرة والطويلة الأمد أودت بحياته الثمينة أخيراً».

وبالتراجيديا نفسها وأعني مقتل كفايت باجا، قُتلت الفنانة الحسناء غزالة جاويد (1988 - 2012) التي كانت معظم مسارح كابول ودبي تعرفها ووفقاً لإذاعة كابول كانت غزالة أكثر المغنيين البشتون طلباً من مستمعي الراديو ونالت أجراً لم يحصل عليه أي مغنٍ بشتوني قبلها، كذلك من قبلها قُتل المغني الشعبي عبيد الله جان قندهاري (1951 - 1983) الذي مزج الموسيقى الكلاسيكية بالحديثة.

ومن الأسماء التي أثرت الغناء البشتوني الفنان هداية الله (1940 - 2019)، ومؤمن خان بلتون الذي أحيا أغاني فلكورية عبر 70 عاماً، وأوستاد أول مير(1931 - 1982)، والمغنية مهجابين قزل باش (1958 - 2020)، علاوة على الفنان قمر كله (1950 - 2022)، ويعتبر حالياً الأستاذ خيال محمد من أبرز الأسماء الفنية في الغناء إلى جانب زرخانكه أميرة الفلكلور البشتوني وهي من مواليد عام (1946)، والدكتور محمد صادق فطرت (ناشناس) المولود عام 1935 والذي يلقب بسيغال أفغانستان نسبة إلى عندليب الهند وأسطورتها الغنائية كاندال لال سيغال، إضافة إلى المطربة نغمة شابيري التي عرفت في الوسط الفني خلال ثمانينيات القرن الماضي بأسلوب الدويتو مع زوجها الفنان منغل.

ومن الآلات الموسيقية التي برعت بالعزف عليها قبائل البشتون أيضاً آلة الساربندا التي برع في العزف عليها العازف والمطرب منير سرحدي (1931 - 1980) والساربندا أو ساراندا هي آلة موسيقية فولكلورية وترية تشبه العود أو الكمان، تُلعب بالقوس وتتكون من عشرة إلى ثلاثين وتراً.

الأغاني الشعبية

(وأنت متجهٌ إلى «بيشاور» /اجلب لي قميصاً أسود اللون/ ثلاث زهرات أو أربعاً نضرة ..... الأزهار الصفر على فستانها الأسود تبدو كأنها نجوم، ....إلخ).

من أشهر الأغاني الشعبية البشتونية التي غناها مطرب أفغانستان الراحل أحمد ظاهر (1946 - 1979)، الملقب بألفيس بريسلي

أفغانستان. ولاحقاً أعاد توزيعها المطرب علي ظفر، وفي الواقع وراء هذه الأغنية قصة حزينة تعود إلى ما قبل 350 عاماً ويقال كانت فتاة تدعى فرحات ترتاد جدول المياه بصحبة أقرانها من الفتيات حيث يغرفن المياه من الجدول وسط الجبال وتقضي وقتها مع صديقاتها هناك، وفي يومٍ صادفت تاجر القرية الذي يزور بازار المدينة كل أسبوع ويجلب من هناك البضائع، فسألته عما إذا كان ذاهباً إلى البازار وأوصته بجلب بعض القماش الأسود لها ومن ثم ستدفع أمها النقود له، وتناهى هذا الحديث الذي دار بينهما إلى مسامع أحد النمّامين الذي بدوره أخبر شقيق فرحات عن الحديث الذي دار بين أخته وتاجر القرية وبالغ في الموضوع، وألمح إلى أن هناك علاقة تربط بين أخته وتاجر القرية. فتأثر شقيقها وركض إلى المجرى حيث كانت أخته بمعية الفتيات وقتلها بسيفه.

الأدب

يعد الشاعر أمير كرور سوري أول شاعر كتب باللغة البشتونية، المتوفى عام 771 ميلادي، ولاحقاً ظهر الكثير من الشعراء المجيدين والناقلين للتراث البشتوني والملاحم الشعبية أمثال بايزيد خان أنصاري روشان (1525 - 1585)، والشاعر الصوفي الكبير رحمان بابا (1632 - 1706)، وفي القرن العشرين أمير حمزة شينواري أبو قصيدة الغزل البشتونية (1907 - 1994)، ومالانج جان (1914 - 1957)، وخاطر آفريدي (1929 - 1968)، وشير زمان تيزي (1931 - 2009)، والبروفيسور أرمان لوني (1983 - 2019) أستاذ الأدب البشتوني.

وعلى الجانب الآخر، كان للنساء في الأدب البشتوي دور خفي عبر قصائد اللاندي وهو نوع من الشعر الشعبي، ترتجله النساء الأفغانيات، وهو في الأساس، قصيدة صغيرة، قصيرة جداً، تقع في بيتين، يأتي الأول وفق تسعة مقاطع لفظية، بينما يأتي الثاني وفق ثلاثة عشر مقطعاً لفظياً، من دون أي قوافٍ إجبارية، وإنما ذات تفصيلات داخلية قاسية. ولا تكتبه سوى النساء، إذ من المعيب والمحرم على الرجل أن يعبر عن عواطفه وأن يُظهر مكبوتات صدره. ويعبّرن من خلال هذه الأبيات والمقاطع اللفظية عن ألوان من العشق، والوله، والاشتياق، واللهفة والألم، والحرمان والقلق، والتغني بالطبيعة التي ترقّ فصلاً وتقسو فصولاً. أهم ما في هذه القصائد التي جمعها من مصادرها البروفيسور سيد بهاء الدين مجروح (1928 - 1988)، الذي عمل عميداً لكلية الآداب في جامعة كابول، واغتيل عام 1988 للميلاد في بشاور، تحت عنوان (اللانداي. الشعر الشعبي للنساء البشتون) وترجمه إلى العربية عام 2002 الأديب جميل صلاح. ونقتطف منه:

«إذا لم تعرف كيف تحب / لماذا أيقظت قلبي النائم؟» ..

الأمثال الشعبية

منذ قِدم الوجود الإنساني، استُخدمت الأمثال الشعبية ولا تزال، للتعبير عن المواقف التي تمر بنا في الحياة اليومية، وتعد الأمثال الشعبية لدى البشتون بمنزلة الوسيلة التي تعبر عن ثقافة المجتمع، وتستخدمها الطبقات الاجتماعية جميعها، وتختلف باختلاف المناطق أيضاً. وهنا بعض الأمثلة التي تزخر اللغة البشتونية بالعديد منها نترجم بعضها:

• فرخ الأفعى أفعى (أي طبيعة الفرد لا تتغير).

• الوعاء الفارغ يحدث ضجيجاً عالياً.

• إذا خدعتني مرة فاللعنة عليك، وإذا خدعتني مرتين فاللعنة عليّ.

• بالنسبة إلى كل شخص وطنه بمنزلة كشمير (أي للجميع الوطن هو الأجمل).

• لا تدعس الذبابة بدبابة (أي لا تهدر طاقتك على أمور بسيطة).

• عندما يكون الموضوع لا شأن لك به، ابقَ بعيداً عنه.
• للبيبِ الإشارة تكفي أما للأحمق فلا بد من ركلة.
• للصديق الأحمق، عدو ناصح هو الأفضل.
• إذا ذهب حمار إلى مكة، فهذا لا يعني أنه أصبح حاجاً.

الأزياء وأدوات الزينة

يعد التطريز ملاذاً روحياً في الحياة اليومية العادية للمرأة الأفغانية من خلال صقل غرزها، لاسيما وهي تعبر عن رغبتها العميقة في التعبير عن خلجات نفسها. ويعد متنفساً لهن، حيث يحولن آمالهن وأحلامهن ورغباتهن إلى رسوم وفنون في التطريز بهدوء كما يعشن في قندهار، وتتعلم الفتيات هذا الشكل الفني القديم في سن مبكرة ويمارسنه طوال حياتهن. وهو فن مُستوحى من أنماط هندسية إسلامية معقدة، ويعتبر فريداً من نوعه في قندهار، ويصنفه خبراء الفن أنه أحد أفضل تقنيات التطريز في العالم يتم استخدامه لتزيين الشالات الرائعة التي يرتديها رجال جنوب أفغانستان، بالإضافة إلى بياضات المائدة وأغطية الرأس النسائية وسراويل الزفاف الخاصة بالفتيات، ولا بد من الإشارة إلى أن هناك مجموعات مختلفة من البشتون، ولكل منها أسلوبها الخاص في التطريز إذ يختلف التطريز الحضري عن التطريز البدوي البشتوني.

في تقليد يعود إلى أكثر من ألف عام، تضع بعض نساء البشتون (الشين خال) وهي عبارة عن علامات هندسية زرقاء اللون على الذقن والوجنتين أو وسط جبين الشابات البشتون وجهاتهن. وجرى التخلي عن هذه الممارسة رويداً رويداً بسبب تأثير الإسلام الذي يحرّم الوشم، وتستخدم العديد من النساء الآن (الشين خال) من الحناء، في المناسبات الخاصة مثل الأعراس. ومرد استخدامها إلى معتقدات تشير إلى أنها تحميهن من العين الشريرة وكذلك تحدد هويتهن القبلية، وكان يُنظر إلى (الشين خال) على أنها من علامات الجمال.

وتشتهر القبائل البشتونية بصناعة السجاد اليدوي على أنوال عامودية أيضاً، منها الثابت ومنها الدوار من قِبل عمال مهرة. والسجادة المتقنة في شغلها وزخارفها وألوانها هي قطعة فنية أشبه بلوحات الفنانين. بل تزيد عليها أنها تحمل أفكاراً ومعتقداتٍ تدل عليها تلك الرموز التي تمزج بين التراث والحضارة والمعتقدات وأساليب العيش ومن أهم النقوش النقش الهراتي الذي ينسب إلى مدينة هرات في مقاطعة خُراسان ويعرف اليوم بنقش المصطفى؛ وهو عبارة عن معين بداخله وردة كبيرة وعلى أطرافه زهرات صغيرة على شاكلة الوردة المركزية. وبجانب كل ضلع من أضلاع المعين شكل سمكة (ترمز إلى الدعاء باستمرارية النسل والتكاثر) وهناك أنموذج آخر من هذا النقش يسمى (الواق واق) أو الأشجار المتكلمة. وهو عبارة عن ورود وأغصان نباتية تنتهي برؤوس حيوانية محورة عن الطبيعية.

كذلك نجد طريقة نقش المعين المسنن الذي يعرف منذ زمن الفراعنة والفرس والآشوريين وهو رمز الأنوثة وبعض الشعوب تعبر به عن التزاوج بين الجنسين.

السينما

كان رجال البشتون دائماً محاربين أشداء في سبيل قناعاتهم، وتميز الشبان بالغيرة والاندفاع واستوطن كثيرون منهم مناطق هندية ومازال البشتون هناك يتكلمون لغتهم الأم ويعلمونها أولادهم. ويحلو لبعض البشتون أن يذكر بأن نجوماً في السينما الهندية هم من البشتون ومنهم: عبدالقادر خان، وديليب كومار، وشاه رخ خان، وعامر خان، وراج كابور، وفينود خانا، وأن كلمة خان هي من لغة البشتون وتعني القائد ولعل من أشهر من مثّل في السينما البشتونية إسماعيل شاه (1962 - 1992) ■

* شاعر وكاتب سوري

يا طير سلم عالحبيب

إعداد: نايلة الأحبابي
شاعرة من الإمارات

يـا طيـر سلـم عالحـبيب	قلـه ترانـي مستصيـب
واجـروح قلـبي مـا بـرت	وانـت الدوا وانت الطـبيب
مـا طاب نومـي يا الظنـين	قلـبي حزيـن ومستهـين
أرقـت نـاسي م لونـين	والدمـع من عيني صبيب
مصطـاب وتسـقى حسرات	مـا لذ لي شـرب ومقـات
لا ذوق نـوم ولا أبـات	العـي وسيـع بالنحـيب
حـاربت لـذات المنـام	قلـبي حزيـن ومستهـام
مـن زود مـا بـي ملغـرام	أرثـي ولا لي مـن يجـيب
يجـبر مصابـي خالجـي	مـن حالتي والشـو بجـي
الحـب خلانـي شجـي	لي شطـبي هجـر الحبيب
احبيـبي روحـه شكـل	مـا لـه وصيـف ولا مثـل
ريـم تربـا فـي غتـل	مـن نظرتـه قلبي يشيـب
شهـت لونـه كلبـدر	ليمـن كمـل نصـف الشهر
مـا بـين خـده والنحـر	جيـد كانـه نـزغ حـيب
حلـو ابتسامـه واللمـا	ريجـه شرانـف الغمـا
يـبري العلايـل والظمـا	سكـر وممـزوج بحلـيب
حلفـت باللـه العظيـم	إنـي بحبـه مستهيـم
لنـه حـبيبي والنديـم	وهـوه مقاتـي والشريـب
ما ريـد انا غـيره بدل	لـه الجمـل بما حمـل
وش حيلـتي كانـه زعـل	واقطـع حظـي والنصيـب

الشاعر سالم محمد الجمري شاعر من أعلام الإمارات الخالدة في الشعر النبطي الذي تميزت قصائده بالعذوبة الشعرية وسلاسة المفردة والتناسق الشعري الأصيل، وفي مطلع هذه القصيدة التي يخاطب فيها الطير ويبلغه أن يوصل سلامه للحبيب ويشكو له حاله بأنه مصاب في هواه وأن جروحه لم تشفَ إلا بوجود محبوبه فهو دواه وطبيبه، ثم يخبره بحالته بأنه لا يطيب له النوم بسبب حزنه وسهاده فأرق أهله بونينه وبكائه وأنه مصطاب من فراق أحبته يشكو الحسرات فلا يطيب له شرب أو قوت فلا ينام الليل حتى إنه يُرثى لحاله ثم يرفع مشاكاته لله سبحانه فلن يستطيع أحد أن يعلم مابه إلا هو سبحانه، ويشكو حاله وشقاه بسبب فراق محبوبه، ثم يعود لوصف محبوبه في جماله بأنه نادر في أوصافه كالغزال وشبهه بالبدر إذا اكتمل في منتصف الشهر، ثم شبه الشاعر جيد محبوبته ذو اللون الأبيض بلون خوص الحيب الذي نزغ من كثر السقي ثم عرج على وصف المحبوب وأنه شرابه وقوته وبداري زعل محبوبه لأنه لايستطيع فراقه ولا البعد عنه، في هذه القصيدة التي جرى الشعراء في زمن ليس بالقريب على أساسها وبنائها ما بين الشكوى والفراق ومشاكاة الطير والطبيعة وفي تفصيل القصيدة نجد البناء المكتمل والسهل الممتنع بسلاسة وعذوبة ومشاكاة الطبيعة والشاعر ابن بيئته أبدع بالتشبيه وبجمال المفردة في القصيدة.

المفردات:
مصطاب: مصاب و متألم، تربّا: نشأ، غتل: المكان كثير الشجر، نزغ حيب: نزغ :خرج ونبت وظهر إلى الأعلى. والحيب: قلب النخلة ذو الخوص الأبيض، نف الغما: المطر الخفيف، مقاتي: قوتي وزادي، شط بي: أتعبني.

معجم البلدان:
رائد المصنفات والموسوعات الجغرافية التراثية

عبد الله يحيى السريحي

يعتبر (معجم البلدان) لياقوت الحموي (المتوفى سنة 626هـ /1229م) أوسع المعاجم الجغرافية العربية، وأشملها وأكثرها دقة وأصالة وغنىً في مادته العلمية، لأن ما جاء بعده كان تكراراً واجتراراً، أو اختصاراً للمواد السابقة، قال عنه المستشرق الفرنسي البارون «كارّا دي فو» Baron Bernard Carra de Vaux في كتابه «مفكرو الإسلام»: «إنه من المؤلفات التي يحق للإسلام أن يفخر بها كل الفخر». وقال كراتشكوفسكي[1]: «إنه أوسع وأهم، بل وأفضل مصنَّف من نوعه لمؤلف عربي للعصور الوسيطة». وهو «ديوان الجغرافيا الأكبر، وكنزها الذي يمثل صرحاً من صروح العبقرية العلمية في كل العصور»، كما وصفة الدكتور حسين مؤنس[2]. وقال عنه مُصطفى السَّقا عند حديثه عن المعاجم الجغرافية: «وهو مِن أجلِّ هذه المعاجمِ خَطَراً، وأعْظَمِها قَدراً، ومن أحسنِها ضَبطاً، وأحفلِها مادّة، وأعمِّها فائدةً...»[3]. ووصفه الأستاذ كوركيس عواد[4] بأنه «أعظم مُؤَلَّفٍ جغرافي عرفته اللغة العربية».

ويتجلى جهد ياقوت، في جمعه لشتات المادة الجغرافية المتوافرة في التراث الجغرافي العربي منذ نشأته حتى عصره، فقد تمكن من الإحاطة والجمع بين المدارس والمناهج الجغرافية السابقة له ومزج بينها بأسلوب جميل ولغة راقية، كونه من (أهل الأدب) ومن (الرحالة) أيضاً، وأضاف إليها ما استجد لديه من معلومات اكتسبها من خلال رحلاته وتجاربه الشخصية، واطلاعه الواسع، وما نقله من أفواه العلماء والرواة والتجاروالكتّاب الذين التقاهم في أسفاره.

منهج ياقوت الحموي في تأليف المعجم:

اتخذ ياقوت الحموي لنفسه منهجاً موسوعياً في تأليف المعجم يمكن تلخيصه فيما يلي:

1. ضبط أعلام الجغرافية (بالتشكيل والحروف) لبيان نطقها الصحيح، تجنّباً للخطأ عند نطقها أو كتابتها، مثال ذلك: (اَخْسِيْكَثُ) بالفتح ثم السكون وكسر السين المهملة وياء ساكنة وكاف وثاء مثلثة.
2. تفسير تلك الأعلام، وبيان اشتقاقها اللغوي، وتوضيح منشأ التسمية وأصلها.
3. تحديد موقع المكان، إما بالإقليم، وإما بما جاوره من الأماكن والأنهار والبحار المعروفة والمشهورة، وبيان طوله وعرضه، وتحديد البرج الذي يقع تحته.
4. ذكر لمحة موجزة عن البلد ومن بناها، وتاريخ فتحها، وذكر أبرز الأحداث والتطورات التاريخية التي مرّت بها حتى عصره، مع التطرق إلى خططها وآثارها. وقد تفرد ياقوت بذكر عدد من الحوادث التاريخية التي وقعت في عصره ولم تذكرها المصادر التاريخية الأخرى.
5. ذكر المنسوبين إلى البلد من العلماء والأدباء، وتواريخ ولادتهم، ووفياتهم، ومؤلفاتهم (إن كانت لهم مؤلفات).
6. ذكر ما ورد عنه من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وما قيل فيه من حكم وأمثال وأشعار، ولا يبخل علينا ياقوت بذكر ما قيل في البلد أو المدينة من (مدح) أو (ذم) - شعراً ونثراً - وقد يقتصر ذلك أحياناً على الأقاليم والحواضر الكبرى التي أفردت لها مصنفات.
7. عرض ما يتَّسم به البلد من خصائص نفسية واجتماعيه، وإثنولوجية (علم الأعراق والفصائل البشرية)، وعادات وتقاليد، ...إلخ.

ومن المؤكد أن هذا المنهج مما يصعب تطبيقه والوفاء به في مواد المعجم كلها، وهو ما نبَّه إليه المؤلف في مقدمته. ويرتبط ذلك بمدى أهمية المكان وبما يتوفر لديه من معلومات عنه فقط، أما عندما تعوزه المعلومات عن بعض المواضع، فإنه يكتفي بما حصّله عنها، وقد لا يتجاوز في بعضها السطر الواحد، وخاصة تلك المواضع التي اعتمد فيها على مصنفي المعاجم العربية كابن دريد الأزدي مؤلف «الجمهرة»، ومن تابعه كأبي عبيد البكري (المتوفى سنة 487هـ) والزمخشري (المتوفى سنة 538هـ)، ...إلخ. فاستوعب المعجم نتيجة لهذا المنهج والعقلية الموسوعية لمؤلفه، الكثير من العلوم والمعارف السائدة آنذاك، حتى غدا موسوعة ضخمة، ليس في الجغرافية فحسب، بل في اللغة والأدب والنحو والصرف والتاريخ.. وأصبح الآن مصدراً لا غنى عنه في هذه العلوم، لأن جزءاً كبيراً من المصادر التي نقل عنها ياقوت هلكت في خضمّ المصيبة الكبرى التي اجتاحت العالم الإسلامي، ممثّلة في غزو التتار. وليس أدلّ على ذلك من أن عشرات من دواوين الشعر العربي التي فُقدت، واتجه الباحثون في الوقت الحاضر لإعادة جمع ما تبقى منها، كان (معجم البلدان) هو المصدر الوحيد لعدد غير قليل من قصائد تلك الدواوين.

ومما أسبغ على (معجم ياقوت) شهرته الواسعة: شموليته وتمثيله لوحدة العالم الإسلامي آنذاك، من أقصى الأندلس إلى حدود الصين، قبل تفككها على يد التتار، وقبل سقوط الأندلس.

ولتحلي ياقوت بالإنصاف والموضوعية في تحرير مادة المعجم أيضاً، وتحليه كذلك بروح النقد العلمي، ومقدرته على التمييز بين الغث والسمين من الأخباروالروايات المتعلقة بمادة معجمه، فيصحِّح خطأ ما تبيّن له خطؤه، أوينبّه على شكّه فيه، وقد يعلن براءته من بعض النصوص التي نقلها، ولكنه يحرص على ذكرها من أجل ظرافتها، أو من باب إحراز الفائدة، ...إلخ.

ولما لهذا المعجم من أهمية تراثية بالغة فقد تبنّت (دار الكتب) في (أبوظبي)، في دولة الإمارات العربية المتحدة، (المجمع الثقافي) سابقاً، وتتبع حالياً (دائرة الثقافة والسياحة) استشعاراً منها لدورها الرائد في خدمة الثقافة العربية الإسلامية تحقيق هذه الموسوعة التراثية المهمة، وكان لي الشرف أن كُلِفتُ بتحقيق هذا المعجم تحقيقاً يليق بمكانة المعجم وبمكانة الدائرة، وأعكف على تحقيقه منذ سنوات عدة.

وكان من أبرز دواعي تحقيق المعجم أنه بطبعاته الحالية غير مفيد للباحثين والمحققين وطلاب العلم على الإطلاق من غير تحقيق علمي حديث، يركز على تحقيق تلك المواضع والبلدان والمدن الواردة في العجم ويُعرف بكل موضع: هل اندثر أو لا يزال باقياً؟ وهل لا يزال معروفاً باسمه أو أنه قد تغير وأصبح يعرف باسم آخر؟ وأين موقعه الآن على وجه الدِّقة؟ وفي أي بلد (دولة) هو؟

فتعريفات ياقوت للمواضع والبلدان لم تعد تناسب عصرنا، فمثلاً: تحديد ياقوت - ومن سبقه - للمواضع الواقعة في الجزيرة العربية بأنها في ديار أو في بلاد القبيلة الفلانية (بلاد كلب، بلاد بني أسد، بلاد بني عامر، بلاد بني سعد، ...إلخ)، وقد تغيرت حالياً مواطن تلك القبائل، وانقرض بعضها، وقد يُعرِّف المكان بالإقليم الواقع فيه، مثل: بلاد البحرين، أو خراسان، أو بلاد ما وراء النهر، أو بلاد السودان. وبلاد البحرين في عهد ياقوت ومن سبقه كانت تمتد من البصرة إلى حدود عُمان، وتشمل الآن: معظم أراضي دولة الإمارات العربية المتحدة، وقطر والبحرين والكويت والساحل الشرقي للمملكة العربية السعودية. وخراسان الآن موزعة بين ثلاث دول: إيران وأفغانستان وتركمانستان. انظر مادة: (خراسان) في طبعتنا. وبلاد ما وراء النهر: تشمل المناطق الواقعة خلف نهر جيحون، المعروف حالياً باسم: أمو داريا (Amu Darya) وتتوزع هذه الأراضي حالياً بين الجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى التي كانت تحت الاستعمار الروسي: أوزبكستان وطاجكستان وقرغيزستان وكازاخستان وبعض أراضي تركمانستان. وبلاد السودان (القديمة) تشمل (أغلب دول أفريقيا الوسطى)، ما بين السودان الحالي إلى أطراف مالي والسنغال في غرب أفريقيا.

وهكذا معظم ما ورد في المعجم من تسميات لبلدان ترد إما منسوبة إلى القبيلة وإما إلى الإقليم. وعندما يعتمد الباحثون المعاصرون على التعريف بتلك المواضع كما وردت في معجم البلدان، فإنهم إنما يعرِّفون مجهولاً بمجهول.

وتأسيساً على ما أشرنا إليه في الفقرة السابقة فإن تحقيق (المادة) الجغرافية للمعجم سيكون بأسلوب عصري يُذكر في الحواشي: نبذة موجزة عن (الموضع)، واسمه الحالي أو القديم إن كان لا يزال معروفاً به، وفي أي بلد (دولة) هو، والمحافظة أو الولاية التي يتبعها، وموقعه منها أو من أشهر معلم جغرافي بارز في المنطقة، والمسافة بينهما، مع إثبات (إحداثيات) الموقع (خطوط الطول والعرض) ليسهل معرفته على الخرائط الحديثة وعلى أرض الواقع، مع إضاءة موجزة عن التطورات التاريخية التي لحقت بالمكان منذ وفاة ياقوت - إن وجدت - ونطمح إلى أن تكون مع النسخة المطبوعة (ورقياً) من المعجم نسخة أخرى (إلكترونية) يظهر فيها النص كما ورد في المعجم، مع تعريفنا المعاصر للمكان، وموقعه على الخريطة، كما هو الشأن في الموسوعات العالمية الحديثة ■

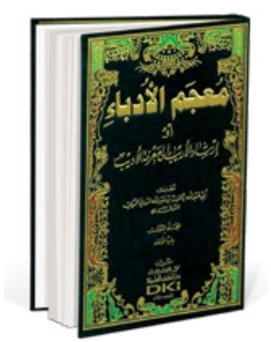

* دائرة الثقافة والسياحة - أبوظبي

الهوامش:

1. كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، ط2، دار الغرب الإسلامي، (1987م)، ص 359.
2. تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، حسين مؤنس، مدريد: معهد الدراسات الإسلامية، 1386هـ/1967م، ص 418.
3. مقدمة معجم ما استعجم 1 / ج د.
4. كوركيس عواد: الذخائر الشرقية، جمع وتقديم جليل العطية، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1999م، 3/382.

الموسيقى في الحضارة الفارسية

نورة صابر المزروعي
أكاديمية من الإمارات

تعد الحضارة الفارسية واحدة من ثلاثة مراكز رئيسية للحضارة العالمية، إلى جانب الحضارة المصرية القديمة وحضارة بلاد الرافدين. نجد أقدم السجلات التاريخية التي تؤكد أن وجود الموسيقى في بلاد فارس يعود إلى الألفية الخامسة قبل الميلاد. كان للموسيقى أهمية كبيرة على مدى العصور ويتجلى هذا الاهتمام في الرسوم والآثار المنحوتة عبر العصور التاريخية وتشهد الآثار المتبقية في المعابد والقصور القديمة مثل «قصر جهلستون» على مكانة الموسيقى في الحضارة الفارسية. وعُرفت الموسيقى الفارسية بسحرها وجمالها التي تأثر بها الغزاة والفنانون الشرقيون، فعندما احتل الإسكندر الأكبر بلاد فارس عام 330 قبل الميلاد، سُحر بجمال موسيقاها.

التداخل الثقافي بين الحضارة الفارسية والحضارات الشرقية

تتداخل الموسيقى الإيرانية التقليدية في الكثير من الروافد لثقافات وحضارات أخرى. وتعتبر الموسيقى الهندية صاحبة التأثير الأكبر على الموسيقى الفارسية، ويشير الباحث الموسيقي الإيراني فتح الله ناصح بور، أن بهرام ملك الساسانيين طلب من ملك الهند أن يرسل له 1200 موسيقي هندي ليستمتع الإيرانيون بموسيقاهم. وأشار الراحلة ريحان البيروني إلى تأثر الموسيقى الهندية بالموسيقى الفارسية. ويمكن تعقّب الأثر الذي لعبه الهنود في الموسيقى الإيرانية من خلال الآلات الموسيقية الهندية الشائعة في الموسيقى الإيرانية. كآلتي: القان والداراي، ومن الناحية الأخرى تتأثر الموسيقى الهنديَّة كذلك بالموسيقى الإيرانية، فالتأثُّر بينهما كان متبادلاً، فالسلطان الهندي أكبر شاه كان في بلاطه موسيقيون إيرانيون من بينهم الموسيقي والشاعر أمير خسرو دهلوي. إن الموسيقى الهندية اليوم تعتمد على أسلوبين أحدهما يسمى الهندوستاني وهو شائع في شمال الهند وتعود جذوره إلى الموسيقى الإيرانية. أما في العالم العربي، فقد دخلت الموسيقى الإيرانية عبر شبه الجزيرة العربية بعد انهيار الإمبراطورية الساسانية في معركة نهاوند والقادسية في عهد عمر بن الخطاب، وقد هاجر الكثير من الفرس إلى الحجاز ثم توطدت صلات العرب بالموسيقى الفارسية وذلك عن طريق العمال الفرس الذين اشتغلوا في المدينة المنورة وفي مكة المكرمة، وأسهموا في بناء المسجد الحرام وقد نقلوا عدداً من أغانيهم وألحانهم إلى جزيرة العرب، من بينهم الملحن سائب خاثر، المتقن لأصول العزف على آلة العود، ويرجع له الفضل في إدخال الألحان الفارسية في الشعر العربي، ومن الأسماء الفارسية التي لمعت في الفن طويس الذي كان يغني ويلحن وينشر الثقافة الفارسية في الجزيرة العربية، كما تأثر العرب بنشيط الفارسي وألحانه الفارسية التي أصبحت متداولة فيما بين العرب. وامتد تأثير الموسيقى الفارسية إلى العصرين الأموي والعباسي، واشتهر الكثير من موسيقيي الأصول الفارسية أمثال ابن مسجح الذي كان يغنّي أشعاراً عربية بألحان فارسية، وقد عكف على دراسة السلّمين الموسيقيين اليوناني والفارسي واختار من بين درجاتهما الأصوات التي تتماشى مع الذوق العربي، وابن محرز الذي تعلم أصول الغناء ثمّ سافر إلى بلاد الشام حيث تعلم ألحان الروم في العزف، ومزج بين مختلف المدارس لينشئ ألحاناً وأغاني متفردة. كما تأثرت الشاعرة عزة الميلاء بالفن الفارسي. تعود بداية دخول الموسيقى الفارسية إلى تركيا إلى عام 1047، إلى عهد السلطان مراد الرابع الذي فك الحصار الفارسي عن بغداد وأمر إثرها بقتل ثلاثين ألفاً من جنود الفرس الذين حاصروها، عندها اخترق الصفوف شاه كولي - يعد من كبار الموسيقيين في بلاد فارس - وتقدم إلى السلطان مراد يُغنّيه بصوت شجي، وأثر صوته في السلطان، فعفا عنهم، وأمر السلطان بأخذه وأربعة من الملحنين ممن كانوا في صفوف الجيش الفارسي إلى الآستانة، وهناك أدخلوا الموسيقى الفارسية إلى تركيا، ثم انتقلت الألحان الفارسية ومقاماتها إلى الشام ومصر والمغرب والبلاد العربية، وانتشرت إيقاعات وتوزيعات موسيقية خاصة بمنطقة بلاد فارس في المشرق العربي. وبرز التأثير الموسيقي الفارسي في المقامات الشرقية العربية، وأشهر المقامات التي ارتبطت ببلاد فارس، مقام «الراست»، و«النهاوند»، و«اليكاه»، و«السيكا»، والتي جاء عدد كبير من أشهر الأغاني العربية المعاصرة على ألحانها، فعلى مقام السيكا، جاءت أغلب أغاني أم كلثوم الشهيرة، مثل «الأطلال» و«سيرة الحب»، و«للصبر حدود»، ولمحمد عبده، مثل «لنا الله»، و«أسابق الساعة». وعلى مقام النهاوند، جاءت أغنية «بفكر في اللي ناسيني» لمحمد عبد الوهاب، و«زهرة المدائن» لفيروز. كما اعتمدت هذه المقامات واشتهرت في التلاوة عند مقرئي القرآن الكريم.

الآلات الموسيقية في الحضارة الفارسية

وفقاً لتلك السجلات فقد كانت أقدم الآلات الموسيقية في إيران، هي: القوبوز، والجنك، وآلة العود، والهارب، وسه تار، و دوتار. ويذكر الدكتور القطاط أنه أثبتت نتائج عمليات التنقيب وفك اللغة المسمارية أن هذه الآلات كانت شائعة في بلاد فارس من القرن السادس عشر قبل الميلاد، حيثُ وجدت ألواٌح طينية منحوت عليها مشاهد لعزفٍ على آلة العود والجنك والهارب في مدينة سوسا، وكذلك بعض الكؤوس البرونزية مزخرف عليها بمشاهد لآلات العزف الفارسية.

1. القوبوز: تعتبر الآلة الأم لجميع الآلات الموسيقية التي يتمّ العزف عليها في الشرق الأوسط. وقد عُرفت منذ 500 سنة وحتى الآن باسم آلة العشق، وهي آلة قديمة جداً ووفقاً لبعض وثائق علم الآثار تعود جذورها إلى 6000 سنة تقريباً.

2. الچنگ: إحدى الآلات الوترية الموسيقية الفارسية القديمة. تظهر الآلة في اللوحات الجدارية الفارسية القديمة، وقد تغيَّر شكلها بتطوُّر صناعتها منذ ما يقرب من 4000 سنة قبل الميلاد. تُعزف هذه الآلة في الأغلب من قِبل النساء.

3. سه تار: وهي إحدى الآلات الوترية التي تنتمي لعائلة العود. وتتكون الكلمة من مقطعين «سه» يعني ثلاثة، وكلمة «Tar» تعني وتر. نشأت في بلاد فارس قبل انتشار الإسلام وتستخدم على نطاقٍ واسع في جميع الأقاليم في إيران ودول جنوب شرق آسيا.

4. دوتار هي إحدى الآلات الموسيقية القديمة في إيران وتم تسجيل عزف دوتار في منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (اليونسكو) كجزء من التراث الوطني الإيراني ■

المصادر والمراجع:

1. محمد كامل حجاج، الموسيقى الشرقية: ماضيها وحاضرها نموها في المستقبل، مؤسسة هنداوي للنشر، المملكة المتحدة، 2018.
2. محمود القطاط دراسة بحثية بعنوان «آلة العود بين دقة العلم وأسرار الفن»، مركز عُمان للموسيقى التقليدية، وزارة الإعلام، سلطنة عُمان، مسقط، 2006.
3. الموسيقى الإيرانية صوت الحضارة العريقة، وكالة الجمهورية الإسلامية للأنباء (إرنا) إيران، طهران، 22 أغسطس 2021.
4. https://ar.irna.ir/news/84444662
5. خالد بشير، أبرز التأثيرات الفارسية في الثقافة العربية، صحيفة ثقافية «حفريات»، مركز دال للأبحاث وللإنتاج الاعلامي، القاهرة، 24 نوفمبر، 2020، https://hafryat.com/ar/blog/

الجلواح: نوافذ الشعر والأدب والثقافة لا حدود لها

هشام أزكيض

ولد الكاتب والشاعر السعودي محمد بن طاهر بن حسين الجلواح، في شرق المملكة العربية السعودية، وبالضبط في بلدة القارة عام 1375هـ - 1955م، اهتمامه بالأدب والثقافة دفعه إلى الانخراط في تشييد معالم نادي الأحساء الأدبي، لذا عمل عضواً بمجلس الإدارة، ومدير العلاقات العامة لهذا النادي في الفترة ما بين الأعوام من 2007 إلى 2019.

كَتَبَ القصيدة الشعبية، والفصيحة العمودية وقصيدة التفعيلة، ونَشَرَ مئات القصائد، والموضوعات مختلفة الأغراض في الصحف السعودية والخليجية والعربية على مدى أكثر من أربعين عاماً، وكَتَبَ عدداً من الزوايا الصحفية الأسبوعية والشهرية الثابتة والمُتَغَيِّرة لسنوات ومرات عديدة.

أسهم في إعداد وتحرير «معجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين» الصادر في طبعاته الثلاث الأولى في الكويت. كما شارك في كثير من الأمسيات الشعرية، والمهرجانات والمؤتمرات والملتقيات والندوات الثقافية والأدبية والفكرية الرسمية، بدعوة رسمية من إداراتها داخل المملكة وخارجها، ومن بينها: مهرجان الجنادرية بالرياض، وأمسيات معرض الكتاب الدولي بالرياض لسنوات عدة، ودورات مؤسسة البابطين الثقافية في مدن عربية، وأجنبية مختلفة، ومهرجانات الأندية الأدبية بالمملكة، ورابطة الأدباء بالكويت، والمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت، ودائرة الثقافة والعلوم بالشارقة، وأبوظبي ودبي، وغيرها، وقام بإعداد وتقديم برنامج ثقافي أَسْماهُ «نخلة وزَوْرَق» في القناة الثقافية السعودية، خلال عام 2013.

ومن أبرز مؤلفاته: - «نَزْف» ديوان بالفصحى - «حكوكة» قصائد بالعامية - «الطاهرون» ديوان بالفصحى - مقالات أدبية متنوعة - «قوارير» ديوان بالفصحى - «زوارق» مقالات في الثقافة والأدب والسيرة والذكريات وصور من الحياة المعاصرة... وللتعرف أكثر إلى رؤى الشاعر السعودي محمد بن الطاهر بن حسين الجلواح، تجاه العديد من القضايا الأدبية والثقافية أجرينا معه الحوار الآتي:

• نستهل حوارنا هذا، بعد الترحاب، بالاستفسار حول تجربتك الأدبية المتعلقة بالمؤسسات؛ فقد توليت العديد من المهام داخل الجهات، والمؤسسات الثقافية والأدبية والاجتماعية بالأحساء والخليج، فهل يمكنك أن تحدثنا عن أهم تجربة لك داخل هذه الجهات والمؤسسات، التي أسهمت بشكل فعال في التغيير الثقافي؟

سأتحدث باقتضاب شديد عن تلك التجارب، إذْ إن كل تجربة منها لها قسط وافر من الأهمية، وتحتاج إلى شرح طويل وكتابة مفصلة، وحِبْرٍ كثير، ووقت أطول، وأحمد الله تعالى أنني أسهمت. بقدر استطاعتي الجسدية والفكرية والمادية. فيها بشكل مباشر، إما مؤسِّساً. كأغلبها. أو مشاركاً في عضويتها.

وأبرز ما يدور في بالي هذه اللحظة هو تأسيسي لمكتبة (نادي الجَبَل الرياضي بالقارة) بالأحساء في التسعينيات الهجرية، والسبعينيات الميلادية من القرن الماضي، وكان لتلك المكتبة دور بارز في تشجيع الفتيان . آنذاك على القراءة والتردد على المكتبة ومصاحبة الكتاب، وكنا نُجري مسابقات ثقافية من واقع الكتب المقروءة من المكتبة. ثم جاءت فترة (النادي الكشفي) بالمدرسة المهنية الثانوية، وكنت عضواً فعالاً، لا مؤسِّساً في لجنة المكتبة والقراءة بالكشافة، وكنت أزود المكتبة بالإصدارات المحلية والخليجية.. وبعدها جاءت مرحلة تأسيس (مكتبة جمعية الثقافة والفنون بالأحساء) في العقد الأول من القرن الخامس عشر الهجري، والثمانينيات الميلادية حيث تشرفت بتأسيسها من الصِّفْر، ومكثت فيها نحو 4 سنوات أفهرسها، وأرتبها وأصنفها وأجلب لها الكتب من داخل المملكة وخارجها حتى أصبحَتْ مرجعاً مهماً لطلبة وطالبات المدارس، وأساتذة ومنسوبي وطلبة جامعة الملك فيصل بالأحساء والمعلمين للبحث والقراءة والمصادر، إلى جانب القراء وزائري الجمعية والمثقفين.

وبعد سنوات التحقتُ بـ (مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري) بالكويت، التي أضحى اسمها الآن: (مؤسسة عبد العزيز سعود البابطين الثقافية)، وعُيِّنتُ مُمَثِّلاً لها في المنطقة الشرقية بالمملكة، وحرصت أن يكون للشعراء والمثقفين في المنطقة الشرقية حضور ونفع وفائدة وذلك بالتواصل معهم وتزويد المؤسسة بإصداراتهم ومطبوعاتهم وبالعكس، ولتتاح لهم الفرصة بالمشاركة في دوراتها وأنشطتها ومهرجاناتها. ثم تأتي المرحلة الأخيرة والطويلة والمهمة في هذا الميدان وهي مشاركتي في المجلس (التأسيسي) الأول لـ(نادي الأحساء الأدبي) في عام1428هـ/2007م، حيث تم تعييني من مقام وزارة الثقافة والإعلام ضمن عشرة أشخاص من الأحساء لتولي مسؤولية أول (مجلس إدارة) للنادي بعد صدور الموافقة الكريمة على إنشائه من لدن خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله بن عبد العزيز رحمه الله. وتم انتخابي من الأعضاء في هذا المجلس منذ أول يوم (مسؤولاً إدارياً) للنادي، وبقيت في هذا الموقع حتى نهاية شهر جمادى الأولى من عام1441هـ، الموافق مطلع العام الميلادي 2020م. وفي هذه السنوات التي تربو على الأحد عشر عاماً استطعت ولله الحمد. أن أخدم بلدي ومجتمعي، وأصدقاء الحرف والكلمة والمثقفين نساءً ورجالاً داخل الأحساء والمملكة وخارجهما، وفق الأنظمة والإمكانات..

• تم اختيارك من قِبل وزير الثقافة والإعلام السعودي، الدكتور عواد العواد عضواً في لجنة مراجعة، وتعديل لائحة الأندية الأدبية بالمملكة العربية السعودية، فكيف أسهم هذا العمل في الرقي الثقافي والأدبي آنذاك، وهل يمكن أن نتحدث هنا عن برنامج عمل قائم بذاته؟

عُرِضَتْ (لائحة الأندية الأدبية بالمملكة العربية السعودية) على أكثر من لجنة تعديل وتدقيق ومراجعة خلال العشر السنوات الأخيرة، وكنتُ ضمن آخر لجنة تعديل لهذه اللائحة، وذلك قبل 3 سنوات، وقد سبقنا في ذلك عدد من اللجان المختارة التي انتهى عملها إلينا؛ فقمنا بمراجعة وعمل ذلك من حيث انتهت، كما تم اختيار الأعضاء في كل لجنة من تلك اللجان بدقة ومراجعة ومعرفة مسبقة لكل شخص، ومدى درايته بالعمل الإداري والقانوني والفني ومدى نشاطه وحضوره وتجربته وخبرته في الساحة الثقافية المحلية. ويؤسفني أن أذكر أنه بعد أن اشتغلنا في اللائحة لمدة 3 أشهر متواصلة، وأدخلنا عليها بعض التعديلات والإضافات والتصحيحات وغيرها ورفعناها إلى مقام الوزارة. تم إعفاء معالي وزير الثقافة والإعلام الأستاذ عواد العواد الذي كلفنا بها من منصبه، واستحداث وزارة جديدة خاصة باسم (وزارة الثقافة)، أي: بشكل مستقل عن (وزارة الإعلام)، وفي ذلك بقيت

اللائحة، على ما أظن، في مكتب وزير الإعلام الجديد، ولا نعلم عنها شيئاً الآن .. واللائحة كانت حبلى بأفكار كثيرة وبرامج ثقافية متعددة ومتنوعة، ومنها، على سبيل المثال: الاهتمام بإبداعات الشباب وإصداراتهم، وكذلك الاهتمام، في المقابل، بالتراث الشعبي، والأيام الثقافية العالمية،.. وغير ذلك.

• دواوينك الشعرية تتوزع بين القائمة على اللهجة العامية والقائمة على اللغة العربية الفصحى، فهل يمكنك أن توضح لنا الغاية من هذا التنوع ومراميه؟

كنتُ أكتب الشعر الفصيح والشعبي (الدارج) معاً، في بداية مشواري، وأصْدَرْتُ أول ديوان لي باللهجة الشعبية عنوانه (ترانيم قروية) عام: 1410هـ ،1990م، واحتفَلْتُ قبل أيام بمرور 30 عاماً على إصداره، وقد احتوى على مختارات معينة من النصوص والقصائد الشعبية، وليس على كل ما كتبت، وبقِيْتُ أكتبُ اللونين معاً حتى عام: 1422هـ،2001م، ثم توقفْتُ عن كتابة هذا اللون من الشعر لسنوات طويلة، وبعدها، أصدرت الديوان الشعبي الثاني (حَكُّوكة) عام 1439هـ، 2018 م.

ولا شك أن التنوع له أهميته من الناحية الشكلية والمعنوية، وله أهميته الأخرى في رصد وتسجيل ما لديك من مخزون وموهبة شعرية في هذا اللون من الشعر. ومع أنني توقفت منذ أكثر من عشرين عاماً عن الكتابة بالشعبي فإن الحنين يأخذني أحياناً للكلمة الشعبية. والتنوع مطلوب من الكاتب والشاعر والفنان والمبدع إذا كان يملك أكثر من اتجاه في ذلك.

• في هذا السياق هل اللهجة العامية، لها قيمة مضافة أدبية في ما يكتب وينشر؟

بالطبع فهي رافد مهم جداً لرصد وتوثيق المخزون، والتراث الشعبي من الكلمات المحلية التي قد تندثر مع مرور الوقت، ومع تداخل اللهجات الوافدة، ووسائل التواصل الاجتماعي وغير ذلك. وهي كذلك لرصد أسماء وصور وعادات مجتمع ما...في منطقة ما.. في زمن ما، وليس أكثر. وفي ذلك دقة من اللهجة الشعبية الدارجة للتوثيق والحفظ.

لقد عرفنا أشياء كثيرة كانت تستخدم في المجتمع ثم اندثرت، وجاءت النصوص الشعرية الشعبية، أو الروايات التراثية ووثقت تلك الأشياء، ولعل ديوان(حَكُّوكة) يترجم شيئاً من ذلك في بعض نصوصه، وفي (الملحمة الشعبية)..

• جمعت في كتابك «فضاءات» جملة من المقالات الأدبية المتنوعة، هل يمكنك أن تحدثنا عن أهم القضايا التي تناولها الكتاب باختصار؟

كتاب (مسارات)، و(فضاءات) بجزئيها الأول والثاني، وكتاب زوارق .. هذه كتب جَمَعَتْ مقالاتي المتنوعة التي نَشَرْتُ جُلَّها في الصحف المحلية والخليجية والعربية، وهي إضمامة مختارة من المواضيع المكتوبة بصيغة أدبية وبأسلوب صحفي بسيط قريب من القارئ.. وأعرض للقارئ الكريم عناوين بعض المقالات التي تضمنتها تلك الكتب: الفانوس/ مع نيلسون مانديلا / في قلب الإنترنت/ الجدل والجدال والمجادلون/ الحِكَم القرآنية/ أوراق وطنية/ لُغْز المرأة،وماهيتها/ العربية.. جميلة ممسوخة/ الأغاني المعاصرة/ كلمات عربية في الإنجليزية / المتشابهون/ النخلة/ جمعية حقوق الرجال/ ذكريات رمضانية/ مؤسسة البابطين.. وزارةثقافة/ وقفة على قبر المعتمد بن عباد في أغمات بالمغرب/ مجلة العربي الكويتية/ بين القصيدة والنثيرة/ عالم القواميس والمعاجم/ (السُّكَري.. اسم على غير مسمى)/ (السيجارة).. الفيتامين الأسود/ الغش حلوٌ.. مُرّا.. إلخ.

• «حكوكة» هو عنوان كتابك الذي يتضمن قصائدك بالعامية، والمنشورة عام 2018م، ويتضمن قصيدة «الملحمة الشعبية» التي ترصد بعض صور حياة ما قبيل النفط، في إحدى قرى الأحساء، فما هي أهم سمات هذه الملحمة وتصوراتها لهذا الواقع - إن صح هذا التعبير - ؟

(الملحمة الشعبية) البالغ عدد أبياتها 226 بيتاً ثنائياً.. (كل بيتين بقافية واحدة).. قصيدة شعبية طويلة حاولتُ فيها أن أرصدَ جانباً من حياتنا قبيل النفط، وتتضمن كلمات، ومفردات محلية، وأسماء ألعاب وعادات، وصور كثيرة مقرونة بالشرح والصورة.. اندَثَرَ أغلبها الآن .. أويكاد، أو فيها بقية من وجود. وقد عاصرتُ..أنا .. أواخر ذلك العهد في الثمانينيات والتسعينيات الهجرية،/الستينيات والسبعينيات الميلادية من القرن الماضي، ورأيتُ بشكل مباشر عملية الانتقال إلى الحياة المعاصرة بمفرداتها وصورها. وتقدِّمُ الملحمة عرضاً معرفياً بالنص الشعري للمادة المراد شرحها، (محاطة بقوسين) في النص للاستدلال بها، مقرونة بصورة ملونة لها، ثم شرحاً وافياً لها بالهامش، وحرصت أن يصل ذلك وبفهمه كل العرب بمختلف مناطقهم وبيئاتهم وبلدانهم، ويمكن الرجوع إليها في ديوان (حَكُّوكة) للوقوف على ذلك مباشرة.

• نالت كتاباتك، إقبالاً من حيث الدراسة، فهل يمكنك أن تخبرنا عن أهم الدراسات، والأبحاث التي تناولت أعمالك، ومارأيك تجاهها؟

تناول بعض الأدباء والكُتّاب بعض مؤلفاتي، ومن بينهم الأديب والشاعر الأستاذ الدكتور فوزي خضر أستاذ الأدب والنقد والبلاغة في جامعة الطائف الذي قام بدراسة نقدية وافية لديوان (قوارير)، وكذلك الأديب السعودي الراحل سليمان الشراري الذي استعرض كتاب (فضاءات) بجزئيه الأول والثاني، وغيرهما.

• شاركت في العديد من الملتقيات، والأمسيات، والندوات الثقافية والفكرية داخل وطنك وخارجه، فهل يمكنك أن تحدثنا عن كيف يمكن لهذه اللقاءات والملتقيات أن تسهم في صناعة الثقافة محلياً وعالمياً؟

لاشك أنني استفدتُ، وأفدتُ من تلك اللقاءات والمهرجانات والأمسيات والندوات التي شاركت فيها داخل المملكة وخارجها، وساعدتني الظروف أن أتفاعل معها، وهي مصدر مهم لتبادل الأفكار والمؤلفات، كما أنها فرصة للاطلاع على ما يقدمه الآخر، ولتبادل الأفكار وغيرها ■

* شاعر وقاص مغربي

الشعر العربي إلى أين؟؟؟

«لماذا انكفأ الشعر العربي وتصدَّرت الرواية قائمة الأدب»

جميل لحام

لا تزال الرواية سيدة الحضور الأدبي في القراءات وفي النتاج الكتابي، وفي طلب القراء عليها في حين توارى الشعر عن الأنظار وتضاءل جمهوره، ما يفتح هناك باب للتساؤل.

- أين ذهب الشِّعر؟ ولماذا هذا التراجع الحاصل في قيمة الشعر كواحد من أهم فروع الأدب، وهل هذا ما آل إليه ديوان العرب وحجتّهم التي يفاخرون بها بين الأمم؟

قال بعضهم: إن الشاعر اليوم يحمل هماً فردياً لذلك ابتعد عن الجموع، قد يكون هذا صحيحاً نسبياً، لكن هذا لا يعني أن هموم الرواية وجودية وكلية؛ إذ لا شيء شموليٌّ في الحياة، هناك نسبية في كل أمرٍ، ومهما كانت الآراء فهذا لا يعني أن نقبل بتنحية الشعر على هذا النحو.

نستطيع باستطلاعٍ بسيط أن نتبيَّن حاضر التراث الشعري، فإذا سألتَ أحدهم من شاعرك المفضل؟ قد تعيد السؤال على مئةٍ من السامعين ليجيب واحدٌ، والأصعب من هذا قد تسأل أحدهم: هل تحفظ شيئاً لأبي العلاء المعري، أو النابغة، أو الأعشى أو غيرهم من شعراء العرب؟ وقد يصدمك الجواب: من هؤلاء؟!

نعم، هذا حقيقيٌّ، لقد طوى الشعر حقبة الازدهار، بعد أن كان لنصاعته وجودته يُكتب بماء الذهب، ولم يكن مكتوباً حتى، بل كان يُتناقل شفاهاً ويحفظ في صدور القوم أو الرواة، لكن أين الرواة اليوم؟! يمكن أن نتحدث عن مئات المشاهير في مواقع التواصل، قد يسمع بهم الجميع، لكن قليل من يتذكَّر ماضيه الأدبي والشعري.

حسناً، يمكن تجاوز السؤال السابق ونسأل السؤال التالي:

- من مطربك المفضل؟

ستجد مئات الإجابات من دون تردد، وأن تسأل لاحقاً: أية أغنية تحفظ له؟ سيأتيك بتاريخه الغنائي مفصلاً وأبرز محطات حياته. لكن من شاعرك المفضل؟ إنه سؤال لا يجد إجابته إلا نادراً، وقليلٌ من الشعر ما حُفظ.

أين العلة في هذا؟ أعتقد أن السبب قائمٌ على السماع، ما تُملأُ به الأذن ستفيض به، ونحن لا نسمع سوى الأغاني، حتى مسابقات اليوم يستطيع أطفالها وكبارها أن يحفظوا أغاني المطربين، فيما

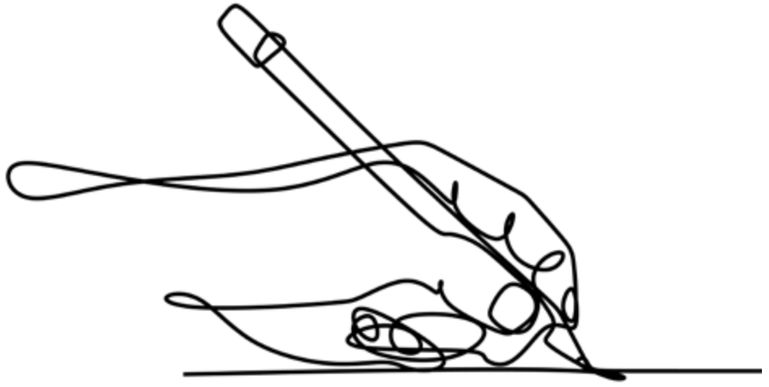

تنحَّت المساجلات الشعرية المحفوظة، ولم يعد هناك من يُباري بحفظ قصيدة حتى إن كانت غزلية ليقولها لحبيبته، لأنها قد تسخر من الغزل (النحويّ المرصَّع لغوياً).

كانت شبه الجزيرة العربية على الدوام حاضنة الإبداع، منها انطلق الشعر صوب العالم، وعلى الرغم من أنه لم يكن مكتوباً بعد فإنه لقي انتشاراً واستحساناً هائلاً، أما اليوم، مع توفر الكتابة ووفرتها هناك مكان ضئيلٌ يحتله الشعر. شعرنا هو تاريخنا الأدبي، وإرثنا الحضاري الفنيّ، وإن كُنا لا نستطيع أن نعيد كتابة المعلقات بماء الذهب وتعليقها، فتلك عادة لم تعد مقبولة دينياً، لماذا لا نعيد إحياءهُ في الصدور وفي التناقل الشفاهي، كي تبقى ميزتنا في الحفاظ على أصالتنا ماثلةً في حاضرنا. لماذا نقتدي بالغرب ونحن من أرسل إليهم العلوم والمعارف! لماذا انقلبت التسميات وأصبحنا مغلوبين ثقافياً بعد أن كنا غالبين؟ وهل حقاً علينا أن نأخذ بمقالة ابن خلدون في مقدمته عن اقتداء المغلوب بالغالب؟ لكن هل ترى واحداً من أبناء ذاك «الغالب» لا يعرف ماضيه الفني والثقافي؟ هل يوجد بينهم من لا يعرف ليوناردو دافنشي، أو بلزاك، أو موليير؟ نحن فقط من لا يهتم كثيراً بمن صنع ماضي ثقافته، نستطيع مع ذلك أن نعرف بلزاك وموليير ولا نعرف بديع الزمان الهمذاني، نستطيع أن نعرف الماركات العالمية في الأسواق العالمية «جيفنشي وديور» أيضاً، ولا نعرف من أين كان يمر طريق الحرير وأين كانت تذهب قوافل التجارة!

هل علينا أن نستمع إلى رأي الغرب في ماضي تراثنا الشعري؟ حسناً، قال أدونيس في محاضرةٍ ألقاها في معرض أبو ظبي الدولي للكتاب عام 2022 إن الفيلسوف إميل سيوران قال له:

«لماذا لم تخبرني بأن لديكم شاعراً يدعى أبو العلاء المعري؟ فبعد كل هذه السنوات التي قضيتها في الكتابة، أدركت بأنني كنت أكرر ما كان يقوله أبو العلاء المعري، ولو قرأته قبلاً لما كتبت فما من حاجةٍ للكتابة».

هل يمكن أن يجعلنا هذا ندرك أننا في مرتبةٍ أعلى ثقافياً، وأنَّ على سوانا أن يقتدي بنا على اعتبار أننا أصحاب الغلبة الثقافية تاريخياً!

وبالتعريج على ذكر معرض أبوظبي الدولي للكتاب فتجدر الإشارة إلى أن المعرض من تنظيم مركز أبوظبي للغة العربية الذي بدوره يقوم بإصدارات مميزة ومنها الاهتمام بالشعر والنثر، حيث أطلق مؤخراً سلسلة «عيون الشعر العربي» في كتيبات كل منها يحتوي على أبيات شعرية تخص موضوع معين.

وختاماً لمقالنا، الشعر كان ديوان العرب، وعليه أن يبقى محفوظاً في الكتب وفي الصدور أيضاً، علَّنا نستطيع تنقية السمع من شوائب العجمة الفنية واللغوية ويعود اللسان العربي قوياً مُبيناً ■

* كاتب من سوريا

«غالية» رواية تبحر في أعماق النفس الإنسانية

وتعيد إنتاج الموروث من التقاليد

نشوة أحمد

لطالما كانت النفس الإنسانية موسومة بالنقص، مجبولة على الخطأ، معطوبة بالتناقض والصراع، تتأرجح بين الأمل واليأس، والفرح والحزن، والحب والكراهية، والتمرد والاستسلام ... من هذه التناقضات نسجت الكاتبة الإماراتية نجيبة الرفاعي خيوط روايتها «غالية» الصادرة عن الدار المصرية - اللبنانية، القاهرة.

عبر عتبات النص الأولى استهلت الكاتبة رحلتها السردية بتوطئة تحيل إلى واقعية الأحداث، إذ وضعت شخصيتها المحورية في موضع الكاتب، واتسق مع هذه التوطئة استخدامها أسلوب السرد الذاتي، الذي عززت من خلاله صدقية وحميمية السرد. كما قررت الدخول مباشرة إلى قلب الحدث عبر الديالوج المسرحي، الذي عزز بدوره حالة الإيهام بالحدوث.

ومهدت من خلال هذا الديالوج؛ للتناقضات والمشاعر المتضاربة التي أحاطت بالبطلة، وتنوعت بين حبٍ وحقدٍ وعدمِ اكتراثٍ، في مشهد ضبابي أحال إلى حادث طعن تعرضت له وكاد يودي بحياتها. وعبر استباق الكاتبة بالحادث أتاحت جرعة تشويقية، زادت من سطوتها على القارئ ودفعته لمواصلة رحلة السرد، ثم عمدت إلى إزالة الضبابية والإعلان عن الجاني ودوافعه عبر تقنيات التذكر والاسترجاع، وعبر هذه التقنيات انطلقت إلى ماضٍ أبعد بلغت عبره طفولة شخصيتها المحورية، ووثقت ميراثاً من تقاليد وأعراف تعتز بالجذور والأصول، إلى حد تنجم معه إشكالية كبرى، تتصل بقبول الآخر في منظومة الزواج، وفي إطار العائلة.

استمرت الكاتبة في اللجوء إلى الحيل الاستباقية لتدفع بمزيد من التشويق إلى النص، لاسيما في الاستباق بالاسم الأخير لصالح «خان»، الذي كان سبباً في معاناة أبنائه، وأرجأت تفسير هذا اللقب لمرحلة متأخرة من السرد، وكذا أرجأت تفسير غياب الأم الهندية، وسر زواج صالح من ميثة، التي تنحدر من إحدى العائلات الإماراتية الكبيرة، ولغز اضطراب وعدم استقرار هذا الزواج. ورغم اتساع الفضاء المكاني للأحداث التي توزعت بين الشارقة، والعين، وعجمان، ودبي، فإنه كان فضاءً محلياً، يتسق مع القضية الجوهرية، التي أرادت الكاتبة طرحها، والتي تتعلق بالرفض الاجتماعي لزواج مواطن من وافدة مقيمة، ومعاناة الأبناء الناتجين عن هذا الزواج.

نفحات تراثية

تطرقت الكاتبة للتركيبتين الاجتماعية والسكانية لدولة الإمارات، اللتين تضمان إلى جانب المواطنين الإماراتيين جنسيات أخرى من الوافدين للعمل، لا سيما الهنود. كما عمدت إلى رصد وتوثيق بعض الأماكن والمعالم الإماراتية الحديثة والتراثية، مثل مطعم البوم في دبي، وسوق الشارقة القديم، وجبل حفيت، والحي الشرقي في عجمان.

ورصدت بعض الموروث من الأكلات مثل الهريس، والزي التقليدي مثل العباءة، والشيلة، والكندورة، والغترة، والعقال. كما رصدت بعض العادات الموروثة في الأعراس، مثل قيام أم العريس بجلب الهدايا والملابس للعروس قبيل الزفاف، وإشعال البخور، ونثر الدراهم على العروسين أثناء الاحتفال. كذلك برز حضور التراث فيما اعتمدته الكاتبة من نزوع حكمي غلف السرد، وفيما استدعته من المأثور. وقد اتسمت لغتها بعذوبة وشعرية لم تعطل السرد، بينما تخللتها بعض اللهجات المحلية التي انعشت النسيج، وزادت من جاذبيته.

«عوشة هي الأخرى من منطقة الرمس في إمارة رأس الخيمة، أضحك حين أسمعهما تتحدثان بلهجتهما المميزة، حين تقلبان الكاف شين في آخر الكلمة، تهجم عليّ شيخة مداعبة، تطوقني من الخلف وتقول: تضحكين علينا؟! هيا قولي أحبش أحبش عشر مرات وإلا بقتلش، فأصيح: خلاص أحبش أحبش أحبش، ونضحك جميعاً وأضحك كما لم أضحك من قبل» ص 69.

ألوان من الصراع

تنوعت أشكال الصراع في النص بين صراع خارجي تجلى في مواضع متفرقة من النسيج، منها الصراع بين ميثة زوجة الأب وأبنائها من جهة، مع غالية ابنة الأم الهندية التي لم تتقبلها العائلة من جهة

أخرى، وصراع الأب "صالح" مع زوجته، ومع ابنه، وكذلك صراع غالية مع نظرة المجتمع تجاه أصلها الهندي، الذي كان سبباً في تخلي عبد الرحمن عن رغبته في الزواج منها. أما الصراع الداخلي فاحتدم داخل غالية، التي انقسمت بين الخوف والإقدام، واليأس والأمل، والاستسلام والتمرد، والاغتراب والانتماء، وقد برر هذا التناقض والصراع في العوالم الداخلية للبطلة؛ ما قدّرته لها الكاتبة من تحوّل، فباتت الفتاة المنكسرة والمعطوبة بشعور النقص، أكثر جرأة وإقداماً وقدرة على منازلة الحياة، لاسيما بعد اقترابها من الموت، وبعد التقائها أستاذها الجامعي «عبيد»، الذي رسخ لديها هذا التحول.

ولم يكن التحول سمة لغالية وحدها، وإنما حصلت كل من ميثة زوجة الأب، وكذلك جواهر، وعبد الرحمن على نصيب منه، فعلى الرغم من الرداء النمطي الذي ارتدته هذه الشخصيات في بداية السرد، فإنها تخلت عنه مع تطور الأحداث، إذ تحولت ممارسات الرفض والتخلي إزاء غالية، إلى اعترافات صريحة وضمنية بالقبول، والانسجام.

وكما برز التقابل والتناقض في المشاعر المتباينة والمتصارعة للشخصية المحورية، برز مرة أخرى بين الشخوص، لاسيما في اختياراتهم ومناهجهم في مواجهة المشكلات ذاتها، فبينما تغلبت غالية على الاغتراب والرفض، وسلكت طريقها للنجاح، لم ينجُ راشد وسلك طريقاً أسهل انتهى بالضآلة والفشل.

كما برز التقابل بين ألم ومعاناة غالية، وبين سعادة زميلتها عزة «أراها فيستفزني فرحها، أي مسافة كبيرة تفصل بيني وبينها؟هل يزورها الحزن كما يأتيني؟ هل تشعر يوماً بالحاجة إلى شيء ما؟ كيف النعيم؟ الثراء؟ العائلة؟ كيف الإحساس بأنك أفضل من الجميع، وأنك فوق الرؤوس؟ وأنك ممتلئ حتى النخاع بالغنى والراحة والفخر؟» ص 46.

تقنيات سينمائية

عمدت الكاتبة إلى تحفيز حواس المتلقي عبر استخدامها لغة مشهدية، وضعت عبرها الأحداث في حيز الرؤية، وكذلك عبر استخدامها تكنيك سينمائي لا سيما المزامنة، التي جمعت من خلالها بين مشاهد من الماضي والحاضر، فرسمت في صورة واحدة شابة جريحة تعرضت لتوها للطعن، وطفلة - هي الفتاة نفسها - حلت على عائلة لا تعرفها، وزوجة أب ليست أمها.

«مشيت مع حصة والخوف يغزو خلايا جسدي الصغير، والطفولة التي بداخلي شاخت قبل أوانها. مازلت أسمعه يقرأ على رأسي، ويفيض عليّ من حنانه، أحاول ألا أنام، لا أريد أن أفوّت هذه اللحظة الأبوية التي أفتقدها من سنين منذ أن أتى بي إليهم قبل عشر سنوات» ص 11. ومثلما كانت بداية النص مع الحوار، تخلل النسيج العديد من الحوارات، التي ساعدت على الإبطاء بالسرد، وعززت من الإيهام بآنية الحدوث، وكانت معبراً لتمرير بعض اللهجة العامية، ونجحت الكاتبة عبر شخوصها وما أضاءته من تناقضاتها، وأعطابها، ونوازعها الرديئة والطيبة أن تضفي عليها المزيد من الجاذبية وتعزز حالة التماهي مع النص. كما مزجت في بنائها بين أجناس أدبية مختلفة، فاستدعت المقال ووظفته داخل السرد، وأبرزت الثقافة العربية المشتركة التي توحد شعوباً من دول وأقطار مختلفة، لا سيما عبر الفن والغناء حين استدعت أغنية المطرب المصري عبد الحليم حافظ «الناجح يرفع إيده»، ووظفتها في خدمة الأحداث.

وبدت غايتها الضمنية في إبراز وحدة الثقافة العربية مرة أخرى، عبر استدعائها أسماء نجوم الثقافة والأدب، من شتى أنحاء الوطن العربي ومنهم الشاعر الإماراتي مانع العتيبة، والكاتب السعودي غازي القصيبي، والكتّاب المصريون ومنهم: توفيق الحكيم، والمنفلوطي، ويوسف السباعي. كما عمدت إلى التناص غير المباشر مع الموروث الديني واستدعت مقولات من تراث الكاتب الإنجليزي شكسبير، ما أسهم في دعم جمالية السرد «ليس في العالم وسادة أنعم من حضن الأم» ص 124.

ورغم آلام بطلة النص وكل ما تجرعته من معاناة؛ مررت الكاتبة الكثير من الأمل والكثير من الرؤى أيضاً، التي تشي بقوة إرادة الإنسان وقدرتها على إضاءة الطريق. كما مررت ضمناً فلسفتها الخاصة، التي تدعم منح الفرص الثانية للناس والحياة ■

* كاتبة صحفية من مصر

التاريخ بين الاحترام والتقديس

شريف مصطفى محمد
كاتب وقاص مصري

من سنوات بعيدة جلست في شرفة منزلنا على الشارع الخلفي الخالي من المارة والليل منسدل على شرفة المدينة .. جلست ممسكاً بين يدي كتاباً في الشعر الجاهلي لطه حسين، وفتحت الغلاف ليغمرني نور لم أستطع أن أتحمله فغشاني وملأني خوف مبهم.. أغمضت عيني ثم أعدت فتحهما من جديد، ليخفت نور الدهشة رويداً وأخرج غضب التواتر والنقل وأستل مخلب الخرافة من مكمنه وأستشيط غضباً وتتحول الدهشة إلى سؤال مكرور لماذا يريدون هدم التاريخ؟ أغلقت الغلاف الأخير وأنا مدهوش مذعور مسكون بالغضب. في ركن بعيد من العقل الغض ثمة منطق يحاول التملص من بين مخالب اليقين الزائف.. كان ذلك منذ أكثر من ثلاثين عاماً.

عندما أعدت قراءة الكتاب الآن بعد كل تلك السنوات دُهشت دهشتي الأولى، ولكن تغيرت معطيات كثيرة في هذا العقل. بعد أن عشت صراعات طويلة ومريرة بيني وبين ذاتي وما زلت أعيشها وكلما نما وعيي أصدرت شرارة أمسكت بكومة من الخرافات والثوابت اللامنطقية التي تكونت في عقلي فاحترقت وصارت نوراً أسير في هداه نحو اليقين الحقيقي والإدراك والوعي الذي يغير من طاقات العقل المنهك تحت وابل النقل وواقع الفكر والثقافة.

لم أتوقف كثيراً عند فكرة انتحال الشعر العربي في حد ذاتها من زاويتها الأكاديمية، فأنا لست خبيراً أكاديمياً في اللغة العربية والشعر والتاريخ. لكنني رجل عادي أعيته رحلاته بين دفات الكتب ومازالت تعييه. يبقى لنشوى اليقين بالحقيقة مذاقها الخاص. لكن سأتوقف عند هوامش عدة دونتها في الزوايا الحادة من الكتاب:

هامش أول

طه حسين كان سابقاً لعصره، مدركاً، مستشرفاً لما سيكون عليه واقع الثقافة العربية. فقد مثّل خلطة للمثقف الذي تأسس على علوم الأزهر الشرعية ومناهج النقل ثم أضاف عليها علوم الفلسفة والفكر والأدب الغربي ومناهج النقد والشك والمنطق كل هذا أنتج تركيبة ذهنية مختلفة لا يهدم ولا يبني لكنه يشير ويعلم كيف نتعامل مع المشوّه من التاريخ، ويبني عقل تخضع قناعاته للمنطق وللعلم.

إن التعامل مع التاريخ بقدسية إلهية يحول التاريخ إلى تمثال يُعبد وتقدم له القرابين وتذبح على هيكله العقول تقرباً له.

هامش ثالث

الدين الإسلامي حين جاءت رسالته كانت في مجتمع صحراوي له مفرداته، مبادئه، قيمه الدينية، الأخلاقية والمجتمعية التي تختلف عن تلك المجتمعات التي تعيش في أماكن أخرى من العالم. لذلك جاء القرآن الكريم بلغتهم ماذا لو كان القرآن نزل على أهل المكسيك فبأي لغة كان سيتحدث؟!

اللغة العربية وقتها لم تكن هي اللغة السائدة في العالم، بل القرآن الكريم هو من جعل اللغة العربية هي اللغة السائدة نتيجة التمدد الحضاري للإسلام من خلال الغزوات التي جعلت من اللغة العربية هي اللغة السائدة في منطقة الشرق الأوسط أو بمعنى أدق منطقة نفوذ الحضارة الإسلامية العربية. وقتها اللغة القبطية كانت السائدة في مصر ، واللغة الأمازيغية كانت السائدة في المغرب والجزائر وليبيا، واللغة الآرامية كانت السائدة في بلاد الشام.

الشعر الجاهلي الذي طه حسين في صدد نقده هو شعر لم يظهر إلا في الجزيرة العربية موطن اللغة العربية وبلهجات متعددة، ورسولنا الكريم محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) جاء من قريش فحتماً ستكون لغته هي لغتهم فهل من المنطق أن ينزل القرآن الكريم في أهل قريش بلغة آرامية؟!

هامش رابع

هل نحن نحتاج فعلاً إلى تفعيل المنهج الديكارتي في قراءتنا للتاريخ ولتراثنا كما فعل طه حسين؟

بالنسبة إليّ لا يهمني المنهج بقدر ما تهمني النتيجة التي سنصل إليها وأن نصل إلى الحقيقة. لكن دعوني أكون واقعياً حتى الحقيقة في التاريخ ستظل نسبية بصورة كبيرة لن نصل إلى الحقيقة العلمية بصورة مطلقة فهذا درب من الخيال فليس هناك مقاييس مادية حقيقية نبني عليها. سيظل الصراع بين المُقدس والحقيقة الواقعة قاسياً على سبيل المثال لم يثبت حتى الآن وجود أي إثباتات أركيولوجية تحكي عن النبي موسى أو النبي يوسف أليست هذه حقيقة علمية ثابتة حتى الآن، ولكن الكتب المُقدسة جميعها تحدثت عنهما فكيف السبيل إلى حل هذا الاشتباك المعقد ما بين يقين المُقدس و شك العلم والواقع والمنطق.

إن الاشتباك بين المُقدس والعلم وفرض سيطرة المُقدس على العلمي والمنطقي هو كيس الرمل المبلل والمربوط في أقدام حضارة الشعوب المتأخرة حضارياً لا تختص بها المجتمعات الإسلامية فقط فهذا اختزال مجحف، لكن بنظرة بسيطة حولنا سنجد أن كثيراً من المجتمعات المتأخرة حضارياً وعلمياً مجتمعات يسطو فيها المُقدس على المنطق والعلم وتسود فيها قيم الأولين على قيم الإنسانية والمنطق.

هامش خامس

معظم تاريخ الجزيرة العربية لم يكن تاريخاً تدوينياً بل تاريخ شفاهي يعتمد على النقل الصوتي من شخص لآخر. والتاريخ الشفاهي ما أسهل تزويره وتبديله وتغييره ليتناسب مع الطبيعة الذهنية للناقل وانتماءاته العشائرية والدينية والمجتمعية. كثير من التاريخ المروي بعد الإسلام هو تاريخ كُتب من مؤرخين كانوا تحت سيف السلطان خوفاً أو طمعاً كما أشار طه حسين لذلك الصراع بين بني أمية وبني هاشم على السلطة.

هامش سادس

طه حسين قدّم في زمانه منهجاً لو أن المجتمع والمثقفين ساروا معه على نفس النهج لتغيرت أشياء كثيرة في مسارنا وحاضرنا. ما كنا بقينا رهن عقول تحجرت وتوقف بها الزمن عند أزمنة غابرة، ولا تدرك أن طالباً في الصف الرابع من الجامعة الآن قد يمتلك حجماً من المعارف تفوق ما امتلكها الكثير من العلماء القدامى الذين نتعامل مع إنتاجهم بقداسة عمياء. هم اجتهدوا ونقلوا وفكروا في ضوء ما أتيح لهم من خبرات ومعارف في زمانهم ونحن

الآن في زمن مختلف بحجم معارف مختلفة، والأجيال الحديثة تمتلك من المعرفة والقدرة على الإبداع والتعقل والتمنطق ومواءمة تغيرات المجتمع ما هو قد يكون أكبر من قدراتهم وأعظم من معارفهم، لكن تبقى قدرة العقل على إعادة إنتاج العلم والمعرفة، هم أنتجوا ونحن توقفنا عند إنتاجهم ودرنا في فلكه ثم نمنا تحت الشجرة نحلم بسقوط الثمار.

هامش أخير

هي مجرد هوامش كتبتها على صفحات كتاب أرعبني في بداية حياتي وآنسني بعد سنوات طويلة. ما بين الحالتين رحلة طويلة من تطور العقلية والمنهجية الذاتية وبناء رؤية تقف على الحياد ولكنها تتمسك بقيمة العقل وتقبل ما يقبله وترفض ما يتعارض معه.

يبقى للتاريخ والموروث قيمته الكبرى في التأسيس لثقافتنا وهويتنا والوعي بالحد الفاصل ما بين احترام التاريخ والموروث وتقديسه. هو بداية رحلة التطور والتحرك في اتجاه المستقبل بهوية أصيلة ومتزنة ومتسقة مع الحاضر والتطور الإنساني والقيمي دون الإخلال بهويتنا الثقافية والإنسانية والوطنية التي تكونت عبر التراكم الزمني لكل المراحل والحقب الزمنية التي مرت علينا ■

المبدأ الأنثوي الأبدي: أسرار الطبيعة المقدسة

فيبي صبري

«قدم كامبل أكثر من عشرين محاضرة وورشة عمل عن الربات، مستكشفاً أشكال ووظائف ورموز وسمات المقدس الأنثوي، متتبعاً إياهن عبر تحولاتهن.. وسمته المفضلة هي تحول وصمود القوى الرمزية للنماذج الأصلية للأنثوي المقدس رغم مرور ألفي عام من التقاليد الدينية البطريركية الموحدة التي حاولت استبعادها».

هذا ما كتبت د. سافرون روزي - أستاذة الميثولوجيا في جامعة سانتا باربارا، كاليفورنيا - في مقدمة الكتاب الذي يجمع محاضرات جوزيف كامبل عن أساطير الربة، متتبعةً المسار السردي التاريخي كما أوردها في تلك المحاضرات. سنحاول اليوم أن نتناول بالإيجاز أفكاره الأساسية كما جاءت في فصول الكتاب.

الأسطورة والمقدس الأنثوي

تبدأ قصة الربة مع البشر في الحقبة الباليوثية. أقدم العصور الحجرية قبل 23000 سنة. حين اعتاش البشر على الصيد وجمع الطعام. في مجتمعات جمع الطعام كان الاحتفاء بالوظائف

البيولوجية للنساء يطابق بينها وبين الأرض ذاتها؛ الأم الكبرى. أما في مجتمعات الصيد، حيث الاحتفاء بالذكور القادرين على صيد الحيوانات الضخمة، فكانت الميثولوجيا ذكورية الاتجاه. ومع ذلك، تظل المرأة مصدر القوة التي يحتاج إليها ليتمكن من النجاح في مهمته.

«على صور الحوائط الباليوثية في شمال أفريقيا ثمة صورة مذهلة لامرأة يخرج منها الحبل السري ويتصل بسرة محارب أو صياد يشد سهماً في قوسه ليطلقه على نعامة. أي إن قوتها بمعنى آخر هي قوة الأم الطبيعة، إلى جوار قوة شعاع الشمس»[1].

كانت طقوس العبور إلى الرجولة تقام في كهوف شديدة العمق، يضطر الخارج منها إلى الزحف عبر ممرات مظلمة كأنه يولد مرة أخرى من رحم الأرض التي تلد الجميع، ليتحول من ابن لأمه الجسدية إلى ابن لأم كونية على مستوى رمزي روحاني.

يرى كامبل الميثولوجيا تبجيلاً وتوقيراً للطاقة الطبيعية في العالم الخارجي والطاقة الساكنة داخل المرء.

«ميثولوجيا الرعاة لها تقاليدها الخاصة، يوجد كيان إلهي يمثل طاقة القبيلة.. الحياة في الصحراء لا تجعلك تشعر بامتنان شديد للطبيعة الأم، اعتمادك الكامل يكون على القبيلة، عندها رب القبيلة يصبح الصورة المهيمنة»[2].

عندما تكون قوى الطبيعة هي مركز الاهتمام، يصبح من السهل حدوث التوفيقية بين المعتقدات، كأن يطلق اليونانيون اسم زيوس على إندرا في الهند، أو يطلق الرومان أسماء آلهتهم على آلهة الغال. لا يمكن أن يحدث ذلك مع إله القبيلة الحصري؛ لذلك يُطلق على آلهة الآخرين في الكتاب المقدس اسم «شياطين»، ولذلك سميت ربة كنعان «رجاسة».

يعود التاريخ المسجل للربة إلى الثقافات الزراعية؛ حيث تماهت الأنثى مع الأرض بقدرتهما على منح الحياة. في العالم القديم بدأت الزراعة واستئناس الحيوانات في جنوب شرق آسيا وجنوب شرق أوروبا. النباتات المزروعة في تايلاند وفيتنام قبل 13000 سنة كانت تتكاثر بالفسائل، حيث كانت النساء تستخدم عصياً لعمل حفر صغيرة لوضع الفسائل. أما الزراعة بالبذور .كانت أولى المحاريث في ميسوبوتاميا .فقد كانت عمل الذكور، الذين لاحظوا الشبه بين عملية الحرث ووضع البذور وفعل التكاثر الجنسي.

في مدينة تشاتال هويوك العتيقة في جنوب تركيا عُثر على تمثال

الربة المزدوجة. «يعرض شكل الربة في كلا دوريها. تمثل بظهرها يستند إلى نسخة أخرى منها، على اليسار هي تحتضن ذكراً ناضجاً، وعلى اليمين تحمل طفلاً بين ذراعيها.. هي الوسط الناقل الذي يحول ماء الرجل إلى حياة، إنها المرأة كمحولة، بينما الرجل هو من يتحول، إنها الوسيط بين الطفل وأبيه»[3]. في المدينة نفسها نجد شكلاً رمزياً للربة وهي تلد ثوراً. رمز القمر بهيئة الهلال في قرنيه. في حدث يستوجب الخشوع، إذ يحمل القمر فناءه داخله مثلنا، مع القدرة على ولادة نفسه مجدداً، ما يحمل لنا وعداً بالولادة مرة أخرى وتجاوز الموت.

الاجتياح الهندو - أوروبي

اجتاحت القبائل السامية ميسوبوتاميا من الجنوب، بينما اجتاحت القبائل الهندو - أوروبية البلقان واليونان من الشمال. كان ذلك في 3500 ق.م تقريباً، في العصر البرونزي.

حملت القبائل الرعوية المحاربة قيماً ذكورية تمجد القتال والعنف، وتحمل تراتبية طبقية لم تكن موجودة في المجتمعات الزراعية العابدة للربة، المتميزة بمساواة طبيعية.

«يُعثر عادةً على القبور الملكية منفصلة عن مقابر باقي أفراد المجتمع. شعائر الدفن لا تشير إلى التباين الاجتماعي فقط، بل إلى دور الرجل المهيمن على المجتمع أيضاً: أول قبر ومركز الجثوة ينتمي عادةً إلى رجل، قد يكون رب الأسرة أو زعيم القرية، وتحتل مقابر النساء والأطفال مواقع ثانوية.. في ميثولوجيات المحاربين تلك يهيمن رب الشمس . بعد أن كانت الشمس مؤنثة . والإناث

يكلفَّن بالقمر وبعض الكواكب»[4]. بعد الغزو يلتقط المحاربون المكونات الميثولوجية الأكثر وضوحاً في الأنظمة الثقافية التي احتلوها، وهي هنا تتمركز حول الربة، ثم يضعون على رأسها ميثولوجيتهم المتمركزة حول الرب. حدث الشيء نفسه في كلٍ من ميسوبوتاميا واليونان. لكن الربة فرضت نفسها مرة أخرى بحلول القرن السابع قبل الميلاد.

يعتقد كامبل أن أهم تحول في رؤية الإنسان للكون هو إدراكه الطبيعة الرياضية المنظمة له. عرف هذا عندما راقب حركة الكواكب وسجلها ولاحظ تكرارها وبات قادراً على توقعها ووضع الخرائط لها. حينئذٍ تحول من الأم الأرض إلى الأم الكونية، المحيطة بنا كالرحم، ما وراء حدودها يتجاوز الإدراك ومفاهيم الوجود والعدم، آنذاك أصبحت الرياضيات بشكلٍ ما مفتاح

لطبيعتها. كما أن دور الربة لم يعد مقتصراً على الخصوبة الجسدية والحياة المادية، بل امتد إلى خصوبة الروح والإلهام. نرى ذلك في تماثيل الربة ذات العيون السومرية. العيون الواسعة الزرقاء بلون السماء. التي تتكرر بالنمط نفسه في الجزر البريطانية والبلقان وترانسلفانيا. أما في مصر، حيث إيزيس التي جمعت أجزاء زوجها القتيل فجعلت إحياءه ممكناً، وحيث ماعت هي قانون الكون كله وريشتها هي مقياس الجدارة بالخلود الروحي، تنتقل الربة الأنثى إلى مستوى لن يدنو منه أحد مرة أخرى عبر التاريخ مهما كان موقعه في مجمع الآلهة.

أرباب وربات البانثيون اليوناني

يفرق جوزيف كامبل بين الأنظمة الميثولوجية الشاعرية والنثرية. في الأولى الإله مجاز لما يوجد في داخلك، غير منفصل عنك، حيث يمكنك مخاطبة نفسك قائلاً: «أنا شيفا». بينما في الثانية يصبح الرب غاية نهائية، فهو ليس داخلك بل خارج عنك، وأنت لا تتماهى معه بل تتعلق به. أحد أعظم خصائص الديانة اليونانية أنها لم تملك نصاً مقدساً، لديها نصوص شعرية غير صارمة في تفاصيلها، وكان لها طقوسها لكن لم تحتوِ قط على طريقة موحدة لتفسير الرموز.

هذا تظهر الربة بأشكال عديدة في الأساطير اليونانية. فنجد أرتميس مثلاً متجلية في أشكالٍ مختلفة بألقابٍ عديدة: العذراء، صيادة الغزلان، ربة الحيوانات البرية، القادرة الجليلة، المخففة لآلام الولادة. هي الغزالة وقاتلتها في الآن ذاته؛ وجهان للكيان نفسه، ففي كل حياة يكمن موتها الخاص، ولكل إله جانبه الحيواني. نرى في تمثال أرتيميس إفسيا الجوانب ثلاثية الجسد للربة في أوروبا القديمة. لدينا العمود الدال على محور الكون، وحوله ثلاثة أشكال الربة: أرتيميس وسيليني وهيكاتي، والأخيرة هي العالم السفلي السحري.

الإلياذة والأوديسة

مقاربة كامبل هنا مذهلة ومثيرة؛ فهو يرى العلاقة بين الإلياذة ذكورية النزعة والإنجازات، والأوديسا التي نتعلم فيها الحياة مع الربة كانتقال من عالم البشر الواقعي إلى عالم ميثولوجي بامتياز، تحدث فيه رحلة التحول مع المبدأ الأنثوي. سرسي الغاوية وكاليبسو الزوجة ونوسيكيا العذراء اللاتي يقابلهن أوديسيوس في رحلة عودته إلى وطنه، هن المقابل للربات الثلاث الأهم اللاتي بدأت بهن قصة الإلياذة: أفروديتي الشهوة المطلقة، هيرا ربة البيت والأمومة، وأثينا العذراء ملهمة الأبطال وحاميتهم. هؤلاء هن الأوجه الثلاثة للمبدأ الأنثوي.

«إنهن الساكتيات[5] الثلاث، سبل الحياة الثلاثة: ما الطريق الذي سيقرر باريس اتباعه في حياته؟ هل سيتبع طريق أثينا البطولي؟ هل سيتبع طريق أفروديتي الشهواني؟ أم سيتبع طريق هيرا في الحكم الملكي والاستقرار والعظمة؟»[6] تلك هي مصائره المحتملة.

في الأوديسا كان على أوديسيوس التطهر من أثر عشر سنوات من القتال قبل العودة إلى زوجته، إنه قادم من عالم يسيطر عليه النظام الأبوي وعليه أن يغوص في عالم الأحلام، أي في أعماق نفسه المهملة ليفهم العلاقة السليمة بين الذكر والأنثى.

أولى الربات اللاتي يقابلهن أوديسيوس هي سيرسي، الفاتنة ذات القوى السحرية، المكافئة له، الغاوية والمهيئة، التي تأخذك إلى العالم الكامن وراء الحدود وتحطم القوانين. لقد أرشدته إلى الحقيقة الأولى؛ أن الذكر والأنثى هما واحد بشكل متجاوز. المهيئة الثانية كانت رسولة هيرا إلهة الزواج؛ كاليبسو التي قضى معها سبع سنوات كاملة في علاقة حقيقية عملية. وأخيراً يقابل نوسيكيا العذراء، المقابلة لأثينا راعية الأبطال، إذ صار جديراً بزوجته/المبدأ الأنثوي، متكيفاً معها، مع الحياة.

أسرار التحول

هنا نتوقف لحديثٍ شائق عن عقائد الأسرار. الأسرار الإليوسية والأسرار الديونيسية والأسرار الأورفية. وسمتها الأساسية عن

أوديسيوس

موت القديم/الحيواني وولادة الجديد/الروحاني، وربما التهام إلهٍ ما في طقسٍ خلاصي، هل يبدو ذلك مألوفاً؟

«أعتقد أن القديس بولس، الذي كان يهودياً وكتب الخطابات والرسائل باليونانية، وكان عالقاً بين التقاليد التوحيدية القاسية لليهودية والتعددية التوافقية اليونانية، رأى في مقتل النبي الشاب ذي الكاريزما رمزاً لمقتل المنقذ الغامض. بهذا التبدل في التركيز صار السقوط من الجنة وقوعاً في نطاق أوهام الازدواج المتضادة والحياة العادية، أصبح الصليب شجرة الخلود في جنة عدن، بينما أصبح المسيح نفسه ثمرة الحياة الأبدية»[7]. مع تحول المجتمعات البشرية إلى حياة المدن المعقدة، لم تعد سمة الموت والولادة الجديدة تُفَسَّر في سياق العالم النباتي بالتحلل

الذي يسبق ظهور البراعم في الربيع، بل في سياق موت النفس وولادتها من جديد. هكذا باتت رموز عقائد الأسرار الزراعية سيكولوجية النبرة وروحية، تستدعي حصرياً الإمكانات الدفينة في أعماق لا وعينا. الحياة تولد من الموت، لأن الزمن موت، تحطيم شكل يؤدي إلى انبثاق شكل، الحياة تقتات على الحياة، هذا هو لب الأسرار كلها. «كل المعاناة وكل النزاع يستقران على ما يرام في المقدس، لو أنك استطعت التخلص من الخوف والرغبة واتخذت وضع النشوة، وضع اقتناص الجمال، سيغنّي العالم»[8].

ختاماً لا أجد أبلغ من كلمات المقدمة لإجمال مقاصد كامبل النهائية من بحثه:

هذا بلا شك زمن مثير جداً؛ إنها حقبة السقوط الحر في المستقبل، لم تعد النماذج القديمة تصلح، والجديدة لم تتضح بعد.. نحن «أسلاف» العصر القادم، صرنا من دون قصد المصدر الذي ستنبثق منه الأساطير الداعمة المستقبلية التي ستلهم حياة الناس، ومن ثم هذه لحظة خلق ■

كاتبة وروائية مصرية

الهوامش والمصادر:

1. المبدأ الأنثوي الأبدي: أسرار الطبيعة المقدسة. تأليف: جوزيف كامبل. ترجمة: محمد أ جمال. دار منشورات تكوين. ص (31).
2. المصدر السابق نفسه، ص (45).
3. المصدر السابق نفسه: ص (58).
4. المصدر السابق نفسه. ص (105).
5. ساكتي كلمة هندية تعني بافارتي زوجة شيفا، وبشكل عام المبدأ الأنثوي الخلاق [المترجم].
6. المبدأ الأنثوي الأبدي: أسرار الطبيعة المقدسة. تأليف: جوزيف كامبل. ترجمة: محمد أ جمال. دار منشورات تكوين. ص (217 - 220).
7. المبدأ الأنثوي الأبدي: أسرار الطبيعة المقدسة.: جوزيف. ترجمة: محمد أ جمال.. ص (261).
8. المصدر السابق نفسه: ص (312).

رمضان في لغة العرب وثقافتهم

علي تهامي

كثيرة هي المزايا التي تتفرد بها اللغة العربية، وهي واحدة من أعرق العالم تراثاً، وأكثرها ثراءً، ولِمَ لا؟ وهي «اللغة الشاعرة» كما وصفها الكاتب الكبير عباس محمود العقاد، والمقصود باللغة الشعرية - هنا - هو أن لغة الضاد بنيت على نسق الشعر، في أصوله الفنية والموسيقية، فلغتنا العربية في مجملها هي «فن منظوم منسق الأوزان والأصوات، لا تنفصل عن الشعر في كلام تألفت منه، ولو لم يكن من كلام الشعراء». وقد نشأت الكثير من الفنون والعلوم والآداب في ظلال تلك اللغة التي خلدها القرآن الكريم، فكانت العلاقة قوية بين اللغة العربية والدين الإسلامي وثقافات العرب والمسلمين، فالقرآن الكريم «كتاب المسلمين الخالد» نزل على نبي الإسلام، محمد صلى الله عليه وسلم باللغة العربية.

وقد ظلت اللغة العربية هي الحاضنة للكثير من مفردات ثقافتنا العربية والإسلامية، والحافظة للكثير من العلوم والمعارف، حتى صار ينظر إلى الحضارتين العربية الإسلامية بأنهما حضارة اللغة، وصار اللسان والمعجم العربي مستودع حكمة العرب وثقافتهم ومناط أفكارهم.

شهر رمضان في المعاجم العربية

وبالطبع فإن لشهر رمضان مكانته في اللغة والثقافة العربيتين، كما هي مكانته في قلوب العرب والمسلمين. إذ حوت المعاجم العربية على الكثير من النصوص التي تتناول «شهر رمضان»، حيث قال ذو الرُّمة: يَرَى الشَّهْرَ قبْلَ الناسِ وهو نَحِيلُ، وقال ابن الأَعرابي: يُسَمَّى القمر شَهْراً لأَنه يُشْهَرُ به، والجمع شُهُرٌ وشُهور، والعرب تقول: رأَيت الشهر أَي رأَيت هلاله.

ورمضانُ: من أَسماء الشهور قال: «جاريةٌ في رمضانَ الماضي - تُقَطِّعُ الحديثَ بالإِيماضِ»، أَي إِذا تبَسَّمَتْ قطَّع الناسُ حديثهم ونظروا إِلى ثَغْرِها.

ويقال: هذا شهر رمضان، وهما شهرا ربيع، ولا يذكر الشهر مع سائر أَسماء الشهور العربية، ويقال: هذا شعبانُ قد أَقبل. وشهر رمضانَ مأْخوذ من رَمِضَ الصائم يَرْمَضُ إِذا حَرّ جوْفُه من شدّة العطش، قال اللّه عزّ وجلّ: «شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن». والرَّمَضُ والرَّمْضاءُ: شِدّةُ الحَرّ. والرَّمَضُ: حَرُّ الحجارة من شدّة حَرّ الشمس، والرَّمَضُ: شدة وَقْع الشمس على الرمل، يقال: رَمِضَ يَرْمَضُ رَمَضاً. ورَمِضَ الإِنسانُ رَمَضاً: مَضى على الرَّمْضاءِ، والأَرضُ رَمِضةٌ. ورَمِضَ يَومُنا، بالكسر، يَرْمَضُ رَمَضاً: اشتدَّ حَرُّه.

لشهر رمضان مكانته في اللغة والثقافة العربيتين، كما هي مكانته في قلوب العرب والمسلمين. إذ حوت المعاجم العربية على الكثير من النصوص التي تتناول «شهر رمضان»، حيث قال ذو الرُّمة: يَرَى الشَّهْرَ قبْلَ الناسِ وهو نَحِيلُ، وقال ابن الأَعرابي: يُسَمَّى القمر شَهْراً لأَنه يُشْهَرُ به، والجمع شُهُرٌ وشُهور، والعرب تقول: رأَيت الشهر أَي رأَيت هلاله

وأَرْمَضَ الحَرُّ القومَ: اشتدّ عليهم. والرَّمَضُ: مصدر قولك رَمِضَ الرجلُ يَرْمَضُ رَمَضاً إِذا احترقت قدماه من شدة الحر، وأَنشد العرب:

«فَهُنّ مُعْتَرِضاتٌ، والحَصى رَمِضٌ، والرِّيحُ ساكنةٌ، والظِّلُّ مُعْتَدِلُ». وقيل أيضاً: الإِرْماضُ كلُّ ما أَوْجَع. يقال: أَرْمَضَني أَي أَوْجَعَني وارْتَمَضَ الرجل من كذا أَي اشتدّ عليه وأَقْلَقَه.

و«نَاتِق» هو اسم شهر رمضان قديماً، وحين غيّرت العرب أسماء الشهور قبيل الإسلام وافق شهر «ناتق» أيام حر فسمي رمضان، والرمض كما أسلفنا هو الحر.

وفي رمضان «لا صوم ولا صبر ولا أجر إلا برؤية الهلال»، و«الهلال غرة القمر حين يهله الناس في غرة الشهر»، وأَهَل الرجل: نظر إلى الهلال، وأهلنا هلال شهر كذا، واستهللناه: رأيناه، وأهللنا الشهر واستهللنا هلاله: رأينا هلاله، وأهل الشهر واستهل: ظهر هلاله وتبين. والتراويح: «صلاة القيام في شهر رمضان»، وسميت الترويحة في شهر رمضان بهذا الاسم نظراً لاستراحة القوم كل أربع ركعات، والتراويح: جمع ترويحة، وهي المرة الواحدة من الراحة. ولشهر رمضان علاقة وثيقة بالمساجد، ففيه يكثر الذهاب إلى المساجد للصلاة والتهجد والتعبد وقراءة القرآن الكريم، والمسجد بالكسر يعني في العربية مكان السجود، والمسجد بالفتح جبهة الرجل حيث يصيبه السجود، والمسجد بكسر الميم هو الحصير الصغير الذي يقال له أيضا «الخمرة» أي الحصيرة التي تنسج من السعف.

وأما المسجد شرعاً فهو الموضع الذي يسجد فيه، وكل موضع يتعبد فيه فهو مسجد، لقول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: «وجُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً».

هلال رمضان في عيون الشعراء

وقد اعتنى الشعراء العرب بهلال رمضان، ورأى الشعراء بأن الهلال هو أحد روائع الطبيعة الفاتنة، وقد صور لنا خيال الشاعر شرف الدين الطائي، الهلال بأنه «سوار جميل تزدان به حسناء» ووجد الزهرة قريبة منه «فهي جوهرة ركبت على قفله» حيث قال الشاعر:

كأن الهلال يمحو السماء
وقد قارب الزهرة النيرة
سوار لحسناء من عسجد
على قفله ركبت جوهرة

وأما الشاعر ابن نباتة المصري، فقد جمع لنا اثني عشر وصفاً لهلال عيد رمضان، صاغها بعبارته الجزلة، وشبّه الهلال براكع يشكر الله على فضله، وحاجب يفضح عمر صاحبه، وزورقاً انحدر في بحر الظلام، ونصف سوار طرحه كف الدجى، ونون رمضان سقطت لما مضى الشهر.

حيث قال الشاعر:

كأن شكل هلال العيد في يده
قوس على مهج الأعداء موتور
أو مخلب مده نسر السماء لهم
فكل طائر قلب منه مذعور

أو منجل بحصاد القوم منعطف
أو خنجر مرهف النصلين مطرور
أو نعل تبر أجادت في هديته
إلى جواد ابن أيوب المقادير
أو راكع الظهر شكراً في الظلام على
من فضله في السماء والأرض مشكور
أو حاجب أشمط ينبي بأن له
عمراً لـه في ظلال الملك تعبير
أو زورق جاء فيه العيد منحدراً
حيث الدجى كعباب البحر مسجور
أو أفل شفة للكأس مائلة
نذكر العيش إن العيش مذكور
أو كنصف سوار قام بطرحه
كف الدجى حين عمته التباشير
أو كقطعة قيد فك من بشر
أخفى عليه الصيام فهو مأسور
أو فمن رمضان النون قد سقطت
لما مضى وهو من شوال محصور

وأما الشاعر صلاح الصفدي، فقد نظم مقطوعات عدة في وصف الهلال، سماها «رصف اللال في وصف الهلال»، وبلغت منظومة الصفدى 43 مقطوعة، نختار منها قوله:

يقول هلالنا في كل شهر
مقالة في عناء واكتئاب
مضى زمن ولي وجه مليح
أفوق به على الخود الكعاب
وقد أصبحت منحنياً كأني
أفتش في التراب على شبابي

وقال صلاح الصفدى مشبهاً الهلال بالمحجبة:

كأن هلال الأفق لما بدا لنا
ولاحظه كلٌ بعين مراقب
محجبة لما تراءت لصبها
بدا حاجب منها وضنت بحاجب

شهر رمضان في كتابات المستشرقين

وقد جذبت طقوس وعادات العرب والمسلمين في شهر رمضان، أعين الكثير من الكتّاب والمفكرين المستشرقين الأجانب، الذين انبهروا بالشرق وصوره وتراثه وحضارته. وانتشرت الكثير من

قد جذبت طقوس وعادات العرب والمسلمين في شهر رمضان، أعين الكثير من الكتّاب والمفكرين المستشرقين الأجانب، الذين انبهروا بالشرق وصوره وتراثه وحضارته

كتب هؤلاء الكتاب والمستشرقين، الذين باتت مؤلفاتهم جزءاً من الثقافة العربية، ومن بين هؤلاء المستشرقين والمفكرين والكتاب الغربيين، الذين كتبوا بتجرد عن العرب والمسلمين، المستشرق الفرنسي، جوستاف لوبون، الذي كتب عن شهر رمضان في كتابه «حضارة العرب» الذي صدر عام 1884 ميلادية، أي قبيل 136 عاماً قائلاً:

«الصوم من أهم عبادات الإسلام، ويصوم المسلمون على اختلاف طبقاتهم، ويُراعي المسلمون في صيامهم شروط الصوم الشديدة بدقة يصعب على الأوروبي أن يتصورها، ويقوم الصوم في شهر رمضان على الامتناع عن الأكل والشرب والتدخين من الفجر إلى غروب الشمس.

ويتضمن امتناع المسلم عن الشرب والأكل في النهار قهراً لنفسه، فإذا اقترب وقت الغروب رأيت المسلم منتظراً فارغ الصبر، أذان المؤذن بحلول وقت الإفطار، وإذا ما غربت الشمس استدرك المسلم ما فاته، وتناول طعاماً وفيراً، وفي ليالي شهر رمضان تُنارُ القهوات المقاهي، وتمثل الروايات، وتشاهد الألعاب بعد الإفطار وتضاءُ المساجد». وبعد: فإن الحديث عن شهر رمضان في لغة العرب وثقافتهم، يحتاج إلى الكثير من الصفحات، بل وإلى مؤلفات كاملة، وما كانت تلك السطور إلا غيض من فيض، مرور عابر على بعض ماجاء في لغة العرب وثقافتهم عن شهر الصوم المبارك، وما كنا محيطين ولكن نضرب الأمثلة ■

* إعلامي من مصر

المصادر والمراجع:

- كتاب اللغة الشاعر للكاتب عباس محمود العقاد، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب عام 2018.
- كتاب عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، للدكتور محمود رزق سليم، المجلد السابع، من الطبعة الأولى الصادرة في عام 1965.
- كتاب مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، للدكتورة سعاد ماهر محمد، المجلد الأول، طبعة الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة عام 2017.
- كتاب رمضان في لسان العرب، للدكتور هشام عبد العزيز، الصادر عن الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة عام 2012.
- كتاب حضارة العرب للفرنسي جوستاف لوبون، ترجمة عادل زعيتر، الصادر عن مكتبة عصير الكتب بالقاهرة، طبعة عام 2017.

الفنان ومطرب الغوص: النهام صالح العبيد

أنور حمدان الزعابي

النهمات البحرية هي أحد الفنون الشعبية البحرية التراثية وتعد من الموروثات الشعبية القديمة في زمن الغوص والقحة وصيد السمك وكذلك في رحلات التجارة البحرية على المحامل واللنجات الكبيرة المسافرة إلى الهند ودول الخليج وايران مثل ميناء بندرعباس حيث كانت تجارة البحرالبسيطة بين دول الخليج والهند وبندر عباس والبصرة في العراق، إن الأنغام والألحان البحرية التي كان «النهام» يطلقها من على سطح السفينة تحت ظلال الأشرعة وكانت الآمال تكبر عند البحارة وهم ينصتون إلى صوته الشجي عندما يردد المواويل الشعبية التي تهزهم عند سماعهم لهذا النغم وهو ينساب في لحن عذب يحرك شجونهم ويمدهم بالطاقة والحيوية.. كما أن للغناء البحري جذور تاريخية عريقة فالإنسان في منطقة الخليج العربي استطاع من خلال العديد من الفنون الشعبية البحرية أن يُعبّر عن ذاته وهمومه إذ استفاد من محيطه البحري واستخدم كل ما يجده أمامه في تعبيراته الموسيقية، وتعد أغاني «النهمة» من أهم أنواع الغناء الشعبي البحري المعروفة منذ القدم في منطقة الخليج العربي التي لاتزال لها حضور مميز في قائمة الفنون الشعبية.

«الداخل مفقود.. والخارج مولود»، بهذه العبارة بدء النهام صالح العبيد حديثه، وهو يروي كيف كانت حياة البحارة قبل 80 عاماً واستخدم البحارة قديماً، الشعر والفن للتعبير عن شقائهم ومعاناتهم مع البحر، وكان الشعراء يتناولون حياة البحارة في قصائدهم، لينشدها بعد ذلك (النهّام) في الرحلات البحرية الطويلة أو ما يعرف بـ (الغوص العود)، أي الكبير ويستمر لمدة 4 أشهر و10 أيام، إذ يستخدم ما يعرف بفن (الزهيريات). واستطرد «العبيد»: «تستخدم الزهيريات أيضاً في النهمة لحث البحارة على العمل ولها تأثير كبير عليهم، فتراهم ينجزون أعمالهم الشاقة بهمة ونشاط غير مبالين بالتعب وعناء البحر لاسيما إذا كان النهام ذا صوت جميل.

الزهيريات

هو نوع من أنواع الشعر النبطي تتكون قصائده من سبعة أشطر حيث تكون الأشطر الثلاث الأولى لها نفس القافية بينما الأشطر الثلاث الثانية لها قافية مغايرة وينتهي الشطر السابع بنفس القافية الأولى. نشأ هذا النوع من الشعر في جنوب العراق ومنها انتقل إلى الكويت والبحرين وقطر. ومن أمثلة ذلك ما جاء للشاعر حمود ناصر البدر:

مشغول بيك القلب مايوم عنك سال
والدمع دم على الوجن يومن رحلتو سال
مابيّا اشيل الهدم عضمي نحل ونسال
من حيث عمري كدر من عقبكم ماصفا
ونصايحي وياك صارت مثل الريح بصفا
متعجب انته الدمع من عيني اسود صفا
مابقى من عيني دمع هذا السواد السال
أحباب قلبي ارحلو ولغيرنا دارهم
ماادري شنوه السبب عني الوكت دارهم
من شالو باليل عقلي والقلب دارهم
سهران مالي ونيس بس النجم ينعد
مطعون بوسط الكبد عندي الم ينعد
والله لولا الزمان الراحلي ينعاد
لعوف الاهل واسكن قرب داره ■

* إعلامي من الإمارات

شاعر يعتبرها «مرهم الحزن» وآخر يصف البيت الخالي منها بـ «المقبرة»

القهوة المحبوبة السمراء تلهم الشعراء والمحبين

الأمير كمال فرج

للقهوة مكانة أثيرة في المجتمع العربي، فهي عنصر أساسي في تقاليد القبيلة العربية منذ القدم، والمشروب الذي يجمع الأقارب والأباعد في المدن، يخفف من صقيع الحياة، ويضفي على اللقاء الحميمية والدفء. كانت القهوة رفيقة البادية في الماضي، والمشروب الرسمي في العصر الحديث، يتشارك في تناولها الغني والبسيط، الكبير والشاب، المرأة والرجل، خاصة مع تأكيد العلم فوائدها الصحية، وحتى بعد ظهور المشروبات الحديثة، ظلت القهوة القاسم المشترك بين الجميع.

والقهوة في القاموس: شَرَابُ الْبُنِّ الْمُغَلَّى، ولها معانٍ مثل الخمر، اللَّبَن المحض، والرَّائحة، والخِصْبُ[1]، ويرد اسم القهوة في اللغة العربية، أصلاً، للخمر، ورد في (لسان العرب) لابن منظور: «سميت بذلك لأنها تقهي شاربها عن الطعام- أي تذهب شهوته»[2]. أما القهوة الحديثة فهي نقيع البن.

القهوة في الشعر العربي

تناول الشعراء القهوة، وأبعادها الاجتماعية، وتغزل فيها كثيرون، ومنهم محمد بن أحمد بن عبد الله، المعروف بماميه الرومي الذي يقول باسم القهوة، واصفا إياها بالمحبوبة السمراء:

«أنـــا المحبوبـــة السمـــــرا
وأجلـــــى بالفنـــاجـــين
وعـــــود الهنـــد لي عطـــر
وذكـــري شـــاع في الصـــين»[3]

ويعتبر الشاعر عبد اللطيف بن أبي كثير القهوة مرهماً للحزن، يقول:

«قهوة البن مرهـم الحـزن وشفا الأنفـس
فهي تكسو شقـائق الحسن من لها يحتسي
شاذلي المحا لها أمس قطب الزمـان»[4]

ولكن في المقابل هناك من ينتقد القهوة، ويرى أن شربها مجرد عادة، وأنها في الحقيقة لا تضر ولا تنفع . يقول إبراهيم بن المبلط:

«أرى قهـوة البـن في عصرنـا
على شربهـا النـاس قد أجمعـوا
وصـارت لشرابـها عـادة
فليسـت تضـر ولا تنفـع»[5]

والقهوة قد تكون أحياناً وسيلة للتعبير عن الشوق، وهو ما فعله نزار قباني من خلال صورة فنية جديدة، وهي صورة الفنجان الذي يثب في يديه شوقاً لفنجان الحبيبة، يقول في قصيدة «في المقهى»:

«جـــواري اتخـــذت مقعدهـــا
كوعـــاء الورد فـــي اطمئنانهـــا
وكتـــاب ضـــارع فـــي يدهـــا
يحصـــد الفضلـــة من إيمانهـــا
يثـــب الفنجـــان من لهفتـــه
في يـــدي، شوقـــاً إلى فنجانهـــا»[6]

القهوة في الشعر الشعبي

كانت القهوة مظهراً أساسياً من تقاليد البادية الحاضنة الأولى للشعر الشعبي، لذلك ليس غريباً أن يحتفي الشعراء الشعبيون بالقهوة ويعتبرونها جزءاً من عاداتهم وتقاليدهم التي يجب التفاخر بها. والقهوة إحدى تقاليد السنع، وهي عادات وتقاليد الضيافة الإماراتية أو ما يمكن أن نسميه إتيكيت الضيافة، ويشمل السنع اللباقة في التصرّف وحسن اختيار الكلمات، وطريقة الرد في أي حواروحتى في تقديم الطعام وصبّ القهوة.

يقول الشاعر محمد أحمد السديري داعياً صديقه لإشعال النار وتحميس البن اليماني وهو من أجود أنواع البن، وأن يزيد الهيل لكي تكتسب القهوة نكهة أفضل، مؤكداً أن لكل شخص هواه الخاص، وأن هواه هو القهوة، يقول:

«يا عمير شـب النـار والسمر صفـه
يـوم النعايـم بـارزات تكاشـف
واحمـس من البن اليماني وصفـه
هذا هـواي وكـل نفـسٍ لها شـف
والبـن زد به هيـل والهيل وفـه
وخلك حـذر بالعين يا عمير والكـف»[7]

وزاد الشعراء في وصف القهوة ومدحها، وبالغوا في ذلك، ومن هؤلاء خويلد المزيني الذي لعن البيت الذي لا توجد به قهوة، وزاد على ذلك واصفاً المنزل الذي لا توجد به قهوة بالمقبرة، يقول:

«إلعنـك يا بيـتٍ مـن البـن خالـي
هـذاك مثـل المقـبرة مقعـدٍ فيـه»[8]

ويعظّم الشاعر القديم قيمة القهوة، ويؤكد أنه سيشتريها حتى لو غلا ثمنها، لارتباطها بالمحبوبة «الريم»، ويقول:

«يـــا القْهَـــوَه بَتْشـارِعَ ويـــاج
لَـــوْ يِسْتـــوي مَزِّـــجْ بعِشْريـــن
بَشْـــراجْ حَـــقْ الرِّيـــم تِقْـــلاجْ
مَحْـــلا صْبـــابِجْ فـــي الفَنـــايِين»[9]

ويطلب الشاعر دغيم الظلماوي من صديقه أن يشب النار، ويعد القهوة، ولا يكتفي بذلك، ولكنه يشرح له كيفية الإعداد الجيد لها، ويلمح بطريقة طريفة إلى فوائد صحية للقهوة، فالهيل الذي يضاف إليها علاج لألم الرأس. يقول:

«يا كليـب شـب النار يا كليـب شبـه
عليـك شبه والحطـب لك يجابـي
حنـا علينـا جيـب ماهـا وحبـه
وعليـك تقليـط الدلال العذابـي

ادغـث لهـــا يـــا كلـــيب من سمرجبـــه
وشبـــــه ليامنـــه غفـــى كل هابـــي
واحرص علـــى جمـــره إحراق حبـــه
يامـــا العـرق تشـوف على الحـــب ذابي
ودق البهـــاروبهـــره ثـــم صبـــه
تصبـغ على الفنجـــال مثل الخضابـــي
ونجـــره توال الليـــل يدعيـك نبـــه
لا عـــوى يشـدي حس ذيـــبٍ بنابـــي
الوالمـــه يا كليـــب عجّـــل بصبـه
والرزق عنـــد اللي يجيـــب السحابـــي
ومـــن يوجعـــه رأسـه ترى الهيـل طبـه
وليـــا تقهـــوا كيفـــة الرأس طابـــي
بـــــاغ ليا شبيتهـــا بالمشبـــه»[10]

تقاليد الأجداد

للشاعر علي بن سلطان بن بخيت العميمي قصيدة عن القهوة، يؤكد فيها أن القهوة جديرة بالاحترام والمدح، لأنها رمز من رموز التراث العربي، وأحد تقاليد الأجداد، تقدم للضيف كتعبير عن الكرم، مع الحفاظ على تقاليد التقديم، بأن تقدم لكبير السن أولاً تعبيراً عن التوقير والتبجيل، كما تقدم في المجالس مع المبخرة التي يبخر فيها طيب العود. يقول في قصيدة «القهوة»:

«يـــا لقهـــوَه لك قايـــم بْشـــفّ
يـــا تُراثنـــا مـــن عصـــر لجْـــدود
لأبّـــي علـــى شانـــك مكلّـــف
مرضـــاة لجْـل صْخيّـــف العـــود
اللّـــي بوَصلَتْهـــم أنْشـــرَف
وقـــدره عـــن الباقـــين مفْنـــود
قـــال «لقْهَـــوَه» بالمـــدح توْصَـــف
لهـــا احتـــرام السَّمـــت موْجـــود
فـــي بَـــرزة الحكّـــام تعْـــرَفْ
أهـــل الشَّـــرف وافـــين لعْهـــود
يـــوم ابْـــرزوْا وتْكمَّـــل الصَّـــف
بْهـــا كبـــير السّـــن مقصـــود
عـــاده وللضيفـــان تنْـــزَف
وفـــي مْلازمتـــها مدخـــن العـــود
يشهـــد لهـــا الفنجـــان ما حـــفّ
حـــقّ الرّجـــال وبرزة الخـــود»[11]

وينعي الشاعر الحال الذي وصلت إليها القهوة الآن حيث يرى أن مكانتها قلّت، ومجدها تهاوى، بعد أن أصبحت تقدم بواسطة العمالة بأسلوب تجاري لا صنعة فيها ولا فن. يقول:

«يـا» بـــن «قـــدرك» صاريضْعـــف
يـــوم استويـــتي حـــقّ لهنـــود
يشـــرب وفنجانـــه مظـــرّف
والمـــزر عنـــد النـــاس منقـــود
فـــي كـــوب يشربهـــا موقّـــف
وينقّـــي الفنجـــان لـــي عـــود»[12]

ويطلب الشاعر السماح من البن الذي كان في الماضي يستخدم في التجمل بصبغ الأيدي كالحناء، واصفاً البن بأنه موز بين الورود، طارقاً بذلك مساحة وصفية جديدة، مقدماً بذلك صورة شعرية جديدة بالمقارنة بين الموز والورود. يقول:

«منـــك العفويـــا مْحـــنّي الكـــفّ
يـــا فـــوع مـــوزٍ بين لـــوْرود»[13]

والقهوة مشروب لا غنى عنه في الترحيب بالضيوف، وهو دلالة على الكرم وحسن الوفادة، زار الشاعر حمد حارب راشد العميمي جاراً له، وعندما دخل منزله، أقسم على الجار ألا يعدوا لا قهوة ولا هيلاً تخفيفاً عليهم، وحرصاً من أهل الجار على إكرامه وفي الوقت نفسه ألا يخالف الضيف قسمه أعدوا له «حالي» وهو عبارة عن قرفة وزعفران وقناد وهو مزيج من المواد العطرية النباتية. يقول

الشاعر في قصيدته «يوم يبت يران الحشامي» التي يروي فيها هذا الموقف، الذي يدل على كرم أهل جاره، وتميز سنعهم:

«يـــوم بيـــتْ يـــرانٍ حشامـــي
نشـــووســـــوو لـــي معاميـــل
ألغيـــــت باللـــــه والكلامـــي
مـــا يستـــوي بـــنٍ ولا هيـــــل
صفـــا المصفـــى يـــا غلامـــي
غنـــد وفيـــه الطيـــب تعميـــل
ترحيهـــــم قبـــل السلامـــي
لـــول ومـــن الخاطـــر تنزيـــل
ولا علـــى سنعهـــم حـــد رامـــي
عســـر علـــى الحفلـــين بالحيل»[14]

الشاعر حميد بن خليفة بن ذيبان وثق في قصيدة بعض أدبيات الضيافة العربية، فأورد مشروبين هما الشاي بالنعناع و«المزلول» القهوة، وأعطى لمحة عن وسائل الضيافة، فأورد في ذلك «السفوف» وهو ما توضع فيه أواني الضيافة، و«ميوات» وهي الفواكه. يقول في قصيدة «شاي بالنعناع»:

«حطّيـــت لك في الشـــاي نعنـــاع
ومْقنّـــد المزلـــول بالهيـــل
وسفـــوف تحـــوي كـــل الأنـــواع
ميـــوات ممـــا تشتـــهي شيـــل
ودام اللارنجـــي بشّـــروفـــاع
مرخـــوص لو تجـــي محاصيـــل
قلبـــي غـــدا لك فيّ مربـــاع
مْبيـــت والا تنـــوي مْجيـــل»[15]

القهوة والحب

للشاعر علي بن رحمه الشامسي قصيدة غزلية، يعبر فيها عن أشواقه، ولواعجه، ويؤكد فيها اشتياقه لسماع صوت حبيبته في الهاتف، ولكنه سيصل بعد ذلك إلى ما هو أبعد من ذلك، وهو الجلسة البرية والقهوة الممزوجة بالزعفران. يقول في قصيدته «رنين الهاتف»:

«ألويـــا حيّ مـــن صوتـــه لفانـــا
عـــدد مـــا رنّ واسمـــع تيلفونـــه»[16]

ثم ينتقل الشاعر للدعاء بسقوط الغيث، ويصف كيف تضيء السماء بنور البرق، فتنهال الأمطار، ويزدهر العشب، ويحلو الخروج إلى البر، لينصب خيمته في مكان مرتفع، ويعد القهوة الممزوجة بالزعفران، ويقدمها للأصدقاء الذين يستحقون

الترحيب والضيافة. يقول الشاعر:

«ألا يـــارب يـــا سامـــع دعانـــا
أســـألك يا كريـــمٍ يعبدونـــه
تغيـــث الداروتْنـــوّر سمانـــا
ونـور البرق يـــا ضي فـــي مزونـــه
ويمطـــروالعشـــب يبطي زمانـــا
ثـمان سْنـــين مـا تمحـــل فنونـــه
واشيّـــد خيمـــتي في أعلـــى مكانـــا
علـــى روس الحـــدب لـي يسكنونـــه
واحَمْـــس البـــن فيـــه الزعفرانـــا
واصبّـــــه للذي يستاهلونـــه
وطـــاب الأنـــس في موســـم هوانـــا
ونـــاح الورق في عالـــي غصونـــه»[17]

الدله رمز تراثي

الدلَّة أهم أدوات إعداد القهوة، ومن الشعراء الذين وظفوا دلة القهوة كرمز تراثي، ورمز لإكرام الجار والضيف الشاعر مبارك بن ناصر بن سالمين المنصوري. يقول في قصيدة «بسره شرات الدان: محلي الرطب والدله» معبراً عن عادة الكثيرين، وهي الجمع بين التمر والقهوة:

«حمـــدان يـــا حمـــدان
مشـــاهدك مـــا ملـــه
يستقبـــل العربـــان
والشعـــب يـــا لـــه كلـــه
غـــدا اليـــوا بستـــان
والقيـــظ يـــا فـــي حلـــه
يـــاب الرطـــب فنـــان
وإللـــي ينافـــس قلّـــه
بســـره شـــرات الـــدان
محلـــي الرطـــب والدلّـــه»[18]

في الاتجاه نفسه يدعو الشاعر عبد الله العلي الحرير (1275هـ 1365هـ) مرافقه لتسوية فنجان من القهوة، وليبدأ بتنظيف الدلال، ليستمتع أصحاب الكيف، ويؤكد على إشعال النار لتبدد الظلام الشديد، يقول:

«قـــم سو فنجـــال ونظف أدلالـــه
ريحـــه لراعي الكيـــف يجلي اعماسه
اشعـــل ولونه مثـــل دم الغزالـــه
لا ذاقـــه الراقـــد يحارب انعاســـه
في مجلـــس تدله إلى جـــاء مجالـــه
اللي عـــن اللجـــات يقصر حساســـه
وإلا تـــرا بعـــض المجالس عذالـــه
لا معشر طيـــب ولا فيه أناســـه»[19]

السمات الفنية في شعر القهوة

دراسة السمات الفنية في الموضوع الشعري الواحد مهمة، حيث نكتشف من خلالها السمات والموضوعات والأساليب المشتركة، ويمكن تحديد السمات الفنية للشعر الذي تناول القهوة فيما يلي:

1. تعظيم التراث

القهوة بأدواتها وطقوسها وآدابها جزء من العادات والتقاليد العربية، وبمرور الزمن أصبحت جزءاً من تراث العربي أيضاً، والاعتزاز بالقهوة وتمجيدها اعتزاز وتمجيد بالتراث وقيمة. لذلك فإن تعظيم التراث جزء أساسي من شعر القهوة، لا ينفصلان عنه، حتى لو جعل الشاعر القهوة مدخلاً للتعبير عن حالة أخرى، يظل تعظيم التراث وتمجيده عنصراً أساسياً في كل موقف وكل حين.

2. أسلوب المنادى

يلاحظ في عدد غير قليل من القصائد التي تحدثت عن القهوة حصراً أو تطرقت إليها كجزئية داخل النص الشعري استخدام أسلوب المنادى. وفيه ينادي الشاعر شخصاً ما باسمه أو صفته كأن يقول «يا كليب»، «يا بجاد»، أو يستخدم فعل الأمر المباشر كأن يقول «اشعل النار». وهذا الأسلوب يتناسب مع طابع المسامرة أو الأنس في تناول القهوة، حيث يتم شربها في رفقة من الأصدقاء أو الضيوف. وهو لاشك أن «أسلوب التخصيص» هذا يضفي على القصيدة الطابع الشخصي، ويمنحها نوعاً من الصدق الفني.

3. توسيع الدلالات

رغم أن القهوة رمز تراثي محدد، وحتى طريقة تناوله محددة، فإن الشعراء نجحوا في فتح زاوية الدلالة إلى آفاق أرحب، وهو ما ساعدهم على تقديم تراكيب وصور غير تقليدية.

وفي إطار حرص الشاعر على تجديد الموضوع والصورة الشعرية تحولت القهوة مرة إلى حبيبة، ومرة أخرى رمز للحميمية والدفء الاجتماعي، ومرة ثالثة للتعبير عن الحب.

4. مدخل للمدح

نظراً لارتباط القهوة بعادات الضيافة العربية، وارتباط ذلك بالتبعية بالشيم والعادات والتقاليد ومن بينها الكرم، كانت القهوة مدخلاً مناسباً للمدح. سواء كان ذلك المدح موجهاً لفرد أو جماعة أو قبيلة. لذلك وجدنا بعض الشعراء استخدموا هذا المشروب السحري لمدح الناس والإشادة بكرمهم وسنعهم الشعبي الجميل.

الخلاصة، تناول الشعراء الشعبيون القهوة العربية كمظهر من مظاهر التراث، ولم يكن ذلك التعبير مقتصراً على الوصف الخارجي التقليدي، ولكن على صعيد الموضوع، نجح بعضهم في توظيف القهوة للرمز والتعبير عن مشاعر إنسانية مختلفة كالحب والكرم والمدح والذات الإنسانية التواقة للسهر واللقاء والبر، وعلى الصعيد الفني نجح بعضهم في تطوير الصورة التعبيرية عن القهوة، ومنحها أبعاداً أكبر من حيث الدلالة والإيحاء والمجاز ■

* صحفي وباحث مصري

الهوامش والمراجع:

1. قاموس المعاني: www.almaany.com
2. معجم «لسان العرب»، ابن منظور.
3. دراسة «ابن ماميه الانكشاري ابن رومي عصره»، موقع رابطة الأدباء الكويتيين: www.alrabeta.com
4. عبد اللطيف بن أبي كثير: «الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة»: موقع تراجم: www.taraajem.com
5. إبراهيم بن المبلط إبراهيم، المصدر السابق.
6. المصدر السابق.
7. قصيدة «الله من قلب» لمحمد السديري: موقع شعر www.alsh3r.com
8. قهوتنا العربية في عيون الشعر الشعبي . يوسف المطيري . صحيفة الجزيرة. 29 يوليو 1999.
9. من تراث الأولين، وتنسب أحياناً لبعض الأبيات الشعرية القديمة لأهالي أبوظبي.
10. مقال «يا كليب شب النار يا كليب شبه»، خليفة الخرافي . صحيفة القبس، www.alqabas.com
11. ديوان ابن بخيت «علي بن سلطان بن بخيت العميمي»، د. راشد المزروعي. نادي تراث الإمارات، بيت الشعر. أبوظبي 2010.
12. المصدر السابق.
13. المصدر السابق.
14. ديوان العميمي «حمد حارب راشد العميمي». جمع وإعداد موزة العميمي. نادي تراث الإمارات. مركز زايد للبحوث والدراسات. الطبعة الأولى. أبوظبي 2022.
15. «جناديل» ديوان الشاعر حميد بن خليفة بن ذيبان، تحقيق فهد المعمري، نادي تراث الإمارات . مركز زايد للبحوث والدراسات، أبوظبي 2013.
16. ديوان نسيم الخليج «علي بن رحمه الشامسي»، نادي تراث الإمارات، د. راشد المزروعي. أبوظبي 2010.
17. المصدر السابق.
18. ديوان بن سالمين «مبارك بن ناصر بن سالمين المنصوري»، نادي تراث الإمارات، مركز زايد للدراسات والبحوث، أبوظبي 2022.
19. القهوة وماذا قال الشعراء فيها؟ صحيفة الجزيرة. www.al-jazirah.com

الصوت هو وجهك الآخر

فاطمة حمد المزروعي
كاتبة وباحثة من الإمارات

صوتك وعجلتك

مقولة لأحد الحكماء، تعبّر عن أهمية الصوت، كيف يحمل رسالة غير الكلمات، من حيث السرعة والبطء، وتنغيم الكلمات، والوقفات، إضافة إلى لازمات الكلام عند بعض الأشخاص مثل: أمممم، يعني، وغيرها. إن الوقفة القصيرة أو السكتة لها مفعول مهم؛ هي بلاغة الصمت، لها مواضع مهمة لو أحسن المرء استخدامها يصبح مؤثراً في الآخرين. كما يعبّر الصوت عن حالة الإنسان النفسية، والمزاجية، والاجتماعية، وأفكاره، وماضيه وحاضره، كل هذا يتموج في كلماته، لكن قلة من الناس تكتشف ذلك؛ لأنه ليس بسهولة اكتشاف تغير الصوت بسبب الزكام مثلاً! إنه يحمل شفرات، يفكها يحللها من لديه صفاء نفسي، وتركيز دقيق.

كثير من المحادثات تفشل، لسبب أساسي يلعب فيه الصوت دوراً جوهرياً؛ لأنه قد يأتي مخالفاً للأفكار المطروحة، طريقة الكلام، سرعته، هدوئه، توتره، تنغيمه. هناك صوت في النقاش يقول لك أنا عنيد، لاتناقشني، لا يهمني إن كسبت هذا العرض أم خسرته! وهناك متحدث يصب الكلام صباً، كأنه حمل ثقيل سيرميه ويمضي.

يتحدث فتشعر بأنك على فرس تعدو بسرعة وغضب، يمنعك من التقاط أنفاسك، تعلم لحظتها أن المتحدث مرتبك، متوتر، يمرّ بوقت عصيب في انتظار انتهاء هذا الأمر. لقد حدث هذا لي مؤخراً في إحدى المحاضرات الطويلة التي استمرت أكثر من ثلاث ساعات متواصلة؛ لأن المتحدث ينقل لك توتره وعصبيته، في صوته، دون إدراك منه لذلك؛ من حسن الحظ أن المحاضرة افتراضية، عبر تطبيق زووم؛ لذلك وضعت موسيقى للاسترخاء والهدوء، لتصبح خلفية وتختلط بالصوت فتهدأ نفسي وتستقر؛ حتى أصير قادرة على الإنصات والتفاعل.

لكن ماذا عن الصوت الداخلي الجواني في أعماق النفس؟ من يسمعه ؟ من ينصت له؟ انشغالات الحياة، زحمتها، ضغوطها، قرارات لابد أن تتخذ، قد يشاور فيه الشخص الآخرين، لكنه كثيراً ما ينسى الصوت الداخلي، رغم أنه يعبّر عن ذات المرء، وهويته، وآماله، وأحلامه، ومخاوفه، وطموحاته. وبعضهم لا يحسن الاستماع، أو لا يعلم بوجوده أصلاً؛ لأنه يعيش الحياة كما رسمت له، لكنها تمضي دون أن يحقق أحلامه، أين ذهبت أيامه ولياليه؟ ماذا أنجز؟ دون أن يطرح الأسئلة على نفسه: من أنا؟ ماذا أريد؟ ما مصادر قوتي؟ ما نقاط ضعفي؟ ما الفرص الموجودة أمامي؟ ما العقبات التي تواجهني؟ كيف أنمو؟ كيف أخلق حياة متوازنة؟ أين سأكون بعد خمس سنوات؟ كلها أسئلة تنير له طريق الحياة، فلا يمكن أن تسير قبل أن تحدد مكانك، ثم تختار مسارك، وإلا لن يتعدى الوضع أن يكون جرياً في المكان؛ لأن سُنة الحياة أن تتقدم، فإن لم يحدث فإنك حتماً تتراجع إلى الخلف!

ما حصاد عمره؟ أكان منجزاً وبارعاً في مجال العمل والأصدقاء؟ فأين عائلته؟ وماهي هواياته؟ وما أحواله المادية؟ وأين تذهب أمواله لتسديد الفواتير في نهاية الشهر؟ أم إنه يستثمر في ذاته، في مشاريع تعود عليه بالنفع؟ وغيرها من الأسئلة التي تطرح نفسها. هذه تسمّى في مناهج تدريب الحياة بالعجلة، ترسم على شكل دائرة، تقسم إلى مجالات عدة غالباً تغطي ستة مجالات هي: الإيماني، والاجتماعي، والمالي، والجسدي، والصحي، والوظيفي. وهذه العجلة يمكن أن تضاف لها مجالات أخرى حسب طبيعة عمل الشخص واهتماماته، من خلالها يقيّم الشخص ذاته، ويحدد أهدافه وأحلامه، فيتابعها يوماً بعد يوم؛ من أجل تحقيق التوازن، والرضا عن النفس، بتقدير الذات للوصول إلى تحقيقها، حتى يحدث التغيير الإيجابي يوماً بعد يوم، والوصول إلى التوازن؛ كي لا يطغى مجال على آخر؛ لأن كل إنسان خلق فريداً، لا في بصمة أصابعه، ووجهه، وصوته فحسب، وإنما أثره، وقدرته على إحداث الفارق على هذه الأرض، حتى لا يكون نسخة مكررة.

كن ذاتك، صوتك الداخلي، وحافظ على توازن عجلتك ■

نادي تراث الإمارات

إعلان طباعة كتب

وَضَع نادي تراث الإمارات ومركز زايد للدراسات والبحوث خُطّةً لرفد المشهد الثقافي الإماراتي بإصدارات متنوعة تَخُصُّ تراث الإمارات وتاريخها؛ قَصْدَ إغناءِ المكتبة التراثية الإماراتية، وفَتْحِ منافذَ معرفيةٍ جديدةٍ أمام الباحثين، ويَدعوهم إلى طباعة كتبهم وتسهيل نشرها في «المركز»، ليشارك بها في المعارض والفعاليات الثقافية. ويُقدِّمُ «المركز» لمؤلِّف الكتاب مكافأةً مالية تتراوح بين (10000 - 15000 درهم إماراتي).

شروط النشر:

- أن يَتّصف موضوع الكتاب بالجِدّة، والموضوعية، وشمول المعالجة، والفائدة المعرفية.
- ألا يكون الكتاب منشوراً سابقاً، أو مُقدَّماً للنشر في جهة أخرى.
- أن تكون لغةُ الكتابِ العربيّةَ الفصيحة المُصحَّحة لغوياً.
- ألا يكون الكتاب مترجَماً.
- أن يلتزم الكتاب بالمنهجية العلمية في التأليف، والأمانة العلمية، والنَهْل من المصادر الأصيلة، وتدوين الهوامش أسفلَ كلِّ صفحة.
- أن تُدوَّن المصادر والمراجع في نهاية كل كتاب.
- أن يُرسَل الكتاب بصيغة الوورد، مرفَقاً بملخَّص من نحوِ مئتي كلمة باللغة العربية، وبنبذة مختصرة عن سيرة المؤلِّف العلمية.
- أن يكون عدد كلمات الكتاب بين 30 و70 ألف كلمة.
- تَتَولّى هيئة تحكيم مختصة مراجعةَ الكتاب وتقييمَه وإصدارَ قرار نهائي بشأن طباعته خلال شهرين من تاريخ إرساله. وفي حال الموافقة، يلتزم الكاتبُ بإجراء التعديلات المقترحة.
- مدة العقد خمس سنوات.
- تُرسَل الكتب بصيغتَي Word وPDF إلى الإيميل التالي: torathbook@ehcl.ae

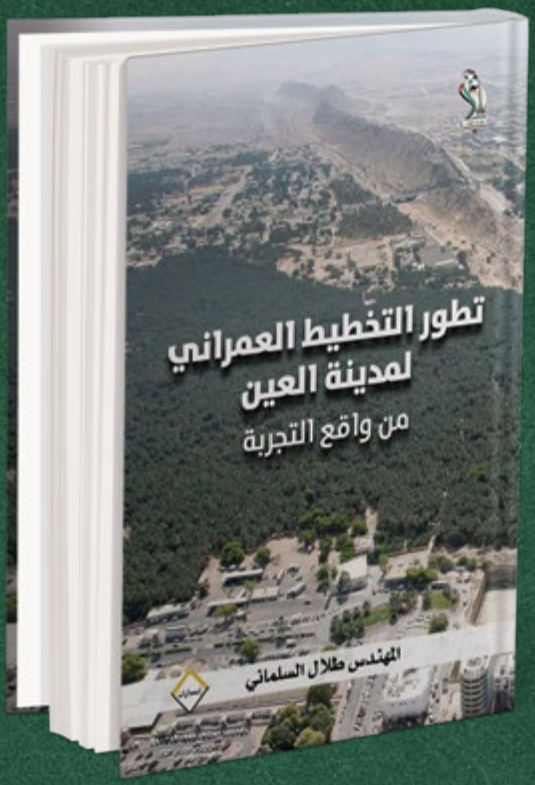

تطور التخطيط العمراني لمدينة العين

«من واقع التجربة»

تطور التخطيط العمراني لمدينة العين «من واقع التجربة» كتاب يتناول قصة نجاح مدينة العين في التحول من تجمعات سكانية صغيرة حول الواحات إلى مدينة عصرية خضراء، ويرى المؤلف في كتابه أن الحفاظ على هذا النجاح واستدامته هو من أولويات التخطيط الحضري السليم الذي يستوجب المراجعة الدورية المنتظمة لخطط التطوير العمراني للتحقق من مرونتها واستجابتها لمتطلبات المرحلة القادمة دون الإخلال بالثوابت والأهداف التي حددتها خطة إطار الهيكل العمراني لمدينة العين لعام 2030. كما يتحدث المؤلف عن واقع معايشته لمستجدات التطور العمراني لمدينة العين لأكثر من ثلاثة عقود مشيراً إلى مجموعة من المشاهدات لبعض الظواهر في البيئة العمرانية في المدينة، وهو يرى أن أي تخطيط للمدينة يجب أن يقوم على أساس علمي منهجي يستند إلى دراسات وإحصائيات وتحليلات لمختلف القطاعات ذات الصلة بحياة البشر سواء في الإسكان...

المهندس طلال السلماني